نحو الرشاد



لسالكي طريق الدعوة

م. عيسى خيري الجعبري

نحو الرشاد

رسائل للسالكين في طريق الدعوة

كتبها

م. عيسى خيري الجعبري

الطبعة الأولى

الخليل/ فلسطين

١٤٤٤ هـ / ٢٠٢٣ م

دار المستقبل للدراسات والنشر والإعلام

فلسطين - الضفة الغربية - الخليل

ص.ب.٥٥

مقدمة

الحمـد للـه المنعـم المتفضّـل المتعـال، حمـدًا يليـق بجـلال وجهـه وعظيـم سـلطانه، والصلاة والسـلام عـلى النبـي الهـادي البشـير الـذي تركنـا عـلى محجّـة بيضـاء ليلهـا كنهارهـا لا يزيـغ عنهـا إلا هالـك.

هـذا الكتـاب في أصلـه مجموعـة مـن التدوينـات والمقـالات والمنشـورات التـي سـبق ونشرتهـا عـلى صفحـاتي في وسـائل التواصـل الاجتماعـي، وفي بعـض المواقـع عـلى الإنترنـت، ذلـك أني كنـت منـذ سـلكت في طريـق هـذه الدعـوة المباركـة قـد تربّيـت عـلى أيـدي مشـايخي ومُـرَبِّيَّ عـلى طلـب الرشـاد في مسـيري والسـعي إليـه، والبحـث عـن الحـق والحـرص عليـه، والنفرة مـن الباطـل وطلب البُعـد عنـه، وقـد أخـذت نفـسي بالعمـل عـلى دلالـة إخـواني وأحبـابي والنصـح لهـم، ولذلـك فقـد كان ديـدني منـذ صـار كثـير مـن التواصـل بـين السـالكين في طريـق اللـه تعـالى عـبر (وسـائل التواصـل الاجتماعـي) أن أكتـب واضعًـا ذلـك نصـب عينـي، فكنـت إذا أردت التعليـق عـلى حـدث أنظـر إليـه مـن زاويـة مـا يحتـاج للتعليـق عليـه لتصويـب المسـيرة، وإقامـة النهـج، وطلـب الرشـد، إذ مـن واجبـات المسـلم أن يسـير نحـو الرشـاد، والرشـاد الـذي يُنـدب للمسـلم لطلبـه والسـعي إليـه هـو الاسـتقامة عـلى الطريـق، إذ الفعـل (رَشَـدَ) يَـدُلُّ عـلى اسـتقامة الطريـق .

وقـد كان حبيبنـا النبـي الكريـم صـلى اللـه عليـه وسـلم يُعلّـم أصحابـه أن يسـألوا اللـه تعـالى إلهامهـم الرشـاد وهدايتهـم إليـه، فـكان مـن الدعـاء الـذي علمهـم إيـاه أن يقولـوا في دعائهـم: (اللهـم إني أعـوذ بـك من شر نفسي، وأسـألك أن تعـزم لي عـلى أرشـد أمـري)، وفي روايـة: (اللَّهُـمَّ أَلْهِمْنِـي رُشْـدِي، وَأَعِـذْنِي مِـنْ شَرِّ نَفْـسِي) .

وكـما هـو معلـوم لـكل سـالكٍ طريـقَ التربيـة والتوجيـه أن التنبيـه لمراشـد الأمور

والتحذير من المزالق يكون أجدى وأبلغ إن ارتبط بالأحداث الجارية، كما أن تلك الأحداث تكشف – في كثير من الأحيان – عن مواطن الخلل في الفكر أو السلوك مما يوجب على أهل العلم والرأي أن يبيّنوا الحق من الباطل في تلك القضايا.

ورغم أن أصل الكتاب – كما أسلفت – هو تلك التدوينات إلا أنني لم أبق أكثرها على صورتها التي نشرتها بها في وسائل التواصل الاجتماعي، إذ أعدت تحرير بعض تلك التدوينات وذلك لأسباب عدة، منها إرادة مزيد من التوضيح للفكرة، والحاجة لدمج بعض التدوينات المتشابهة معًا.

ومعلوم للقارئ أنه تدور نقاشات في التعليقات على المنشورات الفكرية في وسائل التواصل الاجتماعي، وتحوي بعض تلك التعليقات على أسئلة واستفسارات، وبعضها يكون فيه أفكار إضافية أثرى بها بعض الأصدقاء القضية موضع النقاش، فقمت بدمج إجاباتي على بعض تلك الأسئلة وردودي على بعض تلك التعليقات التي كانت تأتي على تلك المنشورات في متن التدوينة نفسها، كما استفدت من بعض الأفكار الإضافية التي أبداها بعض الأصدقاء في تعليقاتهم.

والرسائل التي جمعتها بين دفتي هذا الكتاب موجهة للسالكين في طريق الدعوة إلى الله تعالى في المقام الأول، إذ تعالج أمورًا مما يلامس سيرهم في طريق الله تعالى، في الفكر أو التربية أو السلوك، وهناك تدوينات أخرى لي في نفس سياق السعي نحو الرشاد تتعلق بفئات أخرى، إذ منها ما يعالج قضايا مجتمعية، أو علمية، لعلي أفردها في كتاب خاص بها بمشيئة المولى سبحانه.

وسيلاحظ القارئ لهذا الكتاب أن التدوينات والمقالات المنشورة فيه ليست مرتبة ترتيبًا تسلسليًا؛ إذ هي كما أسلفت تدوينات كتبت في أوقات متباينة، عند أحداث مختلفة، وهي تدوينات تغطي كثيرًا مما كتبته في الفترة من

سنة (٠١٠٢ م) وحتى سنة (١٢٠٢)، ولذا سيجد القارئ نفسه منتقلًا من قضية إلى قضية لن يجد بينهما ارتباطًا ظاهرًا سوى أن المخاطَب فيهما واحد، وهو السالك طريق الدعوة إلى الله تعالى العامل لاستئناف الحياة الإسلامية في مجتمعاتنا.

وقد عرضت الكتاب قبل إصدار نسخته النهائية التي بين أيديكم على عدد من الإخوة الأحبة الأفاضل فتكرموا بقراءته وإبداء تعليقاتهم وتصويباته عليهم، فجزاهم الله خير الجزاء.

وأخيرًا:

فإن ما في هذا الكتاب هو جهد بشري، كثير منه يحتمل الصواب والخطأ، اجتهدت فيه قدر طاقتي، وسعيت لبيان رأيي الذي أظنه صوابًا في تلك المسائل، ولا أجزم باحتكاري للحق، فإن أحسنت فبتوفيق الله تعالى وهدايته، وإن قصرت أو أسأت فهي طبيعة البشر القاصرين، فلا تحرمنّي - أخي القارئ - من التماس عذر إن رأيت زلة أو عثرة، ولا من دعوة صالحة إن استفدت شيئًا مما بين يديك.

أسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، والسداد في أمرنا، ويعيذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

م. عيسى خيري الجعبري

مدينة خليل الرحمن / فلسطين

٢٧/ جمادى الآخرة (٦) / ١٤٤٤ هـ ٢٠/ ١/ ٢٠٢٣ م

نحن والاستبداد[1]

هل نحن مستبدون؟

أحد أهم الأهداف التي يسعى لها الأحرار في محاولاتهم لتغيير الواقع السيء الذي يعيشونه وتعيشه مجتمعاتهم هو (محاربة الاستبداد)، وكثير منهم دفع ويدفع عمره ثمنًا لتحقيق هذه الغاية النبيلة، غير أن الملاحظ أننا في كثير من الأحيان نجد أن نفس الأشخاص الذين كانوا يرفعون لواء محاربة الاستبداد قاموا بممارسته على من هم تحت سلطتهم عندما وصلوا للسلطة وصارت القوة في أيديهم!

وهذه الملاحظة توجب علينا أن نتفكر: هل الاستبداد خصلة متأصلة في طبيعتنا البشرية؟

وهل صدق الشاعر في قوله: «إنما العاجز من لا يستبدّ؟»

وإذا كان كذلك فهل يمكن محاربته وتهذيبه والتغلب عليه؟

وإذا كان ذلك ممكنًا فما الطريق إلى تحقيق هذه الغلبة على شهوة الاستبداد؟

وقبل الخوض في الموضوع لا بدّ من الوقوف قليلًا عند مسألة وجود (خصلة) ما متأصلة في طبيعة الإنسان، والتفكر هل يجب الاستسلام لها أم أن علينا أن نتخذ منها موقفًا آخر؟

---

(١) كنت قد نشرت مضمون هذا المقال الطويل في عدة مقالات منفصلة نشرت على صفحاتي في وسائل التواصل الاجتماعي، وفي مواقع أخرى على الإنترنت، منها: مقال عنوانه (هل نحن مستبدون) نشر على (مدونات الجزيرة) بتاريخ (٢٠١٧/٣/١١)، وعلى موقع بصائر بتاريخ (٢٠١٥/٤/١٠)، ومقال عنوانه (استبداد المنشقين) نشر على موقع مدونات الجزيرة، بتاريخ (٢٠١٧/٣/١٨)، وعلى موقع (بصائر) بتاريخ (٢٠١٧/٤/٢٥)، ومقالان بعنوان (كيف نعالج استبدادنا الداخلي) و(كيف نقاوم الاستبداد) نشرا على موقع (بصائر) بتاريخ ٢٠١٧/٥/٢، و٢٠١٧/٥/٩.

كـما نعلـم فـإن اللـه – جـلَّ في عـلاه – قـد خلـق النـاس للابتـلاء، وجعـل الدنيـا دار امتحـان، والمسـتقرئ لأحـوال النـاس يجـد أن امتحاناتهـم وابتلاءاتهـم مختلفـة، وقـد خلقهـم اللـه – تعـالى – ذوي طبائـع مختلفـة، وجعـل شـهواتهم ورغباتهـم متفاوتـة، وجعـل مجـال (الامتحـان الرئيـس) لـكل واحـد منهـم مـا كان داعـي الشـهوة والرغبـة فيـه أكـثر مـن غـيره، فمنهـم مـن ركـز اللـه تعـالى في نفسـه حـبَّ المـال وجمعـه، فـتراه ضعيفًـا أمـام الشـهوات المتعلقـة بالمـال، بينـما تـراه قويًّـا أمـام شـهوات أخـرى كشـهوة النسـاء، وهـؤلاء مجـال امتحانهم الأسـاسي هـو (المـال) كيـف يكتسـبونه، وكيـف ينفقونـه، وهـل يـؤدون حـقّ اللـه فيـه.

وتـرى آخريـن ليـس للـمال عندهـم كثـير قيمـة، بـل تراهـم سـمحاء النفـس في إنفاقـه، وكأنمـا الإنفـاق عندهـم شـهوة يسـتمتعون بهـا، وفي نفـس الوقـت تراهـم ضعفـاء أمـام شـهوة النسـاء، سـهلٌ وقوعهـم في المعـاصي المتعلقـة بهـا، فهـولاء امتحانهـم الأسـاسي ليـس في دفعهـم الـزكاة ولا أدائهـم الحقـوق الماليـة، وإنمـا في مقاومـة شـهواتهم أمـام النسـاء فـلا يقعـون في هـذا الأمـر في معصيـة ربهـم، وهكـذا بقيـة الأمـور.

و(الرغبـة في الاسـتبداد) كبقيـة الطبائـع البشريـة يمكـن تهذيبهـا ومحاربـة الجانـب السـلبي فيهـا، وتربيـة النفـس عـلى الوقـوف عنـد حـدود اللـه فيهـا، ولـذا فمـن الـلازم أن نبحـث هـذه المسـألة لنعالـج الخلـل إن وجـد في نفوسـنا.

وفي البدايـة يجـب أن نشـير إلى أن كثيريـن يظنـون أن (الاسـتبداد) سـلوك مقتـصر عـلى ذوي السـلطة العليـا لأنـه الصـورة الأجـلى التـي يلحظونهـا مـن صـور الاسـتبداد، وحتـى أن المفكـر (عبـد الرحمـن الكواكبـي) في كتابـه (طبائـع الاسـتبداد)، وهـو كتـاب جميـل، ركّـز عـلى اسـتبداد الحكومـات، فقـد قـال: «ويُـراد بالاسـتبداد عنـد إطلاقـه اسـتبداد الحكومـات خاصّـةً»، وهـو وإن كان قـد أشـار في ثنايـا كلامـه إلى وجـود أنـواع مـن الاسـتبداد كاسـتبداد (علـماء

الديـن) فقـد ذكـر ذلـك في معـرض مسـاعدة اسـتبدادهم لاسـتبداد الحـكام، فلـم يركـز عـلى هـذه الأنـواع مـن الاسـتبداد، واعتـبر اسـتبدادهم اسـتبدادًا مجازيًّـا، أو أنـه اسـتبدادٌ بالإضافـة، فقال:»وأمـا تحكّـم النّفـس عـلى العقـل، وتحكُّـم الأب والأسـتاذ والـزّوج، ورؤسـاء بعـض الأديـان، وبعـض الـشركات، وبعـض الطّبقـات؛ فيوصـف بالاسـتبداد مجـازًا أو مـع الإضافـة«.

- فهل هذا الكلام دقيق؟
- وهل يقتصر الاستبداد على الحكام وأنظمتهم؟
- أم أن الاسـتبداد داءٌ ابتليـت بـه الأمـة كلهـا، وتغلغـل فيهـا حتـى كاد لا ينجـو منـه أحـد؟

هـذه الأسـئلة الهامـة يجـب أن نقـف عندهـا وقفـة متفحصـة، لأنـه لـو كان الاسـتبداد كـما أفـترض داء متغلغـلاً في شرايـين الأمـة كلهـا، فلـن يفلـح عـلاج اسـتبداد الحكومـات والأنظمـة، لأننـا سرعـان مـا سـنعود إلى الوقـوع في فـخ الاسـتبداد مـرة أخـرى عندمـا يتـولى الحكـم مـن اعتـاد الاسـتبداد طريقًـا ومنهجًـا في حياتـه.

ولمناقشـة المسـألة فلنناقـش معنـى الاسـتبداد لـنرى هـل يقتـصر عـلى الطبقـة الحاكمـة أم أنـه ممارسـة منتـشرة في مـا بيننـا.

عـرف الكواكبـي الاسـتبداد في اللغـة بأنـه «**غـرور المـرء برأيـه، والأنفـة عـن قبـول النّصيحـة، أو الاسـتقلال في الـرّأي وفي الحقـوق المشـتركة**".

وعرَّفـه في اصطـلاح السّياسـيين بأنـه «**تَـصَرُّف فـرد أو جمـع في حقـوق قـوم بالمشـيئة وبـلا خـوف تبعـة**".

ووصفـه بأنـه «**صفـة للحكومـة المطلقـة العنـان فعـلًا أو حكـمًا، التـي تتـصرّف في شـؤون الرّعيـة كـما تشـاء بـلا خشـية حسـاب ولا عقـاب محقَّقَـين**".

إن مـرض الاسـتبداد يبـدأ بجرثومـة قـد لا تراهـا العـين المجـردة في البدايـة،

ولكـن هـذه الجرثومـة إن وجـدت في شـخص أو مجتمـع انتظـرت أن تتهيـأ لهـا الظـروف لتنمـو وتتكاثـر وتفتـك بالجسـد كلـه، وأنـا أزعـم أن جرثومـة الاسـتبداد موجـودة في كل واحـد منّـا، وقـد تجـذرت فينـا وفي مجتمعاتنـا.

وهـذا المـرض ككل الأمـراض، سـواءً كانـت عضويـة أم اجتماعيـة بحاجـة إلى عـين فاحصـة لاكتشـافه، وهـو مـا نهـدف إليـه في هـذه المقـالات، وذلـك بتحليـل بعـض المواقـف وبيـان علاقتهـا بالاسـتبداد.

وعندمـا ننظـر إلى واقعنـا ونقارنـه بتعريفـات الاسـتبداد يتبـدّى لنـا بـكل جـلاء أن جرثومـة الاسـتبداد تجـذرت فينـا وفي مجتمعاتنـا، ولأننـي لا أريـد الاسـتطراد في اسـتعراضها في كل مفاصـل المجتمـع، فسـأقتصر عـلى بعـض الأمثلـة، ولنبـدأ بالبيـت الداخـلي لــ (التيـار الإسـلامي) بـكل مكوناتـه وحركاتـه، لـنرى هـل يمـارس فيـه الاسـتبداد أم لا؟

بدايـةً لا بـد مـن الإشـارة إلى أن الحديـث هنـا عـن (الممارسـات) وليـس عـن (النظريـات)، فـلا شـك أن الحركـة الإسـلامية طـورت مـن أدبياتهـا الفكريـة وازدادت نضوجًـا عـما كانـت فيـه، وهـذه إيجابيـة عظيمـة، ولكـن المشـكلة في الممارسـة لا تـزال حـاضرة، فهنـاك بـون شاسـع بـين مـا (نقـول) ومـا (نفعـل).

ولنأخـذ (الشـورى) مثـالًا: نحـن نؤمـن بـأن الشـورى واجبـة، وصـار المتبنـى عند الحركـة الإسـلامية أن الشـورى (ملزمـة وليسـت معلمـة)، وهـذا يقتـضي منـا عندمـا نمـر بمسـألة مـما يجـب فيـه الشـورى أن نمارسـها، ثـم نلتـزم بنتائجهـا، فهـل نفعـل ذلـك؟

مـن تجربتـي الشـخصية في سـجون الاحتـلال، والتـي قضيـت فيهـا نحـو (١٠) سـنوات، والتـي تصلـح لتكـون نموذجًـا عـلى كيفيـة ممارسـتنا للأمـور، فإنـه يمكن ملاحظـة أن ممارسـة الشـورى عندنـا كانـت تخضـع في كثـير مـن الأحيـان لمـزاج المسـؤول وهـواه، فعندمـا كانـت تُعـرض قضيـة مـا فـإن كثـيرًا مـن المسـؤولين كانـوا ينظـرون إلى مـا يمكـن أن ينتـج مـن عـرض المسـألة عـلى مجلـس الشـورى

المنتخب في السجن أو القسم الذي هم فيه، ولا شك أن المرء الخبير يستطيع توقع مواقف الناس الذين حوله وآراءهم بحكم الاحتكاك الدائم والمعرفة الشخصية العميقة، فإن ترجح لديه أن عرضه المسألة على أهل الشورى سينتج عنه موافقتهم على رأيه قام بعرضها، وسجل موقفًا مفاده أنه أمير يمارس الشورى، وإن ترجح لديه العكس ضرب بالشورى عرض الحائط، وهو يدرك أن تنفيذه لقراره بعد أن يصبح واقعًا لن يتعرض للإلغاء لأننا تعودنا مراعاة بعضنا البعض، والواحد فينا لا يريد أن (يُزعِل) أخاه منه، وفي بعض الأحيان يقوم المسؤول الواعي المدرك لما يفعل باستشارة من يرى أنهم سيؤيدونه في قراره، ويتعمد تجاهل المعارضين، وعندما نصل إلى المحاسبة يدافع عن نفسه بأنه لم يتفرد في القرار بل استشار فلانًا وعلاّنًا، وقد يكون هؤلاء هم الأغلبية، ويكون الذي استثني من أخذ مشورته واحد فقط، ولكنه يدرك في قرارة نفسه أن هؤلاء (الأغلبية) لا يجهدون أنفسهم في التفكير بالقرار وحيثياته وآثاره، ويتعمد أن يعرض عليهم ما يدفعهم إلى رؤية ما يريد هو أن يراه، وأن الأمر لو عرض على المجموع وطرح (الواحد) الغائب رأيه فلربما جذبهم إلى جانبه المعارض ببيان سلبيات القرار.

أليست هذه الممارسة من الاستبداد المذموم؟

إن هذه الممارسة منتشرة في أوساطنا، ولا يعني كلامي أن الكل يمارسها، ولكنها موجودة عندنا بكثرة، فقولوا لي - بربكم - ماذا سيكون منهج من يمارس مثل هذه الممارسة في موقع محدود كقسمٍ في سجنٍ يضم مائة مجاهد فقط، إذا تولى مسؤولية أعلى؟ وهل سيصير شوريًّا لا يمارس الاستبداد وقد توسعت سلطاته وصلاحياته؟

الجواب واضح، فداء الاستبداد عندما يكون مستشريًا في شخص فلن يزداد مع الزمن وارتفاع المنصب وتوسع المسؤولية إلا تعاظمًا، وعندها لو وصلنا إلى الحكم فستعود الأمة من حيث بدأ انحرافها، ويعود الاستبداد ليضرب أطنابه في أرجائها.

من صور الاستبداد: استبداد المنشقّين

كما سبق وذكرنا فإن التركيز مُنْصَبٌّ على (الاستبداد السياسي)، ولكن هذا هو العَرَض المتطور لمرض الاستبداد، ولنعد إلى تعريف الاستبداد في اللغة، كما ذكره الكواكبي، حين قال بأنه «غرور المرء برأيه، والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرّأي وفي الحقوق المشتركة“، ولنقف لحظة أمام سلوك منتشر في أوساط النخبة الناشطة سياسيًّا واجتماعيًّا في مجتمعاتنا وهي النخبة التي يخرج منها القادة السياسيون في العادة لنرى هل ينطبق تعريف الاستبداد على ممارسي هذا السلوك.

كثيرًا ما نسمع بالانشقاقات التي تحدث في أوساط الحركات والتنظيمات، سواء فيها الإسلامية وغيرها، بعض هذه الانشقاقات تسير باتجاه أن يشكل الشخص المنشقُّ إطارًا جديدًا منافسًا للإطار الذي كان ينتمي إليه، وبعضها يسير باتجاه أن ينعزل المنشقُّ ويترك العمل الذي كان يعتبره محور حياته.

فهل لذلك علاقة بجرثومة الاستبداد؟

من البديهيات التي لا يختلف العقلاء فيها أن غالب الأمور السياسية والمتعلقة بالعمل العام تقع تحت إطار الاجتهادات التي تحتمل الصواب والخطأ، وليس فيها يقين مطلق، ولذلك لو نوقشت مسألةٌ كمسألةِ أن تخوض حركةٌ ما انتخابات معينة أو لا تخوضها، أو أن ترشح شخصًا ما لمنصب ما، وغير ذلك مما يشبهه من أمور، فمثل هذه الأمور يجب أن يكون التعامل معها وفق منهج (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب)، وهناك منهج متبع يضبط حالات اختلاف الاجتهاد وبالذات عندما لا يكون الأمر مما يمكن لكل فرد في التنظيم أو الحزب أو الجماعة أو المؤسسة أن يتبنى فيه موقفًا خاصًّا لأن ذلك يؤثر على الموقف العام، ففي مثل هذه الحالة يتم اللجوء إلى الشورى والأصل أن يؤخذ

فيها برأي أغلبية أهل الرأي.

والذي يحدث كثيرًا في أوساطنا أن تصرفات بعض من يكونون في صف (الأقلية) يكون ردُّ فعلهم إما الخروج من (التجمع) الذي هم فيه إما بتشكيل تجمع مواز أو بالانعزال، وعندما نطبق هذا السلوك على تعريف الاستبداد نجد ما يلي:

الاستبداد فيه «غرور المرء برأيه»، وخروج المرء من جماعته لأن رأي الأكثرية لم يوافق رأيه يشير بقوة إلى أنه مصاب بهذا الغرور، ويظن أنه وحده من يحتكر الصواب في الأمور الاجتهادية.

وفي الاستبداد «الأَنَفَةُ عن قَبول النّصيحة»، وسلوك هؤلاء الخارجين من جماعاتهم واضح في أنهم لا يقبلون تدخلات العقلاء والناصحين، ويأنفون من الاستماع إليها.

لقد كان منهج الرسول صلوات ربي وسلامه عليه النزول عند رأي الأكثرية في الأمور التي لا مدخل للوحي فيها، كما حدث في غزوة أحد، عندما كان الرأي الذي تبناه المصطفى ﷺ، وهو لزوم المدينة المنورة والتحصن فيها رأيَ الأقلية، فالتزم برأي الأكثرية من الصحابة رضي الله عنهم، والذين كانوا يرون الخروج لمجابهة جيش المشركين قبل دخولهم المدينة، وكان ما هو معروف من هزيمة المسلمين وتكبدهم خسائر جسيمة في المعركة، ومع ذلك نزل قوله تعالى في سورة آل عمران في أثناء بيان أخطاء المسلمين في المعركة ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ ليقول لنا أن الالتزام بالشورى والتنازل عن الرأي مطلوب ولو أدى في بعض الحالات إلى ما يظن البعض أن رأي الأكثرية فيه كان مجانبًا للصواب.

في رأيي أن الذين لا يلتزمون بالشورى ونتائجها مصابون بداء الاستبداد، ولكن افتقارهم للقوة اللازمة لإجبار الآخرين على فعل ما يرونه ويريدونه

يدفعهـم لسـلوك طريـق الانشـقاق أو الانعـزال، ولـو كانـوا يملكـون القـوة لفرض آرائهـم لمارسـوها كـما يمارسـها حكامنـا الذيـن نصمهـم بالاسـتبداد ليـل نهـار.

كيف نعالج رغبتنا في الاستبداد؟

الاسـتبداد منتـشر في أوسـاطنا، وداخـل كل منـا يوجـد دكتاتـور أو فرعـون مختبـئ ينتظـر فرصـة نيـل القـوة للخـروج وممارسـة اسـتبداده عـلى الآخريـن، فـإذا كان الوضـع كذلـك فـما هـو العـلاج لهـذا الـداء الخطـير المسـتشري في أوسـاطنا؟

يجـب أن نـدرك أولًا أن مواقفنـا المعلنـة والمتبنـاة هـي معارضـة الاسـتبداد، ولكننـا نعـاني مـن مشـكلة خطـيرة وهـي أننـا نـرى القشـة في عيـون الآخريـن، لكننـا لا نـرى العـود الـذي في عيوننـا، فترانـا نهاجـم الاسـتبداد والمسـتبدين مـن الحـكام الظالمـين ليـل نهـار، ونمـارس نفـس سـلوكهم في مـا هـو تحـت سـلطتنا، وعـلى هـذا فـأول خطـوة في العـلاج هـي إدراكنـا حقيقـة الاسـتبداد وأنـه غـير مقتـصر عـلى سـلوك الحـكام، ومعرفتنـا بصـور ممارسـته في أوسـاطنا.

إن أول خطوة في علاج المرض، أي مرض، هي اقتناع المريض بأنه مريض.

ولكـن هـل تكفـي المعرفـة مجـردة؟ إننـا نـرى كثـيرًا مـن المـرضى يعرفـون أنهـم مـرضى، وأن تنـاول أطعمـة معينـة يـضر بهـم، ومـع ذلـك فـلا يسـتطيعون مقاومـة شـهواتهم، ونـرى الكثيريـن يعرفـون أحـكام الحـلال والحـرام ومـع ذلـك يخالفونهـا، **فالمعرفـة وحدهـا لا تكفـي**، بـل إنهـا قـد تكـون أكـثر ضررًا مـن الجهـل، إذ يسـتغلها الخبثـاء في إخفـاء حقيقتهـم، فالمسـتبد المـدرك لحقيقـة اسـتبداده ولآليـات الاسـتبداد يمكنـه إن كان ذكيًّـا أن يمـارس اسـتبداده خلـف سـتار مـن التدليـس عـلى النـاس يظهـره مـن محـاربي الاسـتبداد، ولعلـه لأجـل ذلـك حذّرنـا رسـولنا الكريـم ﷺ كلَّ منافـق عليـم اللسـان.

ولأجـل أن المعرفـة المجـردة لا تكفـي فـلا بـد مـن وازع داخـلي يدفـع المـرء

لسلوك الطريق المضاد للاستبداد، وهذا الوازع لا يتشكل إلا عبر تربية مستمرة تركز على المفاهيم الإيجابية في حياتنا:

فالذي تربى على ابتغاء ما عند الله، وأحب أن يكون من أهل الطاعة سيتخلى عن ممارسته للاستبداد بحق الآخرين إن كان مؤمنًا حقًّا أن ذلك طريق لنيل الرضوان.

والذي تربى على التواضع وعلى محاربة إعجابه بنفسه وغروره برأيه لن تكون ممارسته للاستبداد على من حوله كالمغرور المتكبر.

والذي ترسخت في قلبه محبة إخوانه ومن حوله سيسعى لجعلهم يشاركونه الرأي وليرتقي بهم لتولي المسؤولية معه، ولن يلجأ لقمعهم ماديًّا أو فكريًّا.

وهذه فقط نماذج لتأثير بعض المفاهيم التربوية على ممارسة الاستبداد.

وعلى العموم فلا بد من التأكيد على أن نقطة الانطلاق تكون بوجود العلم بحقيقة الاستبداد وصوره، ثم أن يَتَّحِدَ العلم والمعرفة مع التربية، لأننا نجد أن كثيرين من الذين يبتغون ما عند الله من إخواننا، وهم متواضعون مُحبّون لإخوانهم، ولكنهم يمارسون عليهم أبشع صور القهر والاستبداد، من منطلق محبتهم إياهم وحرصهم عليهم، وما ذلك إلا لجهلهم بـ (طبائع الاستبداد)، وعدم إدراكهم أنهم يمارسونه.

ولا يظنن ظانٌّ أن هذه التربية على التخلي عن الاستبداد أمر سهل، بل هي من أصعب الأمور، فالنفوس مجبولة على حب السيطرة، وترويضها على خلاف ذلك يحتاج جهدًا وزمنًا، وفي كثير من الأحيان يكون الأوان قد فات على تربية الكثيرين على ذلك، فالسلوك السلبي صار سائدًا عندهم، وأصبح التخلي عنه مطلبًا بعيد المنال، وهذه هي الحال التي نعيشها، وهنا يجب البدء من نقطة الصفر، من الجيل الجديد صغير السن،

لنزرع فيه كره الاستبداد، ونكشف له جذوره، وندربه على مقاومة شهوة الاستبداد في نفسه، ثم نأمل أن يثمر جهدنا، ويتضاءل وجود الاستبداد في نفوسنا.

ومع ذلك فكل ذلك لا يكفي، إذ **هذه بعض معالم العلاج اللازمة لمن يمارسون الاستبداد على غيرهم، أما من يمارَس عليهم الاستبداد فإنَّ لهم دورًا في علاج هذا الداء يجب أن يقوموا به، لأنهم يتحملون جزءًا غير يسير من مسؤولية انتشاره بينهم، وإن لم يفعلوا ذلك فلن تفلح كل العلاجات التي أشرنا إليها.**

التمرد على الاستبداد (كيف نقاوم الاستبداد)؟

كما سبق وبيّنّا فـ (الميل للاستبداد) طبع متأصل في نفوسنا، ومع ذلك فهو ككل شهوات النفس قابل للتهذيب عبر عملية تربوية طويلة، يجب أن تبدأ من الصغر، لزرع مفاهيم إيجابية وتدريب النشء على سلوك إيجابي، غير أن هذا كله لا يكفي إن لم يكن هناك رادع خارجي يضع العوائق أمام المستبدين لئلا يمارسوا استبدادهم علينا.

وهذا الرادع الخارجي مهمة المجتمع ككل، فكما أن الواجب أن تتم تربية النشء على أن لا يمارس هو الاستبداد بحق غيره، فيجب تربيتهم على أن لا يقبلوا بممارسة الاستبداد عليهم، وأن لا يسكتوا على ذلك.

إن التربية على قيم الحرية وعزة النفس ورفض الظلم ونصرة المظلوم والضعيف وحب العدل تساهم في وقوف المجتمع في وجه المستبدين، صغارًا وكبارًا.

هذه التربية هي التي كان عمر بن الخطاب حريصًا عليها، وكان يختبر وجودها في المجتمع حوله، لأنه يدرك أن غيابها سيقود لسيطرة الظلم والاستبداد، ولذلك فقد أراد أن يختبر النخبة في مجتمعه، وهم المهاجرون

والأنصار، فسألهم: **أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمر، ما كنتم فاعلين؟** فهو يريد الاطمئنان على سلامة المجتمع، والتي لا تكون إلا بعدم رضاه بانحراف الأقوياء، ولكنهم سكتوا، فعاد وكرر عليهم السؤال، حتى جاءه الجواب: **لو فعلت، قومناك تقويم القدح**. حينها أدرك أن المجتمع لا زال بخير، فقال لهم: **أنتم إذًا، أنتم**. أي أنهم كما كان يحسن الظن فيهم.

وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال (**إِذَا رَأَيْتُ أُمَّتِي تَهَابُ فَلَا تَقُولُ لِلظَّالِمِ يَا ظَالِمُ فَقَدْ تُودِّعَ مِنْهُمْ**)، وتطبيق هذا الحديث ليس مقتصرًا على الظلم الذي يمارسه الحكام، بل هو حديث عام في كل ظالم، صغيرًا كان أم كبيرًا، فيجب أن يتم إيقافه عند حده، وإلا فالأمة كلها تسير في طريق الهلاك.

ولعل أحد أهم أسباب تجذر مرض الاستبداد في مجتمعاتنا واستمراء الناس عدم مقاومته ما وقع فيه كثير من أبناء الأمة من الإيمان بما يسمى (المستبد العادل)، وهي الفكرة هي التي شرعنت الاستبداد لدى الكثيرين، وجعلته يتجذر في أوساط الأمة، وأدّت إلى قيام السلاطين بمصادرة آراء الأمة وكبت أصوات الأحرار فيها، ولو كان لـ (المستبد العادل) وجود في الحقيقة لكان أولى الناس أن يتصف بذلك سيدنا رسول الله ﷺ، والناظر في سيرته العطرة ﷺ يرى أنه كان أعدل الناس ومع ذلك أبعدهم عن الاستبداد.

وهنا أسجل أني اعترضت مرة على عبارة كتبها أحد الأصدقاء على صفحته على الفيسبوك قال فيها يومها: « لئن يحكمني علماني عادل خير من أن يحكمني (إسلامي) مستبد، فبالعدالة تتحقق غايات الدين ومقاصده، والاستبداد يُذهب بجمال الدين وقدسيته»، فعلقت له أني معه في أن الناس عمومًا يرغبون أن يحكمهم سلطان عادل بغض النظر عن منهجه في حياته، إذ ما يتأثرون به مباشرة هو سلوكه في العدل والظلم، غير أني أتحفظ على وصف (إسلامي مستبد)، إذ الاستبداد والإسلام متناقضان، والإسلامي الحقُّ لا يكون مستبدًّا، فالذي يزعم أنه (إسلامي) بمعنى الانتماه

للإسلام وفكره، ويخالفهما في ممارسته الاستبداد ونبذه الشورى ورضى الناس بحكمه، وأمثال هذا ضرر استبدادهم على الدين هو الذي أدى بالأمة إلى ما هي من الانحراف عن منهج الله تعالى، إذ تشكلت عندهم صورة سلبية عن (الإسلاميين)، والصحيح أن الإسلامي الحق لا يستبدّ.

وهنا لا بد من التأكيد على أن للمجتمع دورًا أساسيًّا في تجذّر الاستبداد فيه، إذ سكوت الناس وخضوعهم للظلم والاستبداد هو الذي يغري المستبدين بالتمادي في استبدادهم، وقديمًا قالوا في المثل العامّي: قيل لفرعون: من فرعنك؟ فقال: لم أجد من يردّني.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المستبد مغرور برأيه، يأنف من الخضوع لآراء الآخرين، وهذا الغرور يقوده للاستبداد، وعندما ننظر في حال المستسلمين للاستبداد نجد أنهم يمتازون بهضمهم لذواتهم، وضعف ثقتهم بأنفسهم، وتعودهم الخضوع والخنوع، ولذلك لا يقاومون ممارسة الاستبداد عليهم، بل يستسلمون له.

ويجب أن ندرك أن هناك فاصلاً دقيقًا بين الغرور والثقة بالنفس، ودقة الفصل بينهما تجعل السطحيين لا يميزون بينهما، فالغرور هو انخداع المرء بنفسه وإعجابه بها ورضاه عنها، وهو خلق مذموم، أما الثقة بالنفس فمطلوبة لازمة للارتقاء.

ولهذا إذا أردنا إخراج جيل لا يخضع للاستبداد حتى لو جاء هذا الاستبداد من أحب الناس إليه، بما فيهم شيوخه وقادته، بل حتى أمه وأبوه، فلا بد من أن نعزز فيهم خلق (الثقة بالنفس)، مع الحذر من أن يتجاوزوا ذلك إلى التخلق بـ (الغرور) المذموم.

ومن العوامل التي تساعد على خضوع الناس للاستبداد مغالاتهم في النظرة إلى من هم أعلى منهم، فالذي تربى على أن والده أو شيخه أو قائده

لا يقـول إلا الصـواب، فسـيضطر للخضـوع لـه بـدون تفكـير، وعندمـا يجـد في نفسـه مخالفـة لما يحاولـون فرضـه عليـه فإنـه سيسـارع إلى اتهـام نفسـه، وطـرد هـذه الخواطـر والتـي قـد يكـون الخـير لـه ولهـم فيهـا مـن فكـره.

إننـا يجـب أن نعـزز في مجتمعاتنـا فكـرة أن كل واحـد يؤخـذ مـن قولـه ويـرد إلا النبـي ﷺ، ويجـب أن نُعلّـم نَشْـأَنا أن الصحابـة رضوان اللـه تعـالى عليهـم عندمـا كانـوا يـرون مـن رسـول اللـه ﷺ موقفًـا يعلمـون أنـه ليـس مـن الوحـي ويظنـون غـيره أفضـل منـه، فقـد كانـوا يعرضـون عليـه رأيهـم، وكان صلـوات ربي وسـلامه عليـه يسـتجيب لهـم إن كان موقفهـم أقـرب للصـواب، ومـا قصـة اقـتراح الحبـاب بـن المنـذر تغيـير موقـع الجيـش في معركـة بـدر عنّـا ببعيـد.

العلـم دواء مضـادٌّ للاسـتبداد، لأن العـالم الحـق يتصـف بثقتـه بنفسـه، لأنـه ينطلـق مـن منطلقـات واضحـة في تبنيـه لرأيـه، ولا يصـل إلى مرحلـة الغـرور، لعلمـه بأنـه لا يحتكـر الصـواب وحـده، وهـو متواضع لمعرفتـه بحقيقـة تقصيره، ولكنـه ليـس خانعًـا لإدراكـه قيمـة العلـم الـذي يحملـه، ولذلـك فكلـما ارتقـى مجتمعنـا في العلـم وجـب أن يقـلّ الاسـتبداد فيـه ويتناقـص.

وقـد يتسـاءل البعـض قائـلًا ولكننـا نـرى أن عـددًا مـن المحسـوبين عـلى أهـل العلـم يعملـون مطيّـة للمسـتبدين؟

إن هـؤلاء وإن حصلـوا مـن العلـم شـيئًا فـإن ذلـك ترافـق مـع وجـود نفسـيات دنيئـة ذليلـة بـين جنوبهـم، وهـم لم يحصلـوا منـه مـا يعزز مـن ثقتهم بأنفسـهم وإيمانهـم بهـا، فالعلـم يضـادّ الاسـتبداد، ولكنـه يجـب أن يوجـد في نفـس تربتهـا طيبـة، وخلقهـا حسـن ليثمـر، فهـو كأي دواء الأصـل فيـه أن ينفـع - بـإذن اللـه - ولكنـه قـد لا ينفـع بعـض المـرضى لأن أجسـادهم لا تتقبلـه.

وعـلى العمـوم فهـذه الأخـلاق الإيجابيـة: الثقـة بالنفـس، والجـرأة، والنفـور مـن

الخنـوع ونحوهـا، إذا ترافقـت مـع العلـم الهـادي فإنهـا سـتخرج لنـا جيـلاً لا يـرضى لأحـد أن يمـارس عليـه الاسـتبداد، وإذا اجتمـع معهـا التقـوى والمحبـة والتواضـع فلـن تمـارس هـي الاسـتبداد.

ولا يجـوز الاكتفـاء بالتربيـة فقـط، سـواء كانـت تتجـه لمنـع الشـخص مـن ممارسـة الاسـتبداد أم لتشـجيع الآخريـن عـلى مقاومـة الاسـتبداد، فـلا بـد مـع ذلـك كلـه مـن أنظمـة وقوانـين تضمـن عـدم السـماح لمـن عندهـم الاسـتعداد للاسـتبداد بممارسـة ذلـك، ومـن ضمـن الأنظمـة الضابطـة للعلاقـة بـين أطـراف المجتمـع يجـب أن يكـون هنـاك جهـاز للرقابـة لمنـع الاسـتبداد، وحصـاره منـذ بـدوّ بـوادره، والـذي نحتاجـه في أنظمتنـا ومجتمعاتنـا هـو نظـام دقيق يمنـع المسـتبد مـن ممارسـة اسـتبداده، وهيكلـة القوانـين بحيث تمنـع التفـرد والتحكم مـن فئـة أيـا كانـت، إذ لا جـدوى مـن الاكتفـاء بالاعتـماد عـلى أخـلاق النـاس أو إعـادة توعيتهـم بهـدف منـع الاسـتبداد.

ولعـل في تحديـد المسـؤوليات في المؤسسـات كافـة، وتوزيـع المهـام، وعـدم السـماح لشـخص أيًّا كانـت مهاراتـه أن يبقـى في موقعـه الإداري فـترة متطاولـة مـا يسـاعد في القضـاء عـلى ممارسـات الاسـتبداد وهـي في مهدهـا، وقـد أدرك الغـرب بالتجربـة أن منـع الحاكـم مـن البقـاء في منصبـه للأبـد يسـاهم في التخفيـف مـن مخاطـر الاسـتبداد، ولذلـك عملـوا عـلى سـن القوانـين التـي تمنـع مـن ترشـح الشـخص نفسـه لموقـع الرئاسـة لأكـثر مـن فترتـين في الغالـب، والحكمـة ضالـة المؤمـن أنّى وجدهـا أخـذ بهـا.

وهـذه القوانـين التـي تسـاعد عـلى عـدم تجـذّر الاسـتبداد ليسـت مطلوبـة فقط فيـما يتعلـق باسـتبداد الحـكام، فنحـن نتحـدث عـن ممارسـتنا نحـن (عامّـة النـاس) للاسـتبداد عـلى بعضنـا البعـض، وهـذا يتطلـب أن يتـم سـنُّ قوانـين واعتـماد أعـراف مجتمعيـة لمحاربـة الاسـتبداد والقضـاء عليـه في نفـوس مـن تتشـوَّف أنفسـهم لـه في المؤسسـات الأهليـة، والأحـزاب السياسـية، والحـركات

الإسـلامية.

وعليـه فحتـى نقـاوم الاسـتبداد ونحـاصره منـذ نشـأته فإننـا يمكـن أن نلخـص الخطـوات المطلوبـة فيـما يـلي:

محاربة الرغبة للاستبداد، والموجودة في داخل كل واحد منا، وذلك بـ :

- إدراكنا حقيقة الاستبداد ومعرفتنا بصور ممارسته في أوساطنا.
- تنمية وازع داخلي يدفع المرء لسلوك الطريق المضاد للاستبداد.

محاربة الاستبداد الذي يطل برأسه في المجتمع، وذلك بـ :

- تربيـة النـشء عـلى أن لا يقبلـوا بممارسـة الاسـتبداد عليهـم، وأن لا يسـكتوا عليـه.
- سـنُّ قوانـين واعتـماد أعـراف مجتمعيـة لمحاربـة الاسـتبداد والقضـاء عليـه في نفـوس مـن تتشـوَّف أنفسـهم لـه.

النقد الواعي

أحد أهم أسباب تكرار الأخطاء التي تمر بها الحركات الإسلامية غياب النقد الجادّ لتجاربها التنظيمية، مما يوحي لمن يستلمون الراية بعد سابقيهم أن التجربة كانت ناجحة، وهم يصلون لهذه النتيجة لأنهم لا يرون نقدًا للتجارب السابقة، ولا إشارة للعثرات والأخطاء فيها، فيكررون السير على نفس المنهج، ومعلوم أن تكرار التجربة ذاتها وفي الظروف نفسها، سيؤدي إلى النتيجة نفسها.

إن الكتابات التاريخية لدى الإسلاميين - في جُلّها - لا تخرج عن إطار (التمجيد الذاتي) و(سرد البطولات)، ومع أن تاريخ الحركات الإسلامية حافل بالبطولات التي لا تُنكر إلا أن هناك الكثير أيضًا من الإخفاقات والسلبيات التي مرت بها تلك التجارب، بعضها لأسباب ذاتية، وبعضها لأسباب خارجية، وهذه الإخفاقات كان لها دور عظيم في فشل تجارب مهمة كاد الإسلاميون يحققون فيها إنجازات ثم ارتكست الأوضاع بسبب الخلل الذي شاب العمل، وهو ما يوجب أن يتم الوقوف عند كل تجربة لدراستها وتقويمها وبيان إيجابياتها وسلبياتها، وتوثيق ذلك كله ليستفيد منه من يستلمون الراية من الأجيال التابعة.

غياب عملية (النقد الواعي) لدى الإسلاميين يؤدي إلى تراكم السلبيات في أوساطهم، فترى الواحد منهم - فردًا أو قائدًا - يقع في الخطأ، ثم لا يجد من يوجهه لتدارك الخطأ وينبهه إليه، فيتمادى في أخطائه ظانًّا أنه يفعل الصواب.

والنقد الواعي الذي أقصده هو النقد الذي يشعر (المنتَقَدُ) من خلاله أن (الناقد) له يحبه ويحب الخير له، وأنه لا ينقد ليهدم، بل ينقد ليصحح المسار حرصًا على أخيه (المنتَقَد)، وعندما نتكلم عن (النقد الواعي) فإن

الهدف أن يكون النقد هادفًا للبناء لا للهدم، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بأن يتصف (الناقد) بالوعي الذي يساعده على السعي لتحقيق هذف البناء وتجاوز الأخطاء.

إن بعض أنواع (النقد) تؤدي للهدم، بقصد أو بدونه، وهو ذلك النقد الذي يستفز (المنتَقَد)، فيجعله يتمسك بالخطأ الذي هو عليه، ويؤدي إلى شق الصف، وتكدير النفوس، وتغيير القلوب.

وحتى نمارس (النقد الواعي) نحن بحاجة إلى أن تسود الثقة ومعها الحب في علاقاتنا، فالنقد المقبول بسلاسة هو نقد المحب لا نقد المتشفي، وللنقد طعم مختلف عندما يكون من ثقة محبوب، أما النقد ممن تظنّ أنه يتربص أخطاءك ويسعى لإثبات فشلك فسيكون بينك وبين قبوله حواجز كثيرة، لا يمكن أن يتجاوزها إلا متجرّد وصل في التجرّد مرتبة عالية.

وليتنا إذ لا نقوم بواجبنا في (النقد الواعي)، نقتصر على تقصيرنا في ذلك، بل الجريمة أننا نزيد الطين بِلَّة بـ (الثناء الكاذب)، مجاملة لإخواننا؛ فعلى سبيل المثال: ترى خطيب الجمعة وقد أساء في خطبته، فلم يكن لها مضمون ولا مظهر، ثم ترى إخوانه يتسارعون لمصافحته وهم يقولون له: أحسنت وأجدت، ثم يرسلون سهام النقد من خلف ظهره، فقولوا لي - بالله عليكم - كيف لا يكرر أخطاءه، وكيف يدرك مكامن الضعف عنده، وأنتم تُثنون عليه.

وهنا لا بدَّ من التنبيه إلى أن عملية النقد ليست مسألة سهلة، ولا يستطيع القيام بها كل أحد، إذ هناك عناصر هامة ينبغي أن تتوفر فيها حتى يكون النقد هادفًا ويؤدي لتحقيق نتائجه المرجوة.

ومن العناصر الهامة لممارسة (النقد الواعي البنّاء) أن يتم استحضار الصورة المتكاملة للعملية محل البحث والنقد، وللشخص المنتقَد، وهذا ما علَّمَناه

القرآن الكريم، ففي سياق نقده لأخطاء المسلمين في معركة أحد في سورة (آل عمران)، ذكر الله تعالى فيها الإيجابيات والسلبيات، وذلك في مثل قوله تعالى (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) [آل عمران: ١٥٢]، فقد ذكر الفريقين الإيجابي والسلبي.

وقد كان من أسباب غياب (النقد الواعي) في تاريخنا أن كثيرًا من ممارسي عملية النقد كانوا يمارسون النقد الهدَّام عبر التركيز على السلبيات دون الإشارة للإيجابيات، فمثلًا: في ظل انتقادهم - المحقّ - لقيام معاوية - رحمه الله - بتحويل نظام الحكم من الخلافة إلى الملك، تجاهلوا أنه كانت له إيجابيات لا ينبغي إغفالها، مثل صحبته للرسول ﷺ، وحلمه، وحسن سياسته، ولو أشار منتقدو عملية التوريث للصورة كاملة لما أدى نقدهم إلى استفزاز معارضيهم ودفعهم لعدم التفكير أصلًا في صوابية النقد الموجه لهذا الخطأ.

نعم؛ لقد أدّى تطرف بعض الناقدين وإهمالهم رؤية (الصورة المتكاملة) بإيجابياتها وسلبياتها، وممارستهم للنقد الهدام لامتناع كثيرين عن ممارسة (النقد الواعي) فترسخت عندنا الأخطاء، بل ووجدت من يبحث عما يسوغها في نصوص الشريعة، نعم، لقد أخطأ معاوية - غفر الله له - في تحويله نظام الحكم من الخلافة إلى الملك، وعلينا أن ننتقد هذا الخطأ، ولكن بدون أن ننسى أنّ لمعاوية إيجابيات.

وحتى نمارس (النقد الواعي) بشكله الصحيح يجب أن ندرك أن الصالح والتقي والعالم والمجاهد، كلهم يمكن أن تصدر عنهم أخطاء، وهذه الأخطاء قد تكون مما يعفو الله تعالى عنه لما لهم من سوابق وحسنات، فلا نذمُّهم - كأشخاص - لأجلها، ومع ذلك فلا نترك أعمال البشر، أيًّا كانوا بدون التمييز بين الصواب والخطأ فيها، فهم ليسوا معصومين، وبالتالي فانتقاد (الأفعال الخاطئة) التي صدرت عنهم لا يُنقص من قيمتهم، ولا

يوجد ما يدعو لتبرير كل تصرف من الصالحين، خصوصًا إذا كان الخطأ فيه ظاهرًا، إذ لا قدسية لأيٍّ من البشر سوى الأنبياء.

وهنا لا بدّ من التنبه للتفريق بين (الشخص) و(الفعل)، فبعض الأفعال لها (قداسة) توجب احترامها وتمنع من توجيه النقد إليها، كالجهاد والتضحية والبذل والتواضع والعلم والخشوع والزهد ... الخ، غير أنه (لا يوجد أشخاص لهم قداسة) تعلو بهم عن النقد والنصح غير الأنبياء الذين عصمهم الله سبحانه وتعالى.

قد يكون (الشخص) فاعلًا للفعل ذي القداسة، كأن يكون مجاهدًا أو مضحيًّا أو عالمًا، وهنا لا يجوز أن ننتقد هذه المبادئ والقيم العليا كمبادئ، أو ننتقده لأنه فعلها، ولا يجوز كذلك أن يمنعنا كونه (فاعلًا للفعل ذي القداسة) من نصحه ونقده والعتب عليه إن فعل شيئًا آخر يستحق ذلك، أو حتى إن شاب فعله ذي القداسة ما يستحق النقد، كوضعه في غير موضعه، أو المبالغة فيه، أو الخلل في ترتيبه ضمن الأولويات، ويلاحظ هنا أن النقد متوجه لشيء خارج عن الفعل، وهو يختلف عن ذات الفعل كفعلٍ مجرّد.

واستحضار الصورة الكاملة للقضية موضوع النقد يتطلب جمع المعلومات عنها بشكل سليم ودقيق قبل ممارسة العملية النقدية، إذ أن نقص المعلومات وعدم دقّتها يؤدي إلى إصدار إحكام خاطئة قد تنسف أساس العملية النقدية، وكثيرًا من نلحظ وقوع الناقدين في هذا المزلق عندما يبنون انتقادهم على صورة غير واضحة المعالم.

ومن العناصر الهامة لممارسة (النقد الواعي البنّاء) - أيضًا - أن يبتعد عن اللعن والتكفير والتخوين، إذ المطلوب من عملية النقد تصويب الخطأ

لا جلدُ المخطئ وتَبْكِيتُه[1]، ومشكلتنا الراسخة في النفوس أننا نسارع في إصدار الأحكام بالتكفير والتخوين، وهذا يدعو (المنتَقَد) إلى عدم الاستماع للنقد، دعك من قَبوله إياه، لأن المعركة تصبح مع التكفير والتخوين ذات بعد شخصي، لا يمكن إنكار آثاره.

وللأسف فإن كثيرين من ممارسي النقد الهدام يتميزون بأنهم يعطون أنفسهم الحقّ بالحكم على سرائر الناس وقلوبهم، وكأنهم لم يسمعوا بلوم النبي ﷺ لحبيبه وابن حبيبه (أسامة بن زيد) عندما قال له عن قتله الكافر المحارب الذي نطق بالشهادة والسيف يعلوه (**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟**).

والحكم على ما يظهر من الإنسان هو منهج السلف، فقد قال عمر رضي الله عنه مخاطبًا الناس في خلافته (**إِنَّمَا أَعْرِفُكُمْ بِأَقْوَالِكُمْ، مَنْ أَعْلَنَ لَنَا خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَعْلَنَ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، سَرَائِرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ**).

فالذي يتهم الناس - وإن كانوا مخطئين - بأنهم خونة ومنافقون، أعطى نفسه ما لم يعطه الله تعالى لرسوله ﷺ، ففي الحديث أن الرسول ﷺ قال (**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ**)، والحديث أخرجه مسلم في باب (الحُكم بالظَّاهر....).

وكذلك فإن من العناصر التي تجعل النقد أقرب للقبول الابتعاد عن (الحِدّة) في طرح الرأي ونقد الرأي المخالف، إذ ما دامت الأمور تعتمد على تقدير تحقق المصالح ووجود المفاسد في الفعل، وهي أمور يختلف الناس في تقديرها، فليس في المسألة يقين لازم، وما كان كذلك فالأصل فيه

(١) (التَبْكِيْتُ) هو (التقريع والتعنيف).

استيعاب الرأي المخالف.

والنقد الذي نتكلم عنه له مستويان: فردي، ومؤسسي، فالنقد الموجه للأفراد غير النقد الموجه للمؤسسة، فالنقد الموجه لتصرفات الأفراد يمكن أن يقوم به كل قادر عليه، ملتزم بشروطه وآدابه، أما النقد الموجه للمؤسسة فمع أنه يمكن للأفراد أن يقوموا به غير أن الأجدى أن يكون ذلك عبر نظام مؤسسي، يتم من خلاله مأسسة النقد وتحديد آلياته، ليكون منهجًا جماعيًّا جمعيًّا، بحيث يتم جمع الآراء الناقدة للعمل المؤسسي وتصنيفها ودراستها وتقويمها، وذلك لأجل تحقيق أقصى درجات الاستفادة منها، ومع ذلك فمن الضروري أن ينتبه الناقد لإشعار من سيصلهم نقده أن هدف النقد هو البناء لا الهدم، وأنه ليس موضوعًا لاستهداف شخوصهم، لئلا يقفوا عقبة في وجهه، فالذين يستقبلون النقد ويحللونه هم بشر، وهم في الغالب أصحاب القرار موضع الانتقاد، ويجب على النقاد الواعين أن ينتبهوا إلى أن المؤسسة التي لا تقبل النقد وتحاول عرقلته تعاني من خلل في شفافية القيادات أو انحراف تفكيرها، وهذا يستوجب أساليب أخرى للتعامل معها.

وفي موضوع (النقد) هناك معضلة نعاني منها وتثير خلافات كبيرة بين أصحاب الرؤى المختلفة حولها، وهي موضوع النقد بين العلانية والسرية، فالبعض لا يمانع من سماع النقد، ولكنه يشترط أن يكون في الغرف المغلقة، فلا يسمع به سوى الناقد والمنتقَد، سواء كان المنتقد شخصًا أو مؤسسة. والحقيقة أن هذه المسألة ليست من المسائل التي يمكن النظر إليها بمنهج (الأبيض والأسود)، إذ كل حالة تقتضي منهجًا مناسبًا للتعامل معها، حتى في النقد الموجه للأفراد، والذي يحتج دعاة النقد السري له بأن من آداب النصيحة عدم الجهر بها، ويستشهدون بما روي عن بعض السلف من قولهم: (**مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ**

شَانَهُ)[1]، ونحن مع تسليمنا بأن ذلك هو الأصل في النقد الفردي إلا أن بعض الأحوال توجب الجهر بالنصيحة، منها أن يوهم سكوت الناصحين موافقتهم على خطأ المخطئ وممالأتهم له عليه.

وكذلك في نقد التجارب التنظيمية فإن الاكتفاء بالنقد السري في بعض الأحيان يكون له سلبيات، منها إيهام عامة المناصرين أن التصرف موضع النقد موضع إجماع عند أبناء الحركة، والأصل أننا نريد الإجماع والاتحاد عند التنفيذ، حتى في ما يخالف آراءنا، ولكن عند النقاش، وحتى بعده، فمن حق صاحب أي رأي أن يروج لرأيه ويحشد له، ما لم يرافق ذلك سلبيات أخرى يعرفها ويميزها الوعاة من الدعاة.

وقد يتذرع البعض في أن النقد العلني، وهو يتضمن إظهار السلبيات والإخفاقات سيعرض (الصورة النموذجية) لهذه الحركات ورموزها للاهتزاز، ولعل هذه الحجة هي التي كانت حاضرة بقوة عندما كتب علماؤنا تاريخ القرون الفاضلة فأخفوا كثيرًا من (السلبيات) لئلا تهتز تلك الصورة، فكانت النتيجة أن ضرر إخفاء الإخفاقات فاق بمراحل ضرر بعض الاهتزاز في صورة بعض الأحداث، ذلك الاهتزاز الذي كان سيزول لو أحسَنَّا تربية النشء على أن لا ينظر للبشر - أَيًّا كان مقامهم، عدا الأنبياء صلوات الله عليهم - على أنهم معصومون من الأخطاء.

ولاستدراك هذا الخطر قد يكون من المناسب توثيق التجارب، وتأخير نشرها لوقت يكون مناسبًا لذلك، مع التوازن في طرح النقد، ودوام التذكير بالخير والإيجابيات في تلك التجارب.

ولعل في تجربتنا في فلسطين مع قضية الأسرى نموذجًا على سلبيات إخفاء النقد، إذ توجد لنا تجربة ثرية في السجون، ورغم ما فيها من خير وبطولة

---

(١) روى ذلك البيهقي في (شعب الإيمان، ح ٧٢٣٥) من قول أم الدرداء، وروى البيهقي نفسه نحو هذا القول في (مناقب الشافعي، ٢/ ١٩٨) من قول الشافعي.

إلا أن فيهـا الكثـير مـما يجـب أخـذ العـبرة منـه، ولذلـك تـم تشـكيل صـورة نموذجيـة لـلأسرى في السـجون حافلـة بوصـف البطولـة، وتصويـر مجتمـع الأسرى كمجتمـع نموذجـي ملائـكي، مـع أن حقيقتـه أنـه مجتمـع بـشري فيـه خـير كثـير، ولكـن فيهـا بعـض السـلبيات، وقـد تسـببت الصـورة المثاليـة المتخيلـة لهـذا المجتمـع في إصابـة كثـير مـن الأسرى الجـدد بالصدمـة عندمـا كانـوا يمـرون بالتجربـة ويـرون الواقـع عـلى حقيقتـه.

في نقد الخطاب الإعلامي للإسلاميين

(الخطـاب الإعلامـي) عنـصر أسـاسي في إدارة أي معركـة، سـواء كانـت فكريـة أو سياسـية أو عسـكرية، وعندمـا نتحـدث عـن الخطـاب الإعلامـي الـذي يمارسـه الإسـلاميون فإنـه يشـمل كل وسـائل التواصـل التـي يسـتخدمها (الإسـلاميون) لنـشر مواقفهـم وآرائهـم، ومـن ذلـك: الـدروس والمحـاضرات وخطـب الجمعـة وخطابـات المهرجانـات، إضافـة إلى وسـائل الإعـلام المعروفـة مـن إذاعـات ومرئيـات وصحـف، وكذلـك وسـائل التواصـل الاجتماعـي التـي صـار لهـا دور بـارز كأداة مـن أدوات الخطـاب الإعلامـي.

مـن ملاحظـاتي ومشـاهداتي النابعـة مـن معايشـة واقـع الخطـاب الإسـلامي لعـشرات السـنين في مواقـع مختلفـة فـإن أغلـب خطابنـا الإعلامـي يتمحـور حـول (تمجيـد الـذات ونقـد الآخريـن)، و(الـذات) المقصـودة هنـا هـي الـذات الحركيـة والـذات الفكريـة وليـس الـذات الشـخصية، فنحـن أبعـد مـا يكـون - بفضـل اللـه - عـن تمجيـد الـذات الشـخصية، في غالـب الأحيـان.

وهـذه المشـكلة ظاهـرة في لغـة الخطـاب الرسـمي للحـركات الإسـلامية، كـما أن كثـيراً مـن القيـادات الإسـلامية البـارزة هـذا هـو كل خطابهـا، ومـع أن هنـاك أصواتـًا فرديـة تخالـف هـذا النهـج، فيكـون خطابهـا غـير مقتـصر عـلى التمجيد، وهـو مـا نسـعى لتعزيـزه بالتركيـز عـلى فوائـده ومضـارّ تركـه، إلا أنهـا مـا زالـت خافتـة مقارنـة بالخطـاب (التمجيـدي).

وهـذه المشـكلة - وفـق ملاحظـاتي - تنطبـق عـلى كل التيـارات الإسـلامية، بـل وعـلى أغلـب - إن لم أقـل كل - التيـارات السياسـية في عالمنـا العـربي، وتركيـزي عـلى الإسـلاميين لأنهـم قومـي الذيـن يجـب عـليّ الحـرص عـلى نصحهـم.

ولا شـك أن كثـيراً مـن قيـادات ومفكـري الإسـلاميين يعرفـون الأخطـاء التـي وقعـت حركاتهـم فيهـا، ويعترفـون بهـا، ويحاولـون تصويـب المسـار، ومـا تغـير

مناهجهـم وطـرق تعاطيهـم مـع الأمـور إلا نتيجـة مبـاشرة لهـذه المراجعـات، الفكريـة والسياسـية، ولكـن المشـكلة أنهـم – في كثـير مـن الأحيـان – يعترفـون بالخطـأ في أطرهـم المغلقـة، وينكرونـه أمـام قواعدهـم وجماهيرهـم، وذلـك لأسـباب منهـا ضعـف ثقتهـم بأتباعهـم، وخوفهـم مـن انفضاضهـم مـن حولهـم. بعـض الإخـوة يـبررون العـزوف عـن الاعـتراف العلنـي بالأخطـاء والإخفاقـات بأنـه يوفـر فرصـة للأعـداء لاسـتغلال الأمـر لمهاجمـة الإسـلاميين والطعـن فيهـم، وخصوصًـا أننـا نعيـش في عـصر الثـورة الإعلاميـة التـي قـد تتحـول فيهـا الكلمـة إلى قصـة كبـيرة خاصـة إن خرجـت مـن مسـتويات عليـا، كـما أن البعـض يلاحـظ أن عـددًا ممـن ينتهجـون (النقـد العلنـي الـذاتي) عـبر وسـائل التواصـل لا يهدفـون للإصـلاح، وإنمـا يريـدون إبـراز أنفسـهم بأنهـم مسـتقلون في آرائهـم، منفتحـون عـلى غيرهـم، وقـد يكـون وراء ذلـك مـن أمـراض النفـوس مـا وراءه، ولذلـك تجدهـم ينتقـدون ويهاجمـون، ويترصـدون للأخطـاء بطريقـة ممجوجـة.

وهنـا لا بـدّ مـن التأكيـد عـلى أننـا عندمـا نطالـب بوجـود (الخطـاب النقـدي) لدينـا فإننـا لا نطالـب أن يكـون ذلـك بـدون ضوابـط، إذ المطلـوب، مـع مراعـاة السـلبيات المتوقعـة لأي إعـلان لوجـود خطـأ، هـو أن نـوازن بـين حـق (أنصـار الإسـلاميين) في الحصـول عـلى المعلومـة الصحيحـة والموقـف الحقيقـي، وبـين مـا يجـوز ومـا لا يجـوز نـشره.

وعندمـا أتحـدث عـن الاعـتراف بالأخطـاء، فالمقصـود هـو الاعـتراف بالأخطـاء بعـد إجـراء عمليـة التقويـم، واكتشـاف الخطـأ بوضـوح، إذ في الأمـور الاجتهادية تبقـى احتماليـة أن يكـون الاجتهـاد صوابًـا موجـودة مـا دامـت المسـألة لم تنتـهِ بعـد، وهـذا الأمـر مهمـة القـادة والمفكـرون، إذ هـؤلاء الذيـن يكـون لاعترافهـم بوجـود الخطـأ، وحتـى اعتذارهـم عنـه إن تطلـب الأمـر، أثـرٌ تربـوي إيجـابي عـلى قواعـد الإسـلاميين.

ورغـم أن الإسـلاميين – في كثـير مـن الأحيـان – يجـرون عمليات تقويـم لمنهجهم،

إلا أن نتائج هـذا التقويـم تظـل طـي الكتـمان لأسـباب كثـيرة، وكثـير منهـا مـبرر ومفهـوم، غـير أنـه مـن الـضروري دراسـة مـا يمكـن الإعـلان عنـه مـن جوانـب هـذا التقويـم، وخاصـة في القضايـا العامـة، والسياسـية منهـا عـلى وجـه الخصـوص، ضمـن مـا لا يـضرُّ بالاسـتراتيجيات العامـة لهـذه الحـركات.

نعـود لموضـوع (تمجيـد الـذات الحركيـة والفكريـة) لنؤكـد أنـه أمـر مطلـوب، مارسـه القـرآن الكريـم حـين خاطـب المؤمنـين بقولـه تعـالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمـران: ١١٠]، ثـم بـيّن عنـاصر هـذه الخيريـة، وحـين خاطبهـم رافعًـا مـن معنوياتهـم معَلِّـلًا دعوتَـه إياهـم لنبـذ الوهـن والحـزن بقولـه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمـران: ١٣٩].

وكذلـك نقـد الآخـر - كفكـرة وكأشـخاص يمثلونهـا - مطلـوب لبيـان التفاضـل بـين فكـرة الحـقّ وفكـرة الباطـل، وبـين متمثّـلي الحـق ومتمثّـلي الباطـل، وقـد جـاء في القـرآن الكريـم كثـير مـن ذلـك مـن نقـدٍ لأفـكار الكافريـن ومذاهبهـم، وتبكيـتٍ لهـم، وكلُّ كلام في القـرآن الكريـم عـن الكافريـن وعقائدهـم يصُـبُّ في ذلـك، وكذلـك هاجـمَ القـرآن الكريـم أشـخاصَهم وبـيَّن عوارهـا، ومـا ذِكْـرُه قصـص فرعـون وهامـان وحـوارات مسـتضعَفي الكفـرة مـع مسـتكبريهم إلا مـن ذلـك.

والمشـكلة ليسـت في تمجيـد الفكـرة ونقـد الآخـر، بـل إن ذلـك مطلـوب لتعزيـز الثقـة بالـذات والتنبّـه إلى مواقـع القـوة والاعتـزاز ورفـع المعنويـات **ولكـن المشـكلة كلهـا تكمـن في أن يكـون هـذا كلّ خطابنـا**، وننـسى الجانـب الآخـر والمتعلـق بمراجعـة أخطائنـا ونقـد إخفاقاتنـا.

لقـد جـاء القـرآن الكريـم ليعلمنـا كيـف نتعامـل مـع الأمـور التـي نواجههـا، وعنـد النظـر إلى الخطـاب القـرآني، وهـو الخطـاب الـذي يجـب أن نهتـدي بهديـه، أنـه إضافـةً إلى تعزيـز ثقـة المؤمنـين بفكرتهـم ودينهـم وأنفسـهم،

ومهاجمتـه لأعدائهـم، كان يقـف معهـم وقفـات نقديـة يدلُّهـم فيهـا عـلى أخطائهـم وعنـاصر ضعفهـم، وينبّههـم إلى ذلـك، وانظـر - عـلى سـبيل المثـال - إلى آيـات سـورة (آل عمـران) التـي تحدثـت عـن معركـة أحـد، وهـي مـا بعـد الآيـة (١٢٠)، تجدهـا مليئـة بعمليـة النقـد والإشـارة إلى الأخطـاء التـي أدّت إلى تلـك النتيجـة في المعركـة.

ومـن هنـا يتضـح أن المشـكلة تكمـن في أن يكـون خطابنـا كلـه حـول تمجيـد الـذات وننـسى في غمـرة ذلـك الإشـارة إلى أخطائنـا في تجاربنـا.

هـذا الأسـلوب في الخطـاب قـد يكـون الدافـع لـه عنـد البعـض (التكـبّر) و(تعظيـم الـذات) الـذي أوقـع إبليـس في المهالـك، ولكـن في أحيـان كثـيرة يكـون دافعـه أن المتحدثـين لا يثقـون بجماهيرهـم ولا يعتمـدون عـلى وعيهـا.

وحتـى يـدرك الفاعلـون في السـاحة الإسـلامية أهميـة شـمول خطابنـا الإعلامـي لنقـل الصورتـين فإنهـم يجـب أن يعرفـوا لمـاذا يجـب عـلى قـادة الإسـلاميين ومفكريهـم أن يكـون خطابهـم شـاملًا الإشـارةَ إلى الأخطـاء التـي وقعـت فيهـا التيـارات الإسـلامية، وهـو مـا يسـمى (النقـد الـذاتي)؟

السـبب الرئيـس لهـذه الـضرورة هـو أن الفئـة المسـتمعة للخطـاب الإعلامـي للإسـلاميين - بشـكل رئيـس - هـي أتباعهـم وأنصارهـم ومؤيدوهـم، ومنهـا سـيخرج الذيـن سـيحملون رايـة العمـل الإسـلامي لاحقًـا، فـإن لم يقـف الإسـلاميون مـع هـؤلاء وقفـات عنـد الأخطـاء حتـى تُسـتخلص منهـا العـبر، فإنهـم يعرِّضـون تلـك الأجيـال للوقـوع في نفـس أخطـاء السـابقين، والسـعيد - كـما يقولـون - مـن اتّعـظ بغـيره، والشـقيّ مـن اتّعـظ بنفسـه.

إن إنكارنـا أخطاءنـا وتغاضينـا عنهـا يرسـخ في عقـول وقلـوب الجيل القـادم نفس المنهـج، منهـجَ إنـكار الأخطـاء، مـما سـينعكس عـلى تربيتهـم للجيـل اللاحـق، وهكـذا نبقـى نـدور في حلقـة مفرغـة، نكـرر أخطاءنـا بـدون أن نسـتفيد منهـا.

وهنا تبرز شبهة يتمسك بها البعض، وهي أن الاعتراف بالأخطاء ومناقشتها يزعزع ثقة المؤيدين بقيادتهم؟

وللأسف فإن لدى البعض منا مفهومًا خاطئًا حول الثقة، فهم يظنون أن الإشارة إلى الأخطاء تهز ثقة القواعد بقيادتهم، والحقيقة هي أنني لم أجد عاملًا يساهم في بناء هذه الثقة المنشودة أكثر من الصراحة، وخصوصًا الاعتراف بالخطأ حين وقوعه، فأبناء التيارات الإسلامية يشكلون - في جُلّهم - قاعدةً واعيةً مثقفة، ترى الخطأ فتدرك أنه خطأ، فإذا رأى الشباب قيادتهم تنكر الخطأ الواضح الذي وقعت فيه، فإنهم سيخرجون بأحد استنتاجين اثنين، لا ثالث لهما:

أولهما: أن تكون القيادة مدركة لخَطَئِها ومتعمّدةً إخفاءه، وهذا يدلُّ على عدم ثقتها بأتباعها، وبالتالي كيف سيثق الأتباع بمثل هذه القيادة؟!

والثاني: أن لا تكون القيادة مدركة لخطئها، وهذا ثَلمٌ في وعيها وإدراكها يؤدي إلى اهتزاز الثقة بها.

لذلك أزعم أن منهج الصراحة مع الأنصار والقواعد هو المنهج الأمثل لتمتين الصف وحمايته من عوامل الضعف، مع إعادة التأكيد على أنني لا أطالب بأن نكون كالصفحة المفتوحة؛ لئلا نفتح ثغرات للأعداء يلجون منها، ولكن لا يجوز - أيضًا - أن نكون أمام أنصارنا وقواعدنا كالكتاب المغلق، وإنما نحتاج التسديد والمقاربة والموازنة.

الخلافة التي نريد[1]

تطل علينا هذه الأيام ذكرى قيام (أتاتورك) بإلغاء (الخلافة) وطرد الخليفة العثماني وعائلته[2]، وهي ذكرى أليمة أسقطت قلعة كان المسلمون يأملون أن توفر لهم الوحدة والحماية، وانتهت بتلك الحادثة مرحلة وصفتها الأحاديث النبوية بأنها مرحلة الملك العضوض (الوراثي) في تاريخ الأمة.

ولا شك أن كل مسلم صادق (يتطلع) إلى عودة (الخلافة) التي تسير على منهاج النبوة وتجمع شتات المسلمين في دولة واحدة، ويؤمن بأن ذلك حاصلٌ لا محالة؛ لأنه وعد الصادق المصدوق ﷺ.

ولكن صورة الخلافة المنشودة أصابها بعض الغبش بسبب سوء عرض بعض الذين (ينظّرون) لفكرتها، وللمساهمة في توضيح الصورة وإزالة بعض هذا الغبش ينبغي علينا الوقوف عند بعض الأفكار الأساسية المتعلقة بفكرة (دولة الخلافة).

الخلافة نظام وليست شخصًا

لا شك أن كل مسلم صادق (يتطلع) إلى عودة (الخلافة الراشدة)، ويؤمن بأن ذلك حاصلٌ لا محالة؛ لأنه وعد الصادق المصدوق ﷺ.

ولكن بعض الذين (ينظّرون) لفكرة الخلافة يختزلونها في (شخصٍ) يريدونه اسمه (الخليفة)، فتراهم يتضرعون إلى الله تعالى أن يبعث لهم (خليفة) يحلُّ مشاكل الأمة، ويعيد لها عزّتها، ويتوعدون الأعداء بأنه إذا جاء

---

(١) نشر أصل هذا المقال في مدونتي الشخصية وفي موقع إشراقات، بتاريخ ٢٠١٨/٤/١٣، وكذلك على صفحاتي في الفيسبوك.

إشراقات: http://ishraqat.info/?p=١٠٠٤٣

مدونتي: http://easajabary.blogspot.com/٢٠١٨/

(٢) أعلن رسميًا عن إلغاء الخلافة الإسلامية العثمانية في تركيات بتاريخ (٢٨ رجب ١٤٣٤ هـ)، الموافق لـ (٣ آذار ١٩٢٤ م).

(الخليفة) فإنه سيفعل ويفعل ويفعل.

وهنا لا بدّ من تذكير:

الخلافة (نظامٌ) وليست (شخصًا)، ومصطلحها مشتقٌّ من كون هذا النظام سائرًا على منهج النظام النبوي، فهو نظام يسير وفق منهج النبوة، فلو جاء رجلٌ قوي وتمكن من الحكم وأعلن نفسه (خليفة) للمسلمين فإنه لن يفلح في حلّ مشاكل الأمة وقيادتها نحو الرفعة ما لم تسانده قوى المجتمع حوله، فحالة الصلاح في مجتمع الخلافة الراشدة كانت نتاج حالة مجتمعية متكاملة، وحتى الانتصارات اللاحقة التي حققتها الأمة، كانتصار صلاح الدين على الصليبيين، فإنها ورغم ارتباطها بأسماء أشخاص، كصلاح الدين، ومحمد الفاتح وغيرهما، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على تحقيق هذا الإنجاز لولا وجود حالة مجتمعية إصلاحية امتدت أجيالا ومهدت لتلك الإنجازات، وهنا نستذكر أن عليًا رضي الله عنه لم يستطع حلَّ المشاكل التي أحاطت به، ليس لضعف فيه ولا لانعدام الخبرة، حاشاه ذلك، ولكن لأن كثيرين من الذين كانوا حوله (أركان نظامه) لم يكونوا مساعدين له على ذلك، وقد كان يشكو من عصيانهم فيقول لهم: (أفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان)، ووضح ذلك بقوله (لا رأي لمن لا يطاع).

وقد روي أن أحد أتباعه سأله، فقال: يا أمير المؤمنين، ما بال أبي بكر وعمر انطاع الناس لهما، والدنيا عليهما أضيق من شبر فاتسعت عليهما ووليت أنت وعثمان الخلافة ولم ينطاعوا لكما، وقد اتسعت فصارت عليكما أضيق من شبر؟

فقال له عليٌّ رضي الله عنه: لأن رعية أبي بكر وعمر كانوا مثلي ومثل عثمان، ورعيتي أنا اليوم مثلك وشبهك![1]

---

(١) الطرطوشي، (ت ٥٢٠هـ)، سراج الملوك، ص ١١٦.

الخلافة مضمون وليست شكلًا أو اسمًا

السعي لإحياء (الخلافة الراشدة) واجب شرعي، ولكن التركيز على اسم (الخلافة) بدون اقتران ذلك ببيان المضامين المستهدفة ترك عند كثيرين من عامّة الناس انطباعًا يجعل أهمية (اسم) النظام الذي نريده أكثر من أهمية (مضمونه)، وكأني بهؤلاء الذين يركّزون على (الاسم) ويهملون الحديث عن (المضمون) قد ظنّوا الاسم أمرًا مقدّسًا.

لقد جاءت الأحاديث التي وردت فيها الألفاظ المتعلقة بالخلافة، مثل: (خلافة) و(خليفة) و(خلفاء) في سياق يوحي بأن المقصود منها الوصف والإخبار، لا إنشاء اسم يلزم المسلمين استخدامه ولا يجوز لهم مخالفته، وليس معنى كلامي أن نعزف عن استخدام مصطلح (الخلافة) و(الخليفة)، بل المقصود بيان جواز استخدام لفظ آخر لوصف من يتولى الإمامة في الدولة الإسلامية.

ويبقى المهم أن تكون حقيقة من يتولى أمر الأمة موافقة لما يريده الله منه، من إقامة شرع الله، وشرع الله لا يقتصر على إقامة الحدود، والتي رغم أهميتها ليست سوى جزءٍ صغير من شرع الله تعالى، والذي يندرج تحته العناوين الكبرى لمقاصد الشريعة، كإقامة العدل، ونشر الإحسان، وتكريم الإنسان، والحفاظ على الحرية.

ومما يدل على جواز استخدام لفظ غير مصطلح (الخليفة) لوصف من يتولى الإمامة في الدولة الإسلامية:

الحديث الصحيح الذي جاء فيه أن الرسول ﷺ قال (**إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش**)، وهذا لفظ مسلم (ح١٨٢١/٥)

فقد ورد بلفظ آخر - عند البخاري، ح٧٢٢٢ - وفيه (**يَكُونُ اثْنَا عَشَرَ أَمِيراً،**

كُلُّهُـمْ مِـنْ قُرَيْـشٍ)، فاسـتخدم لفـظ (أمـير) بـدل خليفة.

كـما ورد بلفـظ آخـر، عنـد مسـلم أيضًـا (ح٦/ ١٨٢١) وفيـه (**لا يـزال أمـر النـاس ماضيـا مـا وليهـم اثنـا عـشر رجـلا، كلهـم مـن قريـش**)

وهــذا الاختــلاف في ألفــاظ الحديــث يُحمــل عــلى أنــه مــن تــصرّف الــرواة، يروونــه بالمعنــى، وهــو يــدلُّ عــلى أنهــم لم يكونــوا يعتــبرون اســتخدام لفــظ (خليفــة) أمــرًا واجبًــا، لا يجــوز الاعتيــاض عنــه بلفــظ (أمــير) مثــلًا، أو التعبــير عنــه بلفــظ (مــا وليَهــم).

الحديــث الصحيــح - الــذي رواه البخــاري (ح٢٣٥٨) ومســلم (ح١٠٨) - وفيــه: (**ثَلاَثَـةٌ لاَ يَنْظُـرُ اللَّـهُ إِلَيْهِـمْ يَـوْمَ القِيَامَـةِ، وَلاَ يُزَكِّيهِـمْ، وَلَهُـمْ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ**) وذكـر منهـم (**وَرَجُـلٌ بَايَـعَ إِمَامًـا لاَ يُبَايِعُـهُ إِلَّا لِدُنْيَـا، فَـإِنْ أَعْطَـاهُ مِنْهَـا رَضِيَ، وَإِنْ لَـمْ يُعْطِـهِ مِنْهَـا سَـخِطَ**).

فقـد ذكـر هنـا (الخليفـة) بوصفـه (إمامًـا)، وهـذا يـدل عـلى جـواز اسـتخدام لفـظ آخـر لوصـف صاحـب هـذا المنصـب الـذي يـلي أمـر المسـلمين، ولـو كان لفـظ (الخليفـة) متعيّنًـا لذكـره.

أن عمـر ﵁ لم يمانـع في تغيـير لقبـه مـن (خليفـة) إلى (أمـير المؤمنـين)، فقـد روى البخــاري في الأدب المفــرد (ح١٠٢٣) أَنَّ عُمَــرَ ﵁ (**كَتَــبَ إِلَى عَامِــلِ الْعِرَاقَـيْنِ أَنِ ابْعَـثْ إِلَيَّ بِرَجُلَـيْنِ جَلْدَيْـنِ نَبِيلَـيْنِ أَسْـأَلُهُمَا عَـنِ الْعِـرَاقِ وَأَهْلِـهِ، فَبَعَـثَ إِلَيْـهِ صَاحِـبُ الْعِرَاقَـيْنِ بِـ (لَبِيـدِ بْـنِ رَبِيعَـةَ) و(عَـدِيِّ بْـنِ حَاتِـمٍ)، فَقَدِمَـا الْمَدِينَـةَ، فَأَنَاخَـا رَاحِلَتَيْهِـمَا بِفِنَـاءِ الْمَسْـجِدِ، ثُـمَّ دَخَـلَا الْمَسْـجِدَ، فَوَجَدَا عَمْـرَو بْـنَ الْعَـاصِ، فَقَـالَا لَـهُ: يَـا عَمْـرُو اسْـتَأْذِنْ لَنَـا عَـلَى أَمِـيرِ الْمُؤْمِنِـينَ عُمَـرَ. فَوَثَـبَ عَمْـرٌو فَدَخَـلَ عَـلَى عُمَـرَ، فَقَـالَ: السَّـلَامُ عَلَيْـكَ يَـا أمـير المؤمنـين. فَقَـالَ لَـهُ عُمَـرُ: مَـا بَـدَا لَـكَ فِي هَـذَا الِاسْـمِ يَـا ابْـنَ الْعَـاصِ؟ لَتَخْرُجَـنَّ مِـمَّا قُلْـتَ. قَـالَ: نَعَـمْ، قَـدِمَ لَبِيـدُ بْـنُ رَبِيعَـةَ وَعَـدِيُّ بْـنُ حَاتِـمٍ فَقَـالَا لِي اسْـتَأْذِنْ لَنَـا**

عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْتُ أَنْتُمَا وَاللَّهِ أَصَبْتُمَا اسْمَهُ، وَإِنَّهُ الْأَمِيرُ وَنَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ). فَجَرَى الْكِتَابُ من ذلك اليوم.

الخلافة لا تعني أن المشاكل سيتم حلها بكبسة زر

بعض الذين يتمحور حديثهم عن (الخلافة)، يوهم حديثهم - بقصد منهم أو بغير قصد - أن مشاكل الأمة ستُحَلُّ كلها عند إعلان دولة الخلافة، فالأمة ستنتصر، وتعود لها عزَّتُها، وينتعش اقتصادُها، ويزول الفقرُ بين أبنائها، ويعيش أهلها في رخاء وسعادة وراحة بال ... الخ.

وأصحاب هذا الطرح يزعمون أن أبواب المحن انفتحت على المسلمين حينما انهدمت دولة الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤م،

ويتناسون أنه في ظل أنظمة كانت تسمى (خلافة إسلامية) ذُبح الخليفة المستعصم العباسي في بغداد سنة ٦٥٦هـ واستعمرت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣١م؛ وقسّم الإنجليز والفرنسيون أرض الشام والعراق باسم معاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦م، وأن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني سنة ١٩١٧م؛ وأن الشام والعراق احتلتا في نفس الفترة تقريبا، وكل ذلك ودولة (الخلافة) كانت قائمة.

لقد مرّت الأمة بمراحل عديدة كانت تحت نظام (الخلافة) ولكنه لم يكن نظام الخلافة الراشدة التي على منهاج النبوة، فتعرضت لهزائم وانتكاسات، وتشرذمت وسيطر الأعداء على مناطق شاسعة منها، وانتشر الفقر عندما كان من يزعمون أنهم (خلفاء) يتعاملون مع أموال الأمة كأنها ميراث آبائهم.

وحتى في زمن الخلافة الراشدة، فقد كانت الأمة تمرُّ بمراحل معاناة وشظف ومكابدة، كما حدث في عام الرمادة عندما انتشر القحط أثناء خلافة عمر رضي الله عنه، وهذه الأمور من الأمور الطبيعية في هذه الدنيا التي

جعلهـا اللـه دار امتحـان وابتـلاء، لا دار اسـتقرار وجـزاء.

ولا شـكَّ أن مـا يتطلـع إليـه الداعـون لعـودة الخلافـة مـن انتصـار الأمـة، واسـتعادتها عزَّتُهـا، وانتعـاش اقتصادُهـا، وزوال الفقـر بـين أبنائهـا، لا شـك أن ذلـك – كلـه أو بعضـه – يمكـن أن يحـدث، ولكـن ليـس لمجـرد إعـلان دولـة تسـمى دولـة الخلافـة، بـل سـيحدث عندمـا تقـوم تلـك الدولـة وتأخذ بالأسـباب التـي جعلهـا اللـه طريقًـا للوصـول إلى هـذه النتائـج.

يجـب أن يكـون هدفنـا الأول عندمـا نسـعى لإعـادة إحيـاء الخلافـة أن نطيـع أوامـر اللـه تعـالى، التـي فَرَضَـت علينـا أن تكـون حياتنـا كلهـا سـائرة وفـق منهجـه الـذي شرعـه لنـا، بمـا فيهـا نظـام الحكـم وأمـور السياسـة، أمـا أن نـروّج لفكـرة أن الهـدف اسـتجلاب المنافـع الدنيويـة فإننـا سـنقع في ورطـة حيـت تقـوم تلـك الدولـة، ويجـد العامـة مـن النـاس أنهـا لم تحقـق لهـم (الجنّـة) التـي وُعـدوا بهـا، وهـي لـن تحقـق ذلـك في بداياتهـا؛ لأنهـا سـتكون منشـغلة في تثبيـت أركانهـا ومحاربـة أعدائهـا.

متى سقطت الخلافة

إحيـاء ذكـرى سـقوط الخلافـة يتـم في شـهر آذار مـن كل عـام ميـلادي، أو في شـهر رجـب مـن كل عـام هجـري، وهـو تاريـخ هـدم الخلافـة العثمانيـة، وهنـا لا بـدّ مـن طـرح هـذا التسـاؤل: متـى سـقطت الخلافـة حقيقـةً؟

ولمعرفـة الجـواب، فـإن خـير مـن يخبرنـا عنـه هـو الصـادق المصـدوق الـذي لا ينطـق عـن الهـوى ﷺ، فقـد أخبرنـا في حديـث صحيـح ذكـر فيـه المراحـل التـي سـيمر بهـا الحكـم في الأمـة الإسـلامية، وكانـت وفـق ذلـك الحديـث بعـد مرحلـة الـ (نبـوّة):

- خلافة على منهاج النبوة
- يتلوها مُلكٌ عاضٌّ، أو عضوض

- يتلوه ملكٌ جبريٌّ
- يتلوه خلافة على منهاج النبوة

وبيَّنَ لنا في حديث آخر مدة (الخلافة) التي تسير على منهاج النبوة، فقال ﷺ: (**خلافةُ النُّبوَّة ثلاثونَ سنةَ، ثم يؤتي الله المُلكَ من يشاء**)[1].

وفي رواية أخرى للحديث[2] قال ﷺ: (**الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ سَنَةً، وسائرهم ملوك**).

وقد قال ابن حبان: «مَنْ بَعْدَ الثَّلَاثِينَ سَنَةً يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لَهُمْ: خُلَفَاءُ أَيْضًا عَلَى سَبِيلِ الِاضْطِرَارِ، وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا عَلَى الْحَقِيقَةِ».

والظاهر من عبارة ابن حبان هذه أنه يقصد بجواز وصف الملوك الذين جاؤوا بعد الخلافة الراشدة بـ (الخلفاء) ضرورةً، أن وصف (الملوك) حقيقة في حقهم، ووصف (الخلفاء) مجاز، والله أعلم.

وقد ذكر ابن حبان حديثًا لبيان جواز إطلاق اسم (الخلفاء) على من ورد تسميتهم بالملوك في الحديث السابق، وذلك تحت عنوان (ذكر البيان بأن الملوك يطلق عليهم اسم الخلفاء في الضرورة أيضا على ما ذكرناه) وفي هذا الحديث الذي رواه أن النبي ﷺ قال: (**سيكون من بعدي خلفاء، يعملون بما يعلمون، ويفعلون ما يؤمرون، وسيكون من بعدهم خلفاء، يعملون مالا يعلمون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن أنكر بريء، ومن أمسك سلم، ولكن من رضي وتابع**) اهـ.

فالخلافة التي نريد إحياءها، والتي وُعدنا بأنها ستقوم ليست هي التي سقطت قبل نحو (١٠٠) سنة، بل هي تلك التي سقطت سنة (٤١ هـ)، وما بعدها من دول تسمى خلافة على سبيل الاضطرار كما قال ابن

---

(١) رواه أبو داود، ح٤٦٤٧، والترمذي، ح٢٢٢٦

(٢) إسنادها حسن، وهي في صحيح ابن حبان، ح٦٦٥٧

حبـان.

وهنـا لا بـد مـن التنبيـه إلى مسـألة تاريخيـة مهمـة، فقـد سـألني أحـد الأفاضـل عندمـا تحدثـت عـن أن الخلافـة سـقطت سـنة (٤١ هــ): هـل تـم إسـقاط الخلافـة عـلى يـد معاويـة بـن أبي سـفيان؟

وهـذه العبـارة التـي ذكرهـا الأخ في تسـاؤله توحـي بـأن معاويـة - رحمـه اللـه - كان يقصـد إسـقاط الخلافـة، وليـس هـذا مـا حـدث، ولسـنا نظـن بمعاويـة رحمـه اللـه قصـد ذلـك، ولكـن النظـام تحـول مـن (خلافـة راشـدة عـلى منهـاج النبـوة) إلى (ملـك عضـوض) وفـق مـا جـاء في الحديـث الشريـف وكان هـذا التحـول قـد حصـل كنتيجـة لتراكـم الأحـداث في تلـك الفـترة، واللـه أعلـم.

إن الأنظمـة التـي حكمـت الأمـة بعـد الخلفـاء الراشـدين كأنظمـة العثمانيـين وقبلهـم العباسـيين والأمويـين، هـي دول (إسـلامية) خلطـت عمـلًا صالحًـا وآخـر سـيئًا، ومـن خيريتهـا أنهـا دافعـت عـن وحـدة الأمـة في مراحـل كثـيرة، وفرضـت هيبتهـا، وهـي رغـم أنهـا كانـت لهـا أعـمال صالحـة، وأنهـا خـير مـن الأنظمـة التـي تحكمنـا بمـا لا يقـاس، إلا أنهـا لم تكـن تسـير عـلى منهـاج النبـوة بالشـكل الـذي نريـده ونطمـح إليـه، فهـي مثـل مسـلم مقـصر في التزامـه بدينه، وليسـت المسـلم الأنمـوذج الـذي نسـعى للوصـل إليـه.

ولمزيـد مـن التوضيـح أضيـف: إن الـدول في انتسـابها للإسـلام كالبـشر، يكـون الإنسـان مسـلمًا بإعلانـه شـهادة التوحيـد، وتكـون الدولـة مسـلمة بإعلانهـا الخضـوع لـشرع اللـه، وفي مجـال التطبيـق تجـد في النـاس السـابقين بالخـيرات، والمقتصـد، والظـالم لنفسـه، ويبقـى هـؤلاء تحـت إطـار (الإسـلام) رغـم تقصـير المقـصر فيهـم، وكذلـك الـدول قـد تبتعـد عـن تطبيـق منهـج اللـه تعـالى وتبقـى في إطـار أنهـا دولـة مسـلمة، ولكنهـا حـين تعلـن تبنيهـا النظـام العلـماني مثـلًا، تكـون كالـذي كان مسـلمًا وأتى بناقـض مـن نواقـض الشـهادتين.

أصحيح أنه (لا يفتي قاعد لمجاهد)؟[١]

انتشرت على ألسنة كثير من الإسلاميين قاعدة صارت من المسلمات عندهم، وهي قولهم (**لا يفتي قاعد لمجاهد**)، وصار كثيرون منهم – للأسف – يسيئون استخدام هذه العبارة، حتى صار استخدامها سيفًا مسلطًا من فئة من (الجهلة) و(الأغرار) ضد أهل العلم والوعي والفقه، فقد ابتليت بعض الحركات الإسلامية بفريق من الشباب المتحمس والمتعصب للأشخاص والمواقف، لا للدليل ولا للحجة، ويظهر تشدده بتقديس أقوال ومواقف بعض القيادات، فيدافع عنهم في الصحيح وغيره، ويلقي على أقوالهم هالة من القداسة هم أنفسهم يرفضونها، ويهاجمون مخالفيهم بلا مروءةٍ ولا مراعاةٍ ولا تقدير، فإذا اعترض أو انتقد أحد أبناء الدعوة هؤلاء القيادات هاجموهم بمثل هذا القول، مخرجينهم من زمرة المجاهدين، وحاشرينهم في زمرة القاعدين.

وحتى في المواقف السياسية ترى البعض ينبري لمن يدلي برأيه في تلك الأحداث من المخلصين المنشغلين بهموم الأمة، ناقدًا أو ناصحًا، فيُشهر في وجهه هذه القاعدة، ويريد منعه من إبداء الرأي والقيام بواجب النصح. ليست المشكلة – في نظري – في القاعدة نفسها، فالذي أراه أنها قاعدة صحيحة عندما تفهم في سياقها الصحيح، ولكن المشكلة في فهم هذه القاعدة وتوظيفها (أي تطبيقها على الأحداث التفصيلية).

ولغايات التوضيح سأطرح بعض التساؤلات مع الإجابة عليها:

---

(١) نشر أصل هذا المقال في مدونتي الشخصية وفي موقع (إشراقات) بتاريخ ٢٠١٨/٨/٥، وكذلك على صفحاتي في الفيسبوك.

إشراقات: http://ishraqat.info/?p=١٠٥٢٢

مدونتي: https://easajabary.blogspot.com/٢٠١٨/٠٥/blog-post.html

السؤال الأول الذي يجب الوقوف عنه هو: ما المقصود بـ (الفتوى) هنا؟

الاستفتاء في اللغة يعني السؤال عن أمر أو عن حكم مسألة ما، أما في الاصطلاح الشرعي فهو مقيد بأن تكون تلك المسألة متعلقة بحكم شرعي. والأصل أن قاعدة (لا يفتي قاعد لمجاهد) تشمل المعنى اللغوي، أي ما هو أعمّ من بيان الحكم الشرعي، وذلك يتضمن ترجيح أحد المباحات.

ومعلوم عند أهل العلم الشرعي أن لكل مسألة حكمًا شرعيًّا عامًّا ينطبق عليها، ففي الجهاد – مثلًا – الحكم الشرعي في إحراق أشجار العدو إن كان في ذلك نكاية بهم وتحقيق مصلحة لجيش المسلمين هو الجواز، والوصول إلى مثل هذا الحكم والإفتاء فيه لا يحتاج أن يكون المفتي فيه (أي المبين لحكم الشرع فيه) من المجاهدين، إذ الوصول للحكم هنا ينطلق من النظر في الأدلة الشرعية، وهي مهمة أهل العلم الشرعي، وهذا النوع من الفتوى لا تنطبق عليه القاعدة التي نتكلم عنها، وفي تاريخنا تحدث كثير من الأئمة وأهل العلم المعروفين في القضايا الفقهية (النظرية) المتعلقة بأحكام الجهاد، ولم يكونوا من أهل الغزو أو ما يسمى بالثغور، ومنهم الأئمة الأربعة، وما كتبوه وأفتوا به في باب الجهاد وتوصلوا إليه من أحكام كان وما يزال المعتمد في الفقه الإسلامي، وما يرجع إليه من تبعهم من العلماء في كل العصور.

ولكنّنا عندما نأتي لتنزيل هذا الحكم العام على واقعة معيّنة فإننا نحتاج لمعرفة مدى تحقيق هذا الفعل للنكاية في العدو وكونه مصلحة للمسلمين، حتى نقوم بتطبيقه، وهذا أمر لا يستطيعه من هو بعيد عن الحدث أو غير مطلع على تفاصيله، وهذا هو الذي تنطبق عليه القاعدة، ولكن يجب الانتباه إلى أن العبرة في جواز الإفتاء (أو إبداء الرأي هنا) هي في الاطلاع على التفاصيل، فلربما كان في ساحة الجهاد من هو قريب منها

مكانًـا، ولكنـه غـير مطلـع عـلى التفاصيـل التـي يُتَّخـذ القـرار بنـاءً عليهـا، بينـما هنـاك مـن هـو بعيـد عنهـا مكانيًّـا وهـو عـلى اطـلاع بالتفاصيـل اللازمـة لإبـداء الـرأي، فهـذا لا يقـال لـه (لا يفتـي قاعـد لمجاهـد).

والسـؤال الثـاني الـذي نقـف عنـده: مـن هـو القاعـد الـذي لا يصـح لـه أن يفتـي للمجاهـد؟

إذ البعـض يعتـبر كل مـن لا يحمـل السـلاح (قاعـدًا)، وفي هـذا الفهـم مـا فيـه مـن الخلـل، لقـد ذكـر الإمـام الطـبري في تفسـيره أن (القاعدين) هـم (المتخلِّفون عـن الجهـاد ...، المؤثـرون الدعـةَ والخَفْـض وَالقُعـودَ في منازلهـم).

ومعلـوم – بداهـة – أن الجهـاد ليـس في حمـل السـلاح فقـط، فالطبيـب الـذي يعالـج الجنـود في الجيـش مجاهـد، والطبـاخ الـذي يطعمهـم كذلـك، والعـين الـذي يزودهـم بالأخبـار مجاهـد، والواعـظ الـذي يرفـع معنوياتهـم، والعـالم الـذي يفتيهـم، كل أولئـك وهـم يتحملـون قسـطهم مـن الجهـاد ويسـدّون ثغـرة مـن الثغـرات مجاهـدون وليسـوا قاعديـن.

والمشـكلة عندمـا تشـهر هـذه القاعـدة في وجـه رجـال أمضـوا معظـم أعمارهـم في سـاحات الجهـاد، نعـم قـد تكـون السـاحات الخلفيـة المسـاندة، ولكـن بدونها لم يكـن للجهـاد العمـلي أن تقـوم لـه قائمـة، فيُتهمـون بأنهـم مـن القاعديـن، مـع أن القاعديـن – كـما أوضحنـا – هـم الذيـن آثـروا الخمـول والدعـة، بينـما هـؤلاء دفعـوا ضريبـة مواقفهـم، ولا يمنّـون بهـذا عـلى أحـد بـل للـه تعـالى عليهـم الفضـل والمنّـة.

أمـا السـؤال الثالـث في هـذا السـياق فهـو: مـن هـو (المجاهـد) الـذي لا يصـح لــ (القاعـد) الاعتراض عـلى فتواه؟

(الفتـوى) كـما أسـلفنا هـي (إبـداء الـرأي في مسـألة لبيـان الموقـف الـلازم اتخـاذه فيهـا).

ويجب أن يكون واضحًا أنه ليس كل من انطبق عليه لفظ (مجاهد)، سواء كان جهاده مباشرًا بحمل السلاح أم غير مباشر (بالدعم اللوجيستي) يصلح لتؤخذ منه مثل هذه الفتوى، فالفتوى لا تؤخذ إلا من أهلها، وأهلها لا بدّ أن يتمتعوا بتأهيل علمي ومعرفة بالواقع تمكّنهم من بيان الرأي الذي ينبغي اتباعه.

أما أن يأتي (غِرٌّ) حمل السلاح، ولم يصل شواطئ العلم فضلًا عن أن يغوص في بحاره، وليست له في الواقع وظروفه وتوازناته كبير خبرة، بل هو لا يرى أبعد من أرنبة أنفه، ثم إذا نصحته أو وجهته قال لك لا يفتي قاعد لمجاهد، فَلَعَمري إن تلك إحدى الدواهي.

وكما قال أحد الإخوة الأفاضل ممن اكتوى بنيران النقد لنشره رأيًا له ينتقد فيه بعض إخوانه، وهذا الفاضل من المجاهدين وليس من القاعدين، فهاجمه كثيرون من السطحيين بتلك العبارة، فكتب يقول:

"هذه العبارة من أكثر العبارات التي أضرت بالإسلام، فقد وكلت أمر الإسلام والجهاد لمجموعة من الشباب، وحرمت حركة الجهاد من الإطار الفكري والسياسي، وحتى الإطار الشرعي العميق، لذلك تحولت حركات الجهاد في كثير من البلدان إلى حركات صبيانية تم اختراقها وآذت المسلمين أكثر مما آذت غيرهم، لذلك يجب أن يفتي أصحاب الفتاوي الشرعية والسياسية والاقتصادية، سواء كانوا قاعدين أو مجاهدين، فالفتوى بحد ذاتها جهاد».

ومع موافقتي لغالب ما قال، إلا أنني أعتقد أن الضرر حصل من سوء فهم هذه العبارة، لا منها نفسها.

عندما يجب كتمان الحق[١]

في عـالم الأفـكار يظـن البعـض أن مجـرد كـون الفكـرة صحيحـة مسـتندة إلى أدلـة تؤيدهـا كافٍ ليقـوم بنشرهـا والترويـج إليهـا، وعندمـا يقـوم بذلـك يواجـه واقعًـا صادمًـا، يجـد فيـه أن عمـوم النـاس ردّوا فكرتـه وهاجموهـا دون تكليـف أنفسـهم مجـرد التفكـير فيهـا، وهـذا يسـتدعي منـا التنبيـه إلى أن (مجـرد رؤيتك الـشيء والفكـرة حقًّـا ليـس كافيًـا لأن تنـشره عـلى عمـوم النـاس).

أما كيف يكون ذلك؟

فـإن هنـاك بعـض الأفـكار والتصـورات انتـشرت لـدى عمـوم النـاس نتيجـة تربيـة خاطئـة، أو نتيجـة تركيـز عـلى ناحيـة معينـة في الفكـر، بحيـث أصبـح نـشر مـا يعارضهـا بشـكل مبـاشر صادمًـا لكثيريـن مـما يدعوهـم لرفـض الفكـرة المطروحـة دون تكليـف أنفسـهم إمعـان النظـر فيهـا.

والـذي يريـد نـشر فكـرة والترويـج لهـا يجـب أن يسـتهدف قَبُـول النـاس لهـا، لا مجـرد أن يطـرح فكرتـه فينبذهـا النـاس، ويعتـبر أنـه قـد أدى مـا عليـه.

ولنضرب أمثلة على لذلك؟

- **في مجال الأفكار التي ترسخت نتيجة تربية فكرية خاطئة:**

يمكـن التمثيـل بمـا نـراه مـن اسـتهجان النـاس لأي رأي فقهـي خـارج عـن المعتمـد في المذاهـب الأربعـة المتبوعـة بحيـث يسـارعون لإنـكاره ورفضـه، وذلـك لأن الكثيريـن تمـت تربيتهـم عـلى أن الحـق في المسـائل الفقهيـة الخلافيـة لا يوجـد خـارج مـا تبنتـه تلـك المذاهـب.

وحتـى لا يُسـاء الفهـم، أقـول: (الغالـب) أن الحـق في المسـائل الفرعيـة الخلافيـة لا يوجـد خـارج تلـك المذاهـب المسـتقرة، ولكـن ذلـك لا ينفـي أن الـرأي الـذي

---

(١) نـشر أصـل هـذا المقـال في موقـع (إشراقـات) بتاريـخ ٢٠١٨/٦/٢٣، وكذلـك عـلى صفحـاتي في الفيسـبوك. إشراقـات: http://ishraqat.info/?p=١٠٩٥٠؟

يوافق الدليل (قد يكون) في قول تبنّاه مذهب من المذاهب المنقرضة، أو قال به بعض علماء السلف (علماء القرون الفاضلة الأولى).

وهذا يدعونا ويوجب علينا عدم التسرع في ردّ الرأي لاستغرابنا له، كما يدعو من يتبنى هذا الرأي أن لا يصدم الناس به قبل أن يمهد له.

- **<u>في مجال التركيز على ناحية معينة في الفكر أو السياسة</u>**

يمكن التمثيل بمسألة حكم (المفاوضات) مع العدو، فقد تمَّ التركيز من الدعاة الإسلاميين منذ زمن طويل على مهاجمة فكرة المفاوضات مع العدو الصهيوني، وكانت تلك المهاجمة صحيحة من ناحية أن المفاوضات التي كانت – وما تزال – مطروحة تفتقر لأدنى مقومات النجاح، وهي أن تكون لدى المفاوض من طرف الفلسطينيين أوراق قوة بين يديه، فالمفاوضات دون أوراق قوة لن توصل إلا إلى التنازلات والدمار، وبالتالي فحكمها هو ضرورة الابتعاد عنها وعدم التلوث بها.

وعندما تتغير الموازين، ويصبح لدينا من أوراق القوة ما نستطيع عبره انتزاع بعض ما نريده عبر المفاوضات، كما حدث في التفاوض في صفقة وفاء الأحرار، يصبح للمفاوضات حكم آخر، لأنها يمكن أن توصلك لتحقيق أمر إيجابي لصالح قضيتك.

ولكن المشكلة التي تبرز هنا هي أن كثيرين ترسخ في أذهانهم رفض فكرة (المفاوضات) كفكرة مجردة، ولم ينتبهوا إلى أن المقصود رفض فكرة (المفاوضات وأنت لا تملك أوراق قوة تستخدمها) وهي حالة مخالفة لحالة (المفاوضات ولديك ما يمكنك الضغط من خلاله).

ولذلك فأن تطرح الفكرة وتقول بجواز (التفاوض مع العدو) سيجعل كثيرين يرفضونها دون التمعن في الاختلاف بين الحالات، مع أنهم لو تمعنوا لوجدوا أن الرسول ﷺ فاوض أعداءه مرارًا عديدة.

وحتى لا يساء الفهم أيضًا أقول: كلامي متعلق بالإطار النظري والفكري للمسألة، أما على أرض الواقع فلا زال شعبنا الفلسطيني لا يملك من أوراق القوة – للأسف – ما يمكنه من انتزاع حقوقه من أعدائه، وإن كان يمكنه – أحيانًا – تحقيق بعض الإنجازات الضيقة والآنية مثل تبادل الأسرى، وعليه فطرح فكرة التفاوض مع العدو في هذه الظروف ليس طرحًا مقبولًا ولا منطقيًّا.

ولأن البعض منا لا يقبل فكرة إلا بدليل يشهد لهذه الفكرة من أقوال السلف الصالح أقول:

لقد فهم سلفنا الصالح هذه الفكرة، فكرة عدم كفاية كون الرأي حقًّا للمبادرة لنشره، وحذرونا من الوقوع في فخّ طرح الرأي قبل نضوج بيئة قابلة له، ومن ذلك:

- ما رواه البخاري في صحيحه عن عليٍّ ﷺ أنه قال: (**حَدِّثُوا النَّاسَ، بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ، اللَّهُ وَرَسُولُهُ**).

  وقد جاء في رواية أخرى (عند البيهقي) أنه قال (**أَيُّهَا النَّاسُ؛ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ**)

  وقد أخرج البخاريُّ هذا القولَ عن عليٍّ ﷺ تحت عنوان (باب من خَصَّ بالعلم قومًا دون قوم، كراهيةَ أن لا يفهموا).

- ما رواه مسلم في صحيحه تحت باب (بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَدِيثِ بِكُلِّ مَا سَمِعَ) عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: (**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ، فَيَسْمَعُهُ مَنْ لَا يَبْلُغُ عَقْلُهُ فَهْمَ ذَلِكَ الْحَدِيثِ، فَيَكُونُ عَلَيْهِ فِتْنَةً**).

- وقد روي عن عروة بن الزبير أيضًا أنه قال: (**مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلْمِ قَطُّ لَمْ يَبْلُغْهُ عَقْلُهُ إِلَّا كَانَ ضَلَالًا عَلَيْهِ**)

ما العمل إذًا؟ هل نترك نشر الفكرة الصحيحة لعدم قبول الناس لها ؟

بالطبع ليس هذا هو المقصود، فنشر الأفكار الصحيحة واجب على أصحابها، ولكنّ حديثنا كله يدور حول كيفية إيصال الفكرة الصحيحة بطريقة لا تدفع الناس لرفضها دون التفكير فيها.

والمطلوب أمران:

الأول: أن يتم نشر الأفكار الصحيحة المستندة إلى أدلة مقبولة عند أهلها الذين يستوعبونها، فالنهي في النصوص التي سقناها كان عن طرح الأفكار المستغربة على من لا تبلغ عقولهم إدراكها؛ إما لقصور في تأهيلهم العقلي أو العلمي، أو لعصبية ترسخت في نفوسهم تمنعهم من تقبل أي فكرة تخالف ما ألفوه.

وتبقى في الأمة فئة واعية لا تردّ فكرة إلا بعد تفحصها، وهؤلاء هم الذين يجوز، بل يجب، طرح الأفكار هذه عليهم، وهؤلاء هم المعوّل عليهم في تحقيق **الأمر الثاني، والذي هو:** تمهيد الأرضية لدى العامة لتقبّل الفكرة التي لم يألفوها قبل عرضها، وهذا التمهيد قد يحتاج فترة طويلة تختلف من حال لأخرى.

لقد ظلمت كثير من الأفكار الجيدة عندما لم يحسن أصحابها اختيار الوقت المناسب لطرحها وعرضها، وذلك لما ظنوا أن مجرد كون فكرتهم صائبة يكفي في دفع الناس لاستيعابها وقَبولها، وفاتهم تأثّر الناس بما ألفوه ونشأوا عليه، وهو التأثر الذي كان العائق الأكبر أمام أنبياء الله تعالى صلوات الله عليهم في نشر دعوتهم، إذ كان الناس يرفضون الاستماع لها لمخالفتها لما وجدوا عليه آباءهم.

لئلا نُسقِطَ القدوات[1]

أثار موضوع الانتقادات التي وجهت لتصريحات (عائض القرني) الأخيرة التي أعلن فيها اعتذاره عن مرحلة (الصحوة الإسلامية) وإيمانه بالإسلام الذي نادى به (محمد بن سلمان) ولي عهد السعودية، أثارت تلك التعليقات الناقدة جدلًا بين أهل العلم والدعوة في الموقف منها.

البعض يرى أنه لم يكن ينبغي نشر هذه الانتقادات لأن نشرها سيؤدي إلى اهتزاز صورة العلماء أمام العامة، وضعف الثقة بهم، وإسقاط القدوات، وحرمان الناس من الاستفادة من علم ذوي العلم منهم.

ويرى آخرون نفس الرأي لمبرر آخر، وهو أن الواجب تجاه هؤلاء، خصوصًا من كانت له سابقة خير وصلاح منهم، هو إحسان الظن بهم، إذ قد تكون تصريحاتهم نابعة عن إكراهٍ مُلجئٍ، وقد أباح الإسلام للمكرَه المُضطر النطقَ بكلمة الكفر، فانتقادُهم وجلدُهم بألسنةِ الناس وأقلامهم فيه ظلم لهم، وتقديمٌ لسوء الظنّ بحقّهم.

ويرى فريق ثالث أن الواجب يقتضي التحذير من هؤلاء، لأنهم في مواقفهم يساهمون في إضلال الناس وصرفهم عن طريق الحق، فيجب فضحهم وكشف زيفهم.

فما الموقف الصحيح من هذه القضية؟

الذي أراه أن نشر أخبار المواقف السلبية لهؤلاء العلماء والدعاة يتضمن عددًا من السلبيات وعددًا آخر من الإيجابيات، وكل فريق من أصحاب الآراء السابقة نظر إلى جانب من هذه السلبيات أو الإيجابيات، ونحن

---

(١) نشر أصل هذا المقال في موقع (إشراقات) بتاريخ ٢٠١٩/٥/١٣، وكذلك على صفحاتي في الفيسبوك. إشراقات: http://ishraqat.info/?p=١٣٠٦٠.

معنيـون بمقاربـة نحـاول مـن خلالهـا تحقيـق الإيجابيـات المنشـودة، مـع التخفيـف – قـدر الإمـكان – مـن السـلبيات الناتجـة.

ولتقريـب الصـورة فلنتخيـل (عمليـة النـشر) هـذه كــ (تنـاول الـدواء) لمعالجـة (مـرض) مـا، إذ – كـما نعلـم – لا يـكاد دواءٌ يخلـو مـن آثـار جانبيـة سـلبية ترافقـه، ولكـن الـضرورة تفـرض أحيانًـا تحمـل هـذه الآثـار لعـلاج المـرض، ويمكننـا مـن خـلال هـذه الصـورة المتخيلـة لمقارنـة عمليـة (النـشر) مـع (تنـاول الـدواء) أن نذكـر في نقـاط أهـم الملاحظـات التـي قـد تسـاعد عـلى اسـتجلاب الإيجابيـات المنشـودة وتحقيـق المصالـح المرجـوة، وتقليـل السـلبيات التـي نخشـاها، وإبعـاد المفاسـد التـي نخافهـا.

أولًا: <u>ليـس بالـضرورة أن نتنـاول الـدواء كلـما أصابنـا الألم، إذ لـو كان بالإمـكان تجـاوز الوجـع والمـرض دون الاضطـرار لاسـتخدام الـدواء فهـذا هـو الخيـار السـليم.</u>

وهكـذا؛ فليـس بالـضرورة أن نلاحـق كل موقـف سـلبي سـقط فيـه عـالم أو داعيـة في هفـوة أو زلّـة، فبعـض الـزلات لم تنتـشر بـين النـاس، ولم يعرفوهـا، ومسـارعتنا لنـشر انتقـاد لهـا سـيتضمن نـشر خبرهـا لكثيريـن ممـن لم يكونـوا قـد سـمعوا بـه، بينـما في بعـض الحـالات، كحالـة (القـرني) في تصريحاتـه الأخيرة، والتـي كانـت في برامـج تلفزيونيـة منتـشرة، واحتفـى بهـا أعـداء الإسـلاميين وتناقلوهـا واعتبروهـا أمـرًا جديـرًا بالإشـادة بـه، لا يمكـن لأهـل العلـم والدعـوة أن يسـكتوا عـن بيـان الموقـف الصحيـح مـن مثـل هكـذا تصريحـات ومواقـف.

ثانيًا: <u>إذا تسـبب تنـاول دواء مـا بآثـار جانبيـة سـلبية، مثـل أن يسـبب نقـص نـوع مـن أنـواع الفيتامينـات في الجسـم، وكنـا نسـتطيع عـلاج هـذه الآثـار، عـبر تعويـض هـذا النقـص في الفيتامينـات، فـإن ذلـك واجـب لا ينبغـي تركـه.</u>

وهكـذا، فـلا شـكّ أن نـشر مثـل هـذه المواقـف السـلبية لهـؤلاء العلـماء سـيؤثر

على صورة أهل العلم عند الناس، وقد يجعلهم ينفرون من كل العلماء، وهذا تأثير جانبي سلبي لا يمكن إنكاره، ولكن علاجه ممكن، وذلك عبر نشر المواقف الإيجابية للعلماء الربانيين حتى تكتمل الصورة، مع بيان أن العلماء الربانيين الصادحين بالحق كثرة متوافرة، وإن غاب صوتها بسبب طغيان الطغاة، ولذلك فينبغي لكل كاتب ينتقد سلبيات (المتخاذلين) أن يذكّر في أثناء كلامه بالصورة الأخرى للعلماء لئلا ينفر الناس من العلماء ككل، بل إن التركيز على مواقف الثبات للعلماء الربانيين يجب أن يأخذ مساحة أكبر، لأن الجهة الوحيدة التي تنشر مواقفهم هي من يؤمن برسالتهم من أهل العلم والدعوة، بينما تعمل وسائل إعلام السلطة في الدول كلها على محاربة أخبارهم والتعتيم عليها.

ثالثًا: ولئلا نظلم من قد يكون صالحًا في نفسه، ولكنه مكرَهٌ مضطرٌّ لما قام به، فقد يكون من الجدير الإشارة إلى احتمالية التعرض للإكراه، والتذكير بسيوف الطغاة المسلطة على الدعاة، وإن كان ذلك لا يجدي في الحالات التي يكون من الواضح فيها أن عامل الإكراه مستبعدٌ، كحالة المدعو (وسيم يوسف) في الإمارات.

رابعًا: ولأننا لسنا نملك الحكم على ما في قلوب الناس، ولأننا لا يجوز لنا نصدر عليهم الأحكام بدخول الجنة أو النار، إذ علم ذلك عند الله تعالى وحده، فالواجب لمن ينتقد تصرفات هؤلاء أن لا يصدر عليهم الأحكام النهائية بدخول النار أو سوء الخاتمة، بل يدعو لهم بالهداية والصلاح، إذ صلاحهم ورجوعهم إلى الحق فيه خير للأمة والناس.

الذي أراه أننا لو أخذنا بهذه الضوابط عندما يكون هناك موقف (سلبي) من أحد الدعاة أو العلماء فسنحقق الجزء الأكبر من الإيجابيات التي نريد، مع تجنب أكبر قدر من السلبيات التي نخشى.

الحرب الناعمة

الأقويـاء في هـذا العـالم يعملـون عـلى ترويـج رؤاهـم وأفكارَهـم عـبر أدوات عديـدة، صـار مـن أهمهـا اسـتخدام الفـنّ في ذلـك.

(الأتـراك) أنتجـوا عـدة مسلسـلات تاريخيـة، منهـا مسلسـل (قيامـة أرطغـرل)، نجحـوا مـن خلالهـا في اسـتقطاب المتابعـين في الوطـن العـربي وترويـج فكـرة أن الدولـة العثمانيـة كانـت امبراطوريـة عظيمـة تدافـع عـن الإسـلام وفتحـت أراض شاسـعة، وتقريـب رموزهـا التاريخيـة للنـاس كنـماذج بطوليـة.

وفي المقابـل سـتعرض (مـصر) بدعـم وتمويـل مـن (الإمـارات) و(السـعودية) مسلسـلًا كلفهـم إنتاجـه نحـو ٤٠ مليـون دولار أمريـكي، اسـمه (ممالـك النـار) يتنـاول الأحـداث التـي شـهدتها المنطقـة العربيـة والتـي أدت إلى سـيطرة السـلطان العثـماني (سـليم الأول) عـلى الشـام ومـصر، وتظهـر العثمانيـين كـ (غـزاة محتلـين) يسـتحلون الدمـاء والأمـوال، ويظهـر السـلطان المملـوكي الأخـير (طومـان بـاي) كبطـل قـاوم هـذا الاحتـلال وقـدّم روحـه ثمنًـا لذلـك.

لقـد أصبـح الفـن، وهـو مـن أدوات المواجهـة الناعمـة، واحـدًا مـن الأسـلحة المهمـة في المواجهـات السياسـية بـين الـدول، وكل طـرف منهـا يقـدم التاريـخ مـن وجهـة نظـره، لاسـتقطاب المؤيديـن، وترويـج صـورة مشرقـة لـه.

السؤال الذي يطرح نفسه بقوة:

أيـن الحـركات الإسـلامية وعمـوم التيـار الإسـلامي عـن اسـتخدام (الفـنّ) في هـذا الـصراع الحضاري؟

ألا يـدرك حملـة دعـوة الإسـلام أن غيابهـم عـن هـذه السـاحة مـن سـاحات المواجهـة سيحرمهم مـن عـرض وجهـة نظرهـم في القضايـا الفكريـة والسياسـية والتاريخيـة التـي تعالجهـا تلـك الأعـمال الفنيـة؟

قـد يقـول البعـض: وأيـن للإسـلاميين القـدرات التـي تملكهـا الـدول؟ وهـل

يستطيعون مجاراتها، وقد ذكرتَ لنا أن المسلسل المصري الإماراتي تكلف (٤٠) مليون دولار؟

فأقول: ليس مطلوبًا من الإسلاميين أن يدفعوا من ميزانياتهم الهزيلة لإنتاج أعمال فنية، إذ يمكنهم تشجيع شركات إنتاج عاملة من تلك التي تسعى للربح، وتقتنص الفرص إن رأتها سانحة، وذلك عبر تقديم أفكار لأعمال تقنع تلك الشركات بأنها ستستفيد منها ماديًّا، وما نموذج مسلسل (عمر بن الخطاب) عنا ببعيد.

وقد يقول البعض: إن الإسلاميين أنتجوا أعمالًا درامية ناجحة، ويضربون لذلك أمثلة.

فأقول: أغلب الأعمال التي قدمها الإسلاميون نجحت في أوساطهم فقط، ولأنهم أحبوا مضامينها فتغاضوا عن سوء الأداء الدرامي فيها، ونحن لسنا بحاجة لمادة فنية نقدمها لمن هم معنا وفي صفنا من المقتنعين بالفكر الإسلامي، والذين تربوا عليه، فهؤلاء لا يغير ولاءهم، في الغالب، مسلسل أو فيلم، ولكن المطلوب خطاب إعلامي فني موجه للمستقلين ولمؤيدي الفكرة الإسلامية المنطلقين من عاطفة بحتة، وهؤلاء هم الذين تؤثر فيهم كثيرًا مثل تلك الأعمال، وهم يبحثون عن الجميل والممتع فيها بشكل أساسي، ويأتي انتباههم المباشر للمضمون ثانويًّا عند الاختيار، وإن كانوا يتأثرون به بشدة إذ تنزرع الأفكار التي تروجها تلك الأعمال في عقولهم الباطنة.

ماذا على الإسلاميين لو شكلوا هيئة غير حزبية تضم عددًا من الفنانين الملتزمين والأدباء الواعين، والمفكرين المنفتحين، وتكون مهمتها فقط التفكير في أعمال فنية ودرامية للترويج للفكرة الإسلامية، والبحث عمّن يتبنى إخراجها لأرض الواقع.

وأزيد على ذلك نقطة في موضوع التمويل:

لقد كان الرسول ﷺ يعطي للمؤلفة قلوبهم من الزكاة والغنائم، وهم قوم كان لهم تأثير في مجتمعهم بسبب مكانتهم الاجتماعية، وقد كانوا في تلك الأيام من شيوخ القبائل، وهذه الأيام فإن الأدباء والفنانين ممن لهم تأثير في مجتمعاتهم، ليس بسبب مكانتهم الاجتماعية، بل بسبب ما يقدمونه من أعمال فنية وأدبية، أفلا يتسع الفقه الإسلامي لاعتبار استقطاب هؤلاء من باب تأليف القلوب لتقريب متابعي هؤلاء من الفكرة الإسلامية.

الصديق الجاهل

إحدى مشكلات الحركة الإسلامية على فضاءات وسائل التواصل الاجتماعي أن بعض النشطاء من المتعصبين جهلًا والذين يتعاملون مع منشورات المخالفين بطريقة فجة فظة ليس فيها أدب ولا خلق، بل هي استنساخ عما يفعله الذباب الإلكتروني لبعض الجهات والدول، هؤلاء يظهرون للناس – من كثرة مشاركاتهم وسرعة ردودهم – على أنهم الممثلون لهذا التيار الفكري النقي، بينما أغلبهم - فيما نعلم – لم يكن يومًا قد التحق بصفوف الحركة أو تربى في محاضنها، بل هم مؤيدون متعاطفون في أحسن أحوالهم، وفي نفس الوقت فإن الذين يعرفون الحقائق وأن فلانًا سبق وانتمى أو لم يسبق له الانتماء ليس بوسعهم إلا الصمت مقهورين، يسوؤهم أن يتحدث هؤلاء باسمهم ولا يملكون أن يقولوا لهم اصمتوا.

فيا رب رحمتك، أرى أن الكورونا أهون عليَّ من هؤلاء.

الخطأ المغفور

(لو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه، وبدّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا أحد).

هذه العبارة قالها الإمام الذهبي في ترجمة الإمام (محمد بن نصر المروزي) الذي وصفه ابن حبان بأنه «كان أحد الأئمة في الدنيا ممن جمع وصنف وكان أعلم أهل زمانه بالاختلاف وأكثرهم صيانة في العلم»، ووصفه الحاكم النيسابوري بـ «الفقيه العابد العامل إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة»، وقال عنه الخطيب البغدادي: «وكان من أعلم الناس باختلاف الصحابة، ومن بعدهم في الأحكام»، أما ابن الصلاح فقد وصفه بأنه «أحد من استبحر في علمي الفقه والحديث، وجمع بين فضيلتي الإمامة والديانة»[1].

(محمد بن نصر) هذا رحمه الله، كان له قول في بعض مسائل العقيدة خالف فيه عددًا من علماء عصره، حتى قال الحافظ (ابن مندة) عنه: "وهجره على ذلك علماء وقته، وخالفه أئمة خراسان والعراق".

وعندما نقل الذهبي – في سير أعلام النبلاء[2] – قول ابن (مندة) عن (ابن نصر) عقب عليه بالقول: "الخوض في ذلك لا يجوز" يعني ما خاض به (محمد بن نصر)، ولكنه عقّب على ذلك بقوله: "ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قمنا عليه، وبدّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي

---

(١) وردت هذه الأقوال في: الحاكم (ت ٤٠٥ هـ)، تاريخ نيسابور، ص٥٨، ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ)، الثقات، ٩/ ١٥٤، الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، تاريخ بغداد (تحقيق د. بشار)، ٤/ ٥٠٨، ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ)، طبقات الفقهاء الشافعية، ١/ ٢٧٧.

(٢) الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، سير أعلام النبلاء (ط الرسالة)، ١٤/ ٣٩.

الخلـق إلى الحـق، وهـو أرحـم الراحمـين، فنعـوذ باللـه مـن الهـوى والفظاظـة».

الفكرة:

أنـه لا يخلـو عـالم مـن زلـة، ولا قائـد مـن الوقـوع في الخطـأ، ولا داعيـة مـن هفـوة، فهـي طبيعـة البـشر الذيـن مـن صفتهـم النقـص وعـدم الكـمال، ولا حـرج في انتقـاد زلـة العـالم أو القائـد أو الداعيـة وبيـان خطئـه مـع التـزام الأدب وحسـن الخلـق، وعـدم نسـيان الجوانـب الإيجابيـة لذلـك الشـخص، وإلا – فكـما قـال الذهبـي – فلـن يسـلم لنـا أحـد مـن أهـل العلـم والفضـل، ولنتعلم مـن الأدب الـذي أدبنا به سـيدنا رسـول الله ﷺ الـذي عندما سـمع بعض أصحابه وقـد لعن صحابيًّا كان قد جلده النبي ﷺ لشربه الخمـر - لاحظوا: لشربه الخمر وليـس لاجتهاده في مسـألة علمية أخطـأ فيها – فقال: (اللهم العنـه، ما أكثر ما يؤتى بـه)، فوجههـم الرسـول ﷺ للنظـر إلى الجانـب الإيجـابي لذلـك العـاصي، فقـال: (**لا تلعنـوه، فواللـه إنـه يحـب اللـه ورسـوله**).

الله سددنا واهدنا واسترنا وحسّن أخلاقنا.

الإسلاميون ومزالق المشاركة السياسية[1]

اختلافُ النهار والليل يُنسي اذكرا ليَ الصِّبا وأيّامَ أُنسي

يبدو أن ما قاله (أحمد شوقي) في بيته السالف ينطبق على ممارسة (الإسلاميين) لنشاطهم السياسي، ولذا كان الواجب علينا أن نديم التذكير بالأساسيات لئلا ينسينا اختلاف الليل والنهار ما الذي نريده ونسعى لتحقيقه.

لقد أصبحت - في بعض الأحيان - أشكُّ في نفسي وفي فهمي لما تريده الحركة الإسلامية من نشاطاتها، فقد نشأنا وتربينا على شيء، وما ألحظه في كثير من المواقع يخالف ما كنت - ولا زلت - أعتبره من الأساسيات والمبادئ.

الذي نشأنا عليه أن هدف الحركة الإسلامية هو (استئناف الحياة الإسلامية) ويكون ذلك عبر عمل لا يعرف الوهن والكلل سعيًا من البدء بإنشاء الفرد المسلم الذي يحمل هذه الفكرة وصولاً إلى إعادة الخلافة الإسلامية واستعادة ريادة العالم، والأصل أن تكون كل النشاطات التي تمارسها الحركة خلال مسيرتها خادمة لهذا الهدف ساعية لتحقيقه، وينبغي الانتباه إلى أن بعض النشاطات تساهم في الاقتراب من الهدف إن مورست بمستوًى معين، ولكن ممارستها بعشوائية وبلا انضباط تعيق ذلك السعي، فهي كالدواء للمريض، إن أُخِذ وفق الجرعات المطلوبة أفاد، وإلا فضرره كبير.

وهنا نأتي للمشاركة في الأنظمة السياسية الحاكمة في بلادنا عبر البرلمانات والحكومات، لنرى هل ساهمت في تقريبنا من الهدف أم أنها أضاعته من خارطة طريقنا؟

---

(١) نشر أصل هذا المقال في موقع (إشراقات) بتاريخ ٢٨/ ١٢/ ٢٠٢٠، وكذلك على صفحاتي في الفيسبوك، ونشرته منصة (صوتكم) على الفيسبوك بتاريخ ٨/ ١/ ٢٠٢١. إشراقات: http://ishraqat.info/?p=١٥٥٩٢

وحتـى نسـتوعب الأمـر عـلى حقيقتـه يجـب أن نكـون واعـين لأمريـن اثنـين؛ أولهـما طبيعـة الأنظمـة التـي نشـارك فيهـا، والثـاني الهـدف مـن المشـاركة.

بالنسبة لـ (**طبيعـة الأنظمـة**) فالذي أعلمه أن النقاشات الفكرية والفقهية التي كانت تدور في أروقة الحركة الإسلامية بين المؤيدين والمعارضين للمشاركة السياسية في مؤسسـات تلك الـدول كانـت تحـاول الإجابـة – فقهيًّا وفكريًّـا – عـلى سـؤال يتعلق بـ (حكم المشـاركة في أنظمـة الحكـم الجاهلية)، مع التنبيـه إلى أن وصـف أي نظـام حكـم بأنه (نظـام جاهلي) لا يسـتلزم تكفير القائمين عليـه كأشـخاص، بـل هـو وصـف لكـون ذلـك الحكـم لا يطبـق منهـج الإسلام، وذلـك كـما وصـف الرسـول ﷺ أبـا ذر رضي الله عنه بأنـه (**امـرُؤ فيـه جاهليـة**) بسـبب خطابـه العنـصري لبـلال بـن رباح حين قـال له يا ابن السـوداء.

فيجـب أن لا يغيـب عنـا أنهـا أنظمـة جاهليـة، هـذا مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى فـإن أنظمـة الحكـم هـذه – التـي تسـيطر عـلى بلادنـا – ليسـت أنظمـة ديمقراطيـة حقًّـا، إذ قد يكـون النظام (جاهليًّـا)، ولكنه (ديمقراطـي) يقبل الاحتكام لاختيـارات النـاس، أما أنظمتنا فهي تجمع إلى جاهليتهـا الديكتاتورية، فلا تقبل من الآراء إلا مـا يوافـق أهواءهـا، ولـو كان رأي (٩٩ ٪) مـن أبنـاء شـعبها مخالفًـا لهـا، وهـي مسـتعدّة لمصادرة حريـة التعبـير، ومنـع وصـول مخالفيهـا إلى سـدّة الحكـم ولـو اضطـرت لسـفك دمـاء أبنـاء شـعبها.

إنَّ فهـم هـذه الطبيعـة لهـذه الأنظمـة مهـم لمـن يريـدون المشـاركة فيهـا ليدركـوا الحـدود المسـموح لهـم بالتحـرك فيهـا في ظـل تلـك المشـاركة.

أمـا بالنسـبة لـ (**الهـدف مـن المشـاركة**) فهـو يتحـدد بناء على فهمنا لطبيعة الأنظمة، فـإذا كنـا نـدرك أن هـذه الأنظمة لـن تسـمح مطلقًـا لمخالفيها بالوصول إلى سدة الحكم، ولن تسمح بتغيير الدستور بما يتوافق مع برامج وطموحات الإسلاميين، ولـو اضطرت لسـفك دمائهم كما فعلت ولا تزال، فإن من العبث والسذاجة أن نظن أن مشاركتنا يمكن أن توصلنا لتحقيق

هدفنا المتمثل في (استئناف الحياة في ظل نظام إسلامي وخلافة راشدة)؛ لأن من يسمح لك من تلك الأنظمة بالمشاركة يضع محددات تعيق سعيك، وهو يريد من مشاركتك معه تدجينك واستئناسك، وعندما يشعر أنك ستشكل خطرًا عليه بتغيير قواعد اللعبة ومحاسبته على جرائمه سيقلب لك ظهر المجنّ ويكشر عن أنيابه، وستجد الزنازين وأعواد المشانق جاهزة لاستقبالك.

بالطبع فإن البعض سيقول: ما دام الأمر كذلك فما هي فائدة المشاركة؟ وسيزعمون أن الأفضل عدمها لأنها لن تحقق الهدف النهائي الذي نريده. والذي أزعمه أن كلامهم ليس صحيحًا، فالمشاركة قد تكون لازمة في بعض الأحيان، ولكن المهم فيها أن نحدد ماذا ينبغي أن يكون الهدف من المشاركة؟ وهل يمكن أن تكون المشاركة ذات فائدة؟

ولْنَعُد إلى مثال الدواء للمريض، فهناك بعض الأدوية قد يحتاجها المريض وهي لا تعالج مرضه بشكل مباشر، فقد يحتاج دواء يعزز مناعة جسمه، مع أن مرضه لا يتعلق بالمناعة مباشرة، ولكن تعزيز مناعة جسمه يساعده في مقاومة المرض، وهكذا فمع الإدراك بأن المشاركة لن تحقق الهدف النهائي فإنها في بعض الحالات قد تساعد في تحقيقه، ذلك أن المشاركة تحقق فوائد من نوع: توفير حصانة لبعض رموز الحركة ليتحركوا بين الناس وينشروا فكرهم، وتوفر منبرًا للحركة لتعريف الناس بها، وقد تساهم المشاركة في تقليل الباطل والفساد الذي يسعى النظام لنشره بين الناس، وقد تساهم في منع النظام من استئصال الحركة، أو تصعب عليه ذلك، وهناك العديد من الفوائد، ولكنها كلها فوائد فرعية وليست أساسية، ولكنها - كما أسلفنا - كالدواء للمريض، إن تناوله وفق خطة علاجية أفاده، وإلا كان سببًا لقتله.

مشكلتنا التي نعاني منها - فيما ألاحظ - أن كثيرين من أبناء الحركة الذين يخوضون غمار السياسة نسوا أو جهلوا أو غابت عنهم النقطتان الرئيستان

للمشـاركة، وهـي فهـم طبيعـة الأنظمـة، وتحديـد الهـدف مـن المشـاركة، فصـاروا يظنـون أنهـم لاعبـون رئيسـون في لعبـة السياسـة في دولهـم، وأن لهـم تأثـيرًا قـد يقودهـم لتحقيـق أهدافهـم، أو أن أهدافهـم - وهـذه معضلـة كـبرى - قـد غابـت عنهـم وصـار العمـل تحـت سـقف النظـام الـذي يعيشـون في ظلـه هـو غايـة طموحهـم، وتناسـوا أنهـم كانـوا يسـعون لريـادة العـالم لا لإصـلاحٍ هنـا أو هنـاك.

نحـن بحاجـة إلى وقفـة لمراجعـة الـذات، ونحـن بحاجـة إلى أن يعـلي أصحـاب الفكـر والفقـه أصواتهـم لـيردوا التائهـين عـن الـصراط ويذكروهـم إلى مـاذا يسـعون، ومـا هـي طريقتهـم لتحقيـق أهدافهـم، حتـى لا تصبـح (الوسـائل) التـي كنـا نسـتخدمها لتقريبنـا مـن الهـدف أهدافًـا بحـدّ ذاتهـا، وإلا فهـذا فـراق بـين منهجـين.

الطاعة في المَكْرَه[1]

عندما جاءت الأحاديث النبوية الشريفة آمرةً بالطاعة لأولي الأمر ركزت على أن تكون هذه الطاعة في «العسر واليسر» وفي «المنشط والمكره»، وذلك أن أغلب القضايا التي وجدت لأجلها الإمارة - إن لم يكن كلها - هو القضايا الخلافية التي تتباين فيها الاجتهادات.

فمواضع الإجماع والاتفاق لا تحتاج إلى قيادة أو إمارة لتنفيذها، لأن الإنسان يندفع لتنفيذها – غالبًا – بإرادته الحرة ووفق قناعاته، أما المشكلة والتي لا تحل إلا بوجود الإمارة الرافعة للخلاف فهي في المواضيع الاجتهادية التي تختلف نظرات الناس لها، وهذه المواضيع الاجتهادية يميل الناس فيها إلى التشبث بما يرونه صوابًا، فالنزول عن الرأي الشخصي و القناعة الذاتية لأجل آراء الآخرين وقناعاتهم صعب على النفس، ولذلك جاءت الأحاديث الشريفة حاثَّةً على الطاعة في هذه المواضع الخلافية التي يشعر فيها المرء بـ «عُسر» الطاعة، وأنها تحتاج أن « يُكرِه» نفسه عليها.

لو تخيلنا أن الواحد منا لا يريد أن يطيع إلا فيما هو مقتنع به، فما فائدة وجود التنظيمات والمؤسسات؟! وما فائدة وجود الأمراء ومجالس الشورى؟!

لم يأت التصريح من النبي ﷺ بعصيان الأمير إلا في حالة واحدة، وهي أن يأمر بمعصية، وليست أي معصية، بل أن يأمر بمعصية ظاهرة ليست أمرًا اجتهاديًا خلافيًا، ولذلك كانت القاعدة الأصولية تقول أن رأي الإمام يرفع الخلاف فيما ليس فيه نص وفيما مجاله الاجتهاد، ومعنى رفعه للخلاف انه يجعل الحكم واحدًا ملزمًا للجميع، فلا يسوغ معه – أي رأي الإمام – وقياسًا عليه رأي التنظيم عند انعدام الإمام، لا يسوغ معه أن يطبق المرء رأيه الشخصي أو قناعته الذاتية.

---

(١) نشرت هذه الخاطرة في مدونتي الشخصية بتاريخ (٣٠/ ٦/ ٢٠١٠)
مدونتي: http://easajabary.blogspot.com/٢٠١٠/٠٦/blog-post_٣٠.html

المجتمع المثالي ليس ملائكيًا[(١)]

البعض يظن أن المجتمع المثالي الذي نسعى إليه يجب أن يكون خاليًا من الأخطاء، فكأن كل من فيه ملائكة معصومون، ولعل هذه الفكرة الخاطئة نتجت عن أسلوب التربية الفكرية والثقافية التي لجأ إليها مربونا، ليس في هذا العصر فقط، بل منذ قديم الزمان، وذلك في الصورة التي نقلوها لنا عن مجتمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم.

لقد دأب كثير من العلماء والمربين عندما ينقلون صورة المجتمع الذي عاش فيه الرسول الكريم ﷺ وصحابته الأطهار رضي الله عنهم على نقل الجانب المشرق من ذلك المجتمع مع إهمال كلي للسلبيات التي كانت موجودة لدى بعض أفراده، وحتى هذه السلبيات عندما كانت تُذكَر كان يصحبها تبرير يخرجها من الإطار السلبي كليًا، وفي كثير من الأحيان يكون التبرير متكلَّفًا بشكل ظاهر لأولي الألباب، نعم لقد كان مجتمع الصحابة مجتمعًا مثاليًا بكل ما في الكلمة من معنى، وكان مجتمعًا ارتقى فيه الناس إلى مستويات لن يصلوا إلى مثلها مطلقًا كمجتمع، وقد جعله الله كذلك وأعانهم بتوفيقه على الوصول إلى هذه المراقي العليا ليوجِد لنا على الأرض نموذجًا نسعى للسير على نهجه، ومجتمعًا نعمل على الاقتداء به.

ولكن هذه «المثالية» في ذلك المجتمع لم يكن من عناصرها أنه مجتمعٌ خالٍ من الأخطاء أو المخطئين، لقد كانت ميزة ذلك المجتمع المبارك أن نسبة الأخطاء أو المخطئين فيه كانت قليلة، ولكنها - مع ذلك - كانت موجودة، وإلا لما كان مجتمعًا بشريًا، فالبشر من طبيعتهم أنهم يخطئون.

---

(١) كُتبت هذه الخاطرة في سجن النقب، قسم ب٧، غرفة ٢٦، بتاريخ (١٣/ ٦/ ٢٠٠٩)، ونشرت على مدونتي بتاؤيخ (١٥/ ٧/ ٢٠١٠).

مدونتي: http://easajabary.blogspot.com/٢٠١٠/٠٧/blog-post_١٥.html

وكان مما يميز ذلك المجتمع كذلك أن كثيرًا من المخطئين الذين كانوا فيه كانوا مثاليين في تعاطيهم مع الخطأ الذي يقعون فيه، فكانوا سريعي الأوبة إلى الصواب.

ومع ذلك كان في ذلك المجتمع مخطئون مصرون على أخطائهم، كما في كل مجتمع، وإن كانوا - كما أسلفت - قلة قليلة.

انظر معي إلى قصص مشهورة للعصاة في ذلك المجتمع، وأنا عندما أتحدث عن هؤلاء لا أتحدث عن فئة المنافقين التي كانت موجودة تبطن الكفر وتظهر الإيمان، ولكني أتحدث عن مسلمين مؤمنين، كان منهم ماعز والغامدية[1]، وكلاهما وقع في خطيئة الزنا وهو محصَن، وهي فاحشة كبيرة، ولكن مثاليتهما كانت متمثلة في التوبة وإصرارهما على التطهر من الخطيئة في الدنيا خوفًا من عقاب الآخرة.

ولكن في المقابل كان في ذلك المجتمع تلك المرأة التي لاعَنَها زوجها في الزنا، وكانت قد زنت، ولما جاء دورها لتشهد أنه من الكاذبين وأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، وخوَّفها الصحابة من أن تؤدي هذه الشهادة إن كانت قد زنت فتنال غضب الله، ترددت، ثم كان خوف «الفضيحة» عندها أكبر من خوفها من غضب الله، وسمعوها تقول: «**لا أفضح قومي اليوم**"، وحلفت على براءتها وهي كاذبة[2]، وهذه تختلف عن ماعز والغامدية في أنها لم تبادر للتطهر من الذنب.

وكان في ذلك المجتمع تلك المرأة المخزومية التي سرقت وقطع رسول الله ﷺ يدها، وقد جاء في بعض الروايات أنها – بعد ذلك – تابت وحسنت

---

(١) حديث ماعز مروي في عدة كتب، منها: صحيح مسلم، ح ١٦٩٥، سنن أبي داود، ح ٤٤١٩، سنن الترمذي، ح ١٤٢٨، وهو في صحيح البخاري، ح ٦٨٢٤ مختصرًا. أما حديث الغامدية فهو في عدة كتب أيضًا منها: صحيح مسلم، ح ١٦٩٥.

(٢) قصتها في صحيح البخاري، ح ٤٧٤٧.

توبتها[١].

وكان في ذلك المجتمع أولئك الذين خاضوا في عرض السيدة عائشة رضي الله عنه، وأقيم عليهم حدُّ القذف، وهؤلاء الذين جُلِدوا الحدّ كانوا - ثلاثتَهم - من المؤمنين وليس فيهم منافق، فقد كانوا: حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي كان يقول له: « اهجهم وجبريل معك»[٢]، وكان منهم مسطح بن أثاثة، وهو من أهل بدر، وما أدراك ما أهل بدر، قال الله لهم: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، وكان منهم حمنة بنت جحش، أخت أم المؤمنين زينب رضي الله عنه، وابنة عمة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد وقعوا ثلاثتهم في خطيئته القذف.

وكان في ذلك المجتمع الذين هربوا من المعركة في «أحد»: فقال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾[آل عمران: ١٥٥]، ثم منّ الله عليهم بالعفو بعدها.

وكان منهم من وصفهم الله بأنهم ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾[التوبة: ١٠٢].

وكان منهم الصحابي البدري الذي كان كثيرًا ما يؤتى به سكرانًا فيجلده الرسول صلى الله عليه وسلم الحدّ، ثم لما لعنه أحدهم قال له الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: (**لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله**)[٣].

هذه نماذج، ويوجد غيرها، لرجال ونساء كانوا من الصحابة، ومع ذلك فلم يكونوا معصومين، بل كانوا يقارفون الأخطاء، وكما أسلفت فإن عظمتهم

(١) قصتها في صحيح البخاري، ح ٣٤٧٥، ح ٣٧٣٣، ح ٦٧٨٨، صحيح مسلم، ح ١٦٨٨، وذكرت توبتها في رواية صحيح مسلم.

(٢) صحيح البخاري، ح ٣٠٤١.

(٣))) رواه البخاري، ح٦٧٨٠، وغيره، واللفظ هذا عند البزار في مسنده، ح٢٦٩.

كانـت في أن أغلبهـم كانـوا ذوي حساسـية للذنـب، فـإذا قارفـوه سـارعوا إلى التوبـة، وكان لديهـم مـن الحسـنات مـا يمحـو تلـك الذنـوب التـي لا يـكاد يخلـو منهـا بـشر، وعظمـة المجتمـع كمجتمـع كانـت أن نسـبة العصـاة فيـه كانـت قليلـة.

المشـكلة التربويـة التـي نعـاني منهـا أن البعـض عندنـا يـرى أن المجتمـع المثـالي يجـب أن يكـون خاليًـا مـن الأخطـاء، ويفـترض أن مجتمعنـا - مجتمـع الحركـة الإسـلامية - كذلـك، ثـم عندمـا يـرى بعـد احتكاكـه بالنـاس أن مجتمعنـا لا يخلو مـن هـذه الأخطـاء يصـاب بصدمـة تفقـده الثقـة بهـذا المجتمـع لافتراضـه انـه فقـد المثاليـة التـي يتصـف بهـا، نعـم إن مجتمعنـا مجتمـع مثـالي، بـكل مـا في الكلمـة مـن معنـى، ولكنـه ليـس مجتمعًـا ملائكيًـا، هـذه حقيقـة يجـب أن ندركهـا، ونـربي عليهـا عناصرنـا، ليعرفـوا كيـف يتعاملـون مـع الأخطـاء التـي يقعـون فيهـا أو يواجهونهـا لـدى الآخريـن.

والحمد لله أولاً وآخرًا.

ليس كالميت بين يدي الغاسل ... ولكن[1]

كثيراً ما يستخدم علماء التربية والسلوك المسلمون عبارة يقولون فيها: «على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل»، وهم يستخدمون هذه العبارة للدلالة على المبالغة في الطاعة المطلوبة من المريد أو التلميذ تجاه شيخه وأستاذه ومرشده.

البعض يحتجون على هذا العبارة، ويزعمون أنها تخالف أصول الشرع، تلك الأصول التي قررت أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهم يفترضون أن هذا النوع من التربية يفترض فيه أن يطيع المريد شيخه حتى لو أمره بمعصية، والذين يقفون هذا الموقف ينطلقون من نظر ظاهري بحت ومن رؤية مداها قصير، وذلك لأمرين اثنين، هما:

أولهما: أنهم لا ينتبهون إلى أن هذه العبارة سيقت للمبالغة في الطاعة, وليس المقصود منها حقيقتها، ولغة العرب تحوي أشياء من هذا القبيل، يفهم منها السامع أن المقصود ليس حرفية اللفظ وإنما الإشارات التي يتضمنها، ولعل من أبرز ما يدل على أن حقيقة اللفظ لدى علماء التربية والسلوك الذين يستخدمون هذا العبارة غير مراد هو أنهم أنفسهم، والمقصود هنا العلماء الربانيون، تكلموا بعبارات تقيد إطلاق هذه العبارة، منها مثلاً قول أبي سليمان الداراني الذي يرويه عنه الجنيد، وهو: "رُبَّمَا يقع فِي قلبي النكتة من نكت الْقَوْم أياما فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة"[2]، وقول الشافعي، رحمه الله تعالى: "**إذا رأيتم**

---

(١) كتبت هذه الخاطرة في سجن النقب، بتاريخ ١/ ١/ ٢٠١٠ م، ونشرت على مدونتي بتاريخ (٣٠/ ٧/ ٢٠١٠ م).

مدونتي: https://easajabary.blogspot.com/٢٠١٠/٠٧/blog-post_٣٠.html

(٢) الرسالة القشيرية، ١/ ٦١، ومن معاني (النكتة) - كما جاء في المعجم الوسيط، ٢/ ٩٥٠ -: «الفكرة اللطيفة المؤثرة فِي النَّفس وَالْمَسْأَلَة العلمية الدقيقة يتَوَصَّل إِلَيْهَا بدقة وإنعام فكر».

الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة"[1].

الأمر الثاني: أنهم ينسون أو يتناسون أن علماء التربية هؤلاء وضعوا شروطًا للمرشد والشيخ الذي يجوز للمريد أن يتتلمذ على يديه، ومن أهم هذه الشروط تمتعه بالعلم والتقوى، وهما مكوّنان لا يسمحان لمن اتصف بهما أن يأمر بشيء يخالف شرع الله.

ومع ذلك، ولئلا تفهم العبارة فهمًا سقيمًا، أو يُساءَ استخدامها من قبل أناس يفهمونها على حرفيتها، لا على مدلولاتها المجازية المقصودة، أو من أناس يلجؤون للسلوك على أيدي شيوخ يفتقدون العلم أو التقوى أو كلا الأمرين، فإني أرى أن نستخدم العبارة التالية: «**على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالمريض العاقل بين يدي الطبيب الخبير الذي يثق به وبعلمه**"، ويمكن أن نزيد فيها فنقول: "**كالابن المريض العاقل بين يدي أبيه الطبيب الخبير**".

وهذا التصوير يتضمن الفائدة المرجوة من تلك العبارة مع التحذير من ما قد يشوبها من سوء الفهم.

إن المريض إذا كان عاقلاً لبيبًا، وذهب للعلاج عند طبيب مشهور بالخبرة والعلم والثقة، والمريض يعرفه ويثق به وبعلمه، ثم نصحه الطبيب بأي نوعٍ من العلاج فإنه سيستجيب له ويسير وفق توجيهاته، ولن يعترض عليه إلا أذا كان العقل الذي يتمتع به هذا المريض يؤكد له أن في الأمر خللاً ما، فما بالك إذا كان الطبيب أبًا للمريض، وهذا يتضمن مزيدًا من الشفقة والرحمة والعناية، فإنه في هذه الحال لو طلب منه أخذ أي علاج فسيجد نفسه مطمئنة لذلك، حتى لو كان العلاج بتر طرف من أطرافه

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ١٧/ ٣٩٠.

خـوف أن يـسري المـرض إلى باقـي الجسـد، وهكـذا ينبغـي أن يكـون المريـد بـين يـدي شـيخه، بـشرط أن يكـون الشـيخ هـو الشـيخ المتمتـع بالصفـات التـي يشـير إليهـا أهـل العلـم والسـلوك.

إن الـذي ندعـو إليـه أن يكـون السـالك مطيعًـا لقادتـه ومربيـه ومعلميـه، ولكننـا نريـد طاعتـه أن تكـون (طاعـة مبـصرة) لا (طاعـة عميـاء)، وصاحـب (الطاعـة العميـاء) حالـه كحـال (الميـت بـين يـدي الغاسـل) - بمعناهـا الحـرفي لا المجـازي - فهـو فاقـد للقـدرة عـلى الاسـتقلال بالفعـل، بينـما صاحـب (الطاعـة المبـصرة) حالـه كحـال المريـض المثقـف الواعـي بـين يـدي طبيـبٍ موثـوقٍ ذي خـبرة، وهـو أبـوه، كـما سـبق وشرحنـا.

(الطاعـة العميـاء) تنتـج حزبيـين متعصبـين ليـس مـن مهاراتهـم إلا (البصـم) ولا ينفعـون إلا جنـودًا، بينـما (الطاعـة المبـصرة) تنتـج جنـودًا مؤهلـين ليكونـوا قـادة، وبينـما ألغـى صاحـب (الطاعـة العميـاء) عقلـه بإرادتـه، وسـلّم قيادتـه لغـيره عـلى غـير هـدى أو بصـيرة، فـإن صاحـب (الطاعـة المبـصرة) يمارسـها وعقلـه حـاضر يمـارس عليـه الرقابـة لئـلا يضـل أو يزيـغ.

من معالم الانحراف

(تعظيم الصغائر كتصغير العظائم، كلاهما من معالم الانحراف).

وهـو أمـر يقـع فيـه كثير مـن السـالكين طريـقَ الدعـوة إلى اللـه تعـالى، فيغيـب عنهـم ترتيـب الأولويـات، ويقعـون في مزالـق مـا كان ينبغـي لهـم الوقـوع فيهـا لـو تفقهـوا في أساسيات المطلوب منهـم مـن أمـور الدعـوة إلى اللـه تعـالى.

المطلوبـات الشرعيـة كثيرة، ولكـن مراتبهـا متفاوتـة، وإدراك هـذا التفاوت أمـرٌ لازم لـكل سـالك في طريـق الدعـوة إلى اللـه تعـالى.

هنـاك أمـور مطلوبـة شرعًـا والعلـماء مختلفـون في مرتبـة طلبهـا مـن الشـارع الكريـم، فالبعـض منهـم يعتبرهـا مـن المندوبـات وآخـرون يعتبرونهـا مـن الواجبـات، ولكـن حتـى الذيـن اعتبروهـا مـن الواجبـات ليسـت هـي عندهـم مـن أساسـيات الديـن، ومثـال ذلـك (إطـلاق اللحيـة)، فـأن نجعـل مثـل هـذه القضيـة قضيتنـا الرئيسـة في هـذا الزمـن هـو مـن (تعظيـم الصغائـر)، أي مـن إعطـاء الأمـور أكـبر مـن حجمهـا الحقيقـي.

وفي المقابـل هنـاك أمـور تعتـبر مـن أساسـيات الديـن، كمحاربـة الظلـم، فـأن يهمـل العلـماء والدعـاة هـذه القضيـة هـو مـن (تصغـير العظائـم)، أي عـدم إعطـاء القضيـة حجمهـا الـلازم لهـا.

هـذا الخلـل في ترتيـب الأولويـات مترسـخ بـين شـبابنا، وأذكـر مـن تجربتـي أيـام دراسـتي الجامعيـة، وكنـا نمـارس الدعـوة إلى اللـه مـع زملائنـا، ونتذاكـر فيـما بيننـا ونتناصـح، أذكـر أن أحـد إخواننـا أيامهـا كان يريـد السـير في طريـق دعـوة أحـد الزمـلاء، وكان هـذا الزميـل لا يصـلي، ويسـتمع للأغـاني، ويلبـس سلسـلةً مـن الذهـب في رقبتـه، وعلاقتـه منفتحـة مـع الفتيـات، فذهـب صاحبنـا وبـدأ يحدثـه كيـف أن الأغـاني التـي يسـمعها محرمـة، والسلسـلة التـي يلبسـها محرمـة، وهكـذا، يومهـا قلـت لـه: لقـد بـدأت مـن النقطـة الخاطئـة، فـكل

هـذه التـي تعتبرهـا معـاصيَ ينبغـي لزميلنـا هـذا تركهـا لا يجـوز أن تكـون هـي القضيـة الأساسـية في حديثـك معـه، إذ يجـب أن تركـز معـه عـلى موضـوع الصـلاة، وحتـى لـو سـألك هـو عـن حكـم هـذه الأمـور فـلا تتعمـق في إجابتـه، وركّـز معـه عـلى أن الأهـم مـن كل هـذه القضايـا هـو الصـلاة، بـل قـل لـه: أن تصـلي وأنـت تمـارس كل هـذه التصرفـات (سـماع الأغـاني والحديـث مـع الفتيـات ولبـس الذهـب) أفضـل مـن أن تـترك كل هـذه الأمـور ولا تصـلي.

الفكـرة مـن الموضـوع أن الصـلاة هـي عمـود الديـن، والصـلاة قـال عـدد مـن العلـماء بكفـر تاركهـا - ولـو تكاسـلًا - (وهـو أمـر لا أتبنـاه)، بينـما بقيـة المعـاصي المذكـورة لم يقـل أحـد بكفـر مـن اقـترف شـيئًا منهـا، وبهـذا يتبـين الفـرق والتفـاوت بـين مرتبـة معصيـة (تـرك الصـلاة) ومراتـب بقيـة المعـاصي.

قلـت لصاحبنـا أيامهـا: لا أقـول لـك اسـكت عـلى هـذه المعـاصي، ولكـن أجّـل الحديـث فيهـا حتـى يلتـزم بصلاتـه، فـإن التـزم بهـا وشـعر بلـذة القـرب مـن اللـه صـار يبحـث بنفسـه يـرضي اللـه عنـه ليقـوم بـه، وعـمّا يغضـب اللـه تعـالى ليجتنبـه.

وفي نفـس السـياق أذكـر أن شـيخنا (أ. د. حسـام الديـن عفانـة) قـال في محـاضرة لـه أيـام دراسـتي لماجسـتير الفقـه والأصـول في جامعـة القـدس، وكان الشـاب التونـسي (البوعزيـزي) قـد انتحـر في تلـك الفـترة بإحـراق نفسـه واشـتعلت بعـد ذلـك ثـورات العـرب، وخـرج عـدد مـن علـماء السـلفية يتحدثـون عـن موضـوع انتحـار الرجـل وحكـم ذلـك، فقـال شـيخنا - يومهـا - تعليقًـا عـلى تركيزهـم عـلى الحديـث في هـذا الموضـوع: إني لأعجـب ممـن يتحـدث عـن إحـراق البوعزيـزي نفسـه وينـسى الحـكام الذيـن يحرقـون الأمـة كلهـا.

وهـؤلاء العلـماء الذيـن انتقدهـم الشـيخ حفظـه اللـه ممـن يُعظمـون الصغائـر ويصغّـرون العظائـم.

أسأل الله أن يرزقنا الفقه في دينه.

صراع الأجيال

يفترض أن يعود اللقاء بين الأجيال المتفاوتة - كما يحدث في السجون - بأثر إيجابي على الطرفين - الكبار والصغار - إلا أننا في الواقع نصطدم في بعض الأحيان بأثر سلبي ينتج عن هذا اللقاء، وأنا شخصيًّا أحمّل جيل الكبار المسؤولية عن هذا الأثر السلبي.

يغيب عنا أحيانًا إدراك أن أبناءنا خلقوا لزمان غير زماننا، فنسعى إلى محاولة خلق نسخ (كربونية) عما كنا عليه، أو عما نحن فيه، فيصطدم هذا السعي بأن هذا الجيل له اهتمامات ومهارات تختلف عن أجيالنا، وليس بالضرورة أن يكون أحد الجيلين مصيبًا والآخر مخطئًا، فالصواب والخطأ، أو بالأحرى ما هو مناسب أو غير مناسب، يتأثر بالبيئة والزمن الذي يتواجد فيها الشخص، فما كان له أولوية لدينا عندما تربينا قبل (٢٠) أو (٣٠) أو (٤٠) سنة ليس بالضرورة أن تكون له نفس الأهمية لدى جيل الشباب، والمهارات التي كانت مطلوبة منا حينها ليس بالضرورة أن تبقى هي المهارات المطلوبة منهم، حتى الكتب التي كنا نقرؤها وندْرُسُها قد لا تصلح لهم، ليس لأن أفكارها ليست مناسبة، مع أنها في بعض الأحيان تكون ليست مناسبة، ولكن لأن طريقة العرض التي كانت تصلح لنا ونتفاعل معها قد لا تصلح للجيل الجديد، وعندما لا نستوعب ذلك فإن مشكلةً تنشأ، وتتمثل في صراع بين هذه الأجيال يعود عليهم بالسلب، بدل أن تكون العلاقة علاقة تفاعل إيجابي تعود على الطرفين بالإيجاب.

جهودنا المبدّدة (انشغالنا ببعضنا)

ساءتني بعض التعليقات الناقدة الصادرة من بعض الإخوة عن الوقفة التي دعا إليها حراك بني تميم، وقادها الإخوة في حزب التحرير[1].

صحيح أن الإخوة في حزب التحرير لا يشاركون في الأنشطة المقاومة للاحتلال، ولهم من عمليات المقاومة موقف سلبي، غير أن الأصل أن نشدَّ على يد كل من يقوم بعمل إيجابي يخدم مصلحة الأمة، حتى لو اختلفت اجتهاداتنا.

ترتيب الأولويات في العمل أمر اجتهادي خاضع للنقاش، وما أراه أنا أولوية قد لا تراه أنت كذلك، والثغرات التي يهاجَم الإسلام من خلالها كثيرة، ولا يستطيع فرد ولا حركة ولا حزب بمفرده أن يسُدَّ هذه الثغرات كلها، ولو انشغل كل واحد منا بسدِّ الثغرة التي يراها أولى بالمبادرة إليها ولم ينشغل بانتقاد إخوانه الذين وقفوا أنفسهم على سدّ ثغرات يرونها أولى أو يرون أنها ما يناسب جهدهم لكانت إنجازاتنا أفضل في كل المجالات.

للأسف نحن ننشغل ببعضنا في كثير من الأحيان أكثر من انشغالنا بهمومنا العامة التي أعتقد أننا لا نختلف فيها، وإنما نختلف في كيفية معالجتها، وللأسف فإن البعض منا لا يعي ما هي الساحات التي يجب النضال فيها، فينشغل في معارك جانبية مع أناس أو جهات قد يختلِف معهم في مناهجهم وبعض سلوكياتهم، وتناسى أنه لا يجوز له ولا لغيره التشكيك في نواياهم، بل يجب عليه افتراض صدقها من باب إحسان الظن المطلوب

(١) كثير من أراضي مدينة الخليل موقوفة على عائلة التميمي (ذرية الصحابي تميم الداري)، وقد تم تأجير قسم منها للكنيسة الروسية قبل نحو مئة سنة، وقد أصدرت السلطة الفلسطينية قرارًا باستملاكها وهبتها للكنيسة الروسية، وحدثت احتجاجات على هذا القرار من بينها وقفة جماهيرية رتب لها وقادها حزب التحرير، وكان الحشد فيها منظمًا ولافتًا للنظر، وكانت هذه الوقفة في بدايات شهر شباط سنة ٢٠١٧.

مـن المسـلم، وينـسى المنشـغلون بتلـك المعـارك الجانبيـة أو يتناسـون التناقـض الرئيـس مـع أعـداء الأمـة، وقـد كان الأجـدر بهـم لـو وفّـروا جهودهـم لوضعهـا في أماكنهـا الصحيحـة.

وهـذا الموقـف السـلبي مـن بعـض المعلقـين، وكثـير مـن تعليقاتهـم فيـه جـاءت كـرد فعـل عـلى منهجيـة يمارسـها بعـض المنتسـبين للحـركات الإسـلامية المختلفـة تقـوم عـلى عـدم قبـول الآخـر والتشـكيك في أفعالـه ونشـاطاته، وتسـفيه منهجه، وهـو رد فعـل غـير مقبـول، فالأصـل أن يكـون منهجنـا كـما علمنـا سـيدنا رسـول اللـه ﷺ في قولـه: (**لَا تَكُونُـوا إِمَّعَـةً، تَقُولُـونَ: إِنْ أَحْسَـنَ النَّـاسُ أَحْسَـنَّا، وَإِنْ ظَلَمُـوا ظَلَمْنَـا، وَلَكِـنْ وَطِّنُـوا أَنْفُسَـكُمْ، إِنْ أَحْسَـنَ النَّـاسُ أَنْ تُحْسِـنُوا، وَإِنْ أَسَـاءُوا فَـلَا تَظْلِمُـوا**)[1].

وأنـا مـدرك - بالطبـع - لحجـم الألم الـذي يتسـبب بـه البعـض ممـن لا يتمتعون بـأدب الخـلاف، ويسـارعون إلى إلقـاء التهـم جزافًـا، وخصوصًـا تهـم التكفـير والتخويـن، وليـس المقصـود في كلامـي أن نسـكت على الباطـل وأن لا نـردَّ عـلى الاتهامـات والافـتراءات إن حدثـت، ولكنـي مسـتاء مـن حجـم (المناكفـات)، ومـن أن نجعـل قضيتنـا المركزيـة هـي انتقـاد مـا يفعلـه غيرنـا مـن الإسـلاميين، وننشـغل بذلـك عـن القضايـا الأهـم.

ومـما يُشـعرني بالاسـتياء غـير موضـوع المناكفـات هـذه الأسـلوب التـي تتـمُّ بهـا بعـض المناكفـات، وهـو أسـلوب فيـه (فجـور في الخصومـة)، والفجـور في الخصومـة - كـما هـو معلـوم - مـن صفـات المنافقـين،

وقـد ذكـرني هـذا الانشـغال بالخلافـات الداخليـة في السـاحة الإسـلامية بموقـف قديـم، حـدث في بدايـة ثمانينيـات القـرن المـاضي، عندمـا كان صديقـي الـذي يـدرس في معهـد البوليتكنيـك، ولم يكـن البولتيكنيـك أيامهـا قـد صـار جامعـة،

(١) سنن الترمذي، ح ٢٠٠٧، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيث حسن غَرِيب».

كان يحدثني – بفخر – عن الحوارات والنقاشات التي كانت تدور بينه وبين زميله (التحريري)، والتي كانت تستهلك منهما وقتًا طويلًا يحاول فيه كل واحد منهما إثبات وجهة نظره.

يومها سألته باستغراب: أليس عندكم في المعهد طلاب شيوعيون وعلمانيون لا دينيون؟؟

قال: بلى!!

فقلت له: ألم يكن الأولى بك وبصاحبك (التحريري) أن ينشغل كل واحد منكما بواحد من هؤلاء المبتعدين عن الدين، ويحاول إحضاره إلى فسطاط المؤمنين، بدلًا من انشغالكما ببعضكما البعض؟؟؟!!!

تخيلوا معي لو أن الجهد الذي نبذله في المناكفات بيننا يُبذل في مكانه الصحيح، نشر الفكر الإسلامي، وكلٌّ ينشره وفق الاجتهاد الذي يتبنَّاه، أليس ذلك أجدى لنا من معاركنا الداخلية التي لا طائل من ورائها سوى شق الصف الإسلامي، وتبديد الجهود.

متى ندرك المطلوب منا شرعًا إدراكًا سليمًا؟؟؟

وهذا الكلام موجه لجميع مؤيدي الحركات الإسلامية، فكثير منهم – للأسف – غارقون في وحل المناكفات.

مشكلتنا في التعاطي مع الخلاف

موت الرئيس الشهيد – بإذن الله تعالى – (محمد مرسي) كشف عن كثير من الخلل الذي يُعشّشُ في أفكارنا وتربيتنا ومناهجنا فيما يتعلق بفهمنا لكيفية التعاطي مع (الخلاف) بين المسلمين الذين يرفعون شعارات (استئناف الحياة الإسلامية) أنفسهم.

وأنا هنا لا أتحدث عن (السفهاء) المعادين للإسلام، المحاربين لـ (حملة لواء الدعوة إليه) لحملهم إياه من العلمانيين واليساريين وأشباههم، ولا عن الذين يزعمون أنهم يحملون هذا الدين وهم يسبّحون بحمد الظالمين من الطغاة، كبعض المنتسبين إلى منهج السلف زورًا، وإنما أتحدث عن الذين يعلنون حملهم لواء الدعوة لهذا الدين على اختلاف أطيافهم واجتهاداتهم.

كثير من محبّي (الإخوان) كانت تصرفاتهم وتعليقاتهم خلال هذه المأساة تشير إلى عدم استيعابهم الآخرين المخالفين لهم، وعدم فهمهم أصول (أدب الخلاف)، وهؤلاء أرادوا من الجميع - حتى من يخالف منهجهم - أن تتماهى مواقفهم بشكل كامل مع مواقف الإخوان وأتباعهم، غافلين عن أنّ هذا مخالف لسنة الله في خلقه، والتي قضت بأن يكون الناس مختلفين في آرائهم وأفكارهم واجتهاداتهم، ليكتمل الابتلاء الذي وُجدت الدنيا لأجله.

ولهؤلاء - وهم إخواني وأحبابي رغم خطئهم هذا - أقول: المطلوب من كل مسلم ذي قلبٍ حيٍّ عندما يقع أخٌ له في الإسلام في مأساة، كما حصل مع (مرسي) - رحمه الله - والإخوان في مصر وفي كثير من البلدان أن يحزن لما أصابهم، وأن لا يشمتَ بهم، وأن لا يقف في صفِّ أعدائهم فيقوّيَهم عليهم، وهذا واجب المسلم تجاه المسلم حتى لو اختلفت اجتهاداتهم، ولكنه

ليس مطلوبًا منه أن يتنازل عن منهجه وفكره لأجلهم، فإن كان يرى منهج (أصحاب البلاء) خاطئًا وفق اجتهاده فليس واجبًا عليه أن يترك الحقَّ الذي (يظنّه) لوقوعهم في البلاء.

وأقول لإخواني هؤلاء: فلنكن صريحين؛ تُراكم لو مات (الظواهري) بقصف أمريكي، أو قُتل (أبو الرشتة) على يد الاستعمار، ستدافعون عن (أفكار) هؤلاء وتمدحونها؟![1]

نعم؛ المطلوب منكم حينها أن تتعاطفوا معهم، وتترحموا عليهم، أو أن تسكتوا، وليس مطلوبًا منكم ترككم منهجكم واتباع منهجهم الذي ترونه منحرفًا.

أما (الآخرون) من الإسلاميين المخالفين للإخوان، فقد كان فريق منهم، وهم كثر - بحمد الله تعالى - قد التزموا بالواجب عليهم، وهو الترحم على الرئيس الذي مات مظلومًا، والدعاء على الظالمين الذين قتلوه، ولكنَّ فريقًا منهم أَبَوْا إلا أن ينبشوا الخلافات السابقة، ويؤكدوا عليها مما أفقد تعاطفَهم قيمتَه وفاعليّتَه، ودَفَعَنا بدلًا من الوقوف خلال المحنة صفًّا واحدًا تجاه أعدائنا المشتركين المحاربين للدين نفسه وليس لحزب أو جماعة من حملته، دفعنا لأن نتشرذم وننشغل بأنفسنا.

ولهؤلاء - وهم أيضًا إخواني رغم اختلافي معهم - أقول: ما ضرَّكم لو سكَتُّم عن نبش هذه الخلافات في هذه الأيام؟

أتخافون أن يظن الناس أن ابن (حزب التحرير) إن ترحّم على (مرسي) دون

(١) عندما كتبت هذا المقال، وكان ذلك بتاريخ (٢٠١٩/٦/٢١) كان الظواهري حيًّا، وقد قتل - رحمه الله تعالى - في قصف أمريكي استهدفه لاحقًا بتاريخ (٢٠٢٢/٧/٣١).
ملاحظة: رغم خلافنا الفكري مع الظواهري، ورغم أنه كان يكفر الإخوان وحماس، لا أجد حرجًا في الترحم عليه، فهو من جملة الموحدين، طلب الحق فأخطأه، ودفع حياته ثمنًا لذلك.

الهمز واللمز بما كان من خلافٍ قد تنازل عن فكره؟!

اطمئنوا، فالناس أوعى من ذلك، وسيفهمون أن تعاطفكم هذا لا يعني تنازلكم عن أفكاركم وخلافكم مع الإخوان.

لقد نهى الرسول ﷺ (**عَنْ سَبِّ الْأَمْوَاتِ**)[(1)]، وعلّل ذلك بأنَّ فيه إيذاءً للأحياء فقال ﷺ (**لاَ تَسُبُّوا الأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا الأَحْيَاءَ**)[(2)]، والسبَّ ليس فقط أن تقول (لعن الله فلانًا)، إذ السبُّ هو (الشتم) وهو (قبيحُ الْكَلَام)، وإن لم يكن قول بعضهم عن (مرسي) – رحمه الله تعالى – أنه (اختار الحياة غير الآدمية التي فرضها عليه السيسي ونظامه) وأنه لاختياره طريق الانخراط في تلك الأنظمة كان مصيره (التمادي في العمالة وفي تطبيق الكفر)، إن لم يكن هذا سبًّا وشتمًا فوالله ما أدري ما السبُّ ولا الشتم إذًا.

ألم تعلموا - يا هؤلاء - أن كلامكم هذا آذى ويؤذي ملايين المسلمين من إخوانكم الذين كان الحزن يقطّع قلوبهم على أخٍ لهم يحبّونه قُتِل بأيدي الظالمين؟! ألم يكن يَسَعُكم أن تؤخروا (تحليلاتكم) هذه لما بعد هذا الوقت، لئلا تكونوا والأعداء على إخوانكم سيفًا واحدًا؟!

ومع ذلك أقول: لم يكن ينبغي لأنصار الإخوان أيضًا إلحاق خطأ هؤلاء بخطئهم في مبادلتهم السبَّ بالسبِّ والشتم بالشتم.

اللهم اهدنا، وألّف بين قلوبنا، وارحم عبدك (مرسي) وانتقم من ظالميه وقتلته وممن أيّدهم وساندهم وفرح بجريمتهم.

---

(1) حديث (نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ سَبِّ الْأَمْوَاتِ) رواه أحمد في المسند، ح ١٨٢٠٨.

(2) رواه الترمذي في سننه، ح ١٩٨٢، وأحمد في المسند، ح ١٨٢١٠.

لا للقوي الفاجر

مـرّ بي منشـور أو تعليـق لأحـد الإخـوة، ونسـيت أيـن قرأتـه، يتحـدث فيـه الأخ عـن الانتخابـات المحليـة في الخليـل، واستشـهد خـلال كلامـه بالعبـارة المشـهورة عـلى ألسـن النـاس، والتـي تقـول (يُقـدّم القـوي الفاجـر عـلى التقـي الضعيـف).

وقـد وجـدت مـن الـلازم عـليَّ أن أوضـح بعـض الأمـور المتعلقـة بهـذه العبـارة التـي يسـاء فهمهـا ويسـاء تطبيقهـا.

مـع ملاحظـة تأسيسـية وهـي أني لسـتُ ممـن يحبّـذون إصـدار الأحـكام عـلى النـاس، فلـكل امـرئ سـلبيات وإيجابيـات، ولسـتُ بصـدد الدفـاع عـن أحـد أو تأييـد أحـد، وأنـا أتمنـى أن لا يكـون في أي مـن المرشـحين مـن تنطبـق عليـه صفـة الفسـق أو الفجـور، لا سـمح اللـه.

وسـأذكر ملاحظـاتي في نقـاط مختـصرة، وسـأحاول لاحقًـا – بـإذن اللـه – أن أكتـب فيهـا موضوعًـا مطـوَّلًا لمـن يريـد الاسـتزادة والاسـتفادة.

وقبـل إبـداء ملاحظـاتي يجب الإشـارة إلى أن هـذه العبارة تَرِدُ عنـد أهل العلم في باب (فقه الموازنات)، وهو فقه دقيق لا يجوز أن يفتي فيه إلا أهل العلم والخبرة المتمكنـون، وخصوصًا أن هـذه العبـارة ليسـت عـلى إطلاقهـا كـما يتناقلهـا كثـير مـن النـاس، بـل هناك ظـروف واشـتراطات لجـواز تطبيقهـا وتنزيلها عـلى الواقع. أما أهم الملاحظات فهي:

- هـذه العبـارة منقولـة عـن الإمـام أحمـد، وكانـت في جـواب سـؤال عـن موضـوع محـدد، إذ سـئل الإمـام أحمـد: عـن الرجلـين يكونـان أميرين في الغـزو وأحدهـما قـوي فاجـر والآخـر صالـح ضعيـف مـع أيهـما يغـزى؟ فقـال: إمـا الفاجـر القـوي فقوّتـه للمسـلمين وفجـوره عـلى نفسـه؛ وأمـا الصالـح الضعيـف فصلاحـه لنفسـه وضعفـه عـلى المسـلمين فيغـزَى مـع

القـوي الفاجر[1].

وعليه فتوسيعها لغير هذا بحاجة إلى اجتهاد منضبط.

- لا تطبّـق هـذه القاعـدة إلا عندمـا تضيـق الدنيـا، ولا يكـون هنـاك خيـار إلا اثنـان أحدهـما قـوي فاجـر والآخـر تقـي ضعيـف، وهـذا ليـس حالنـا.
- الفسـق أو الفجـور الـذي قَبِـلَ العلـماء تَحَمُّلـه في بـاب الجهـاد هـو المتعلـق بالسـلوك الفـردي الـذي لا يؤثـر عـلى دافعيـة الجهـاد لـدى الأمـير، ولعـل في قصـة أبي محجـن الثقفـي الـذي كان يـشرب الخمـر في معركـة القادسـية، وأبـدى في الجهـاد شـجاعة منقطعـة النظـير مـا يشـير إلى إمكانيـة اجتـماع (الفسـق الفـردي) مـع (الرغبـة في الجهـاد) في بعـض الحـالات.
- يشـترط في (الفسـق) الـذي قـد يُتسـامح فيـه عنـد الـضرورة في مثـل هـذه الحـالات أن لا يكـون مـما يعـود بالسـلب عـلى المقصـود مـن الولايـة موضـع البحـث، فلـو كانـت عندنـا ولايـة مسـؤولية تتعلـق بالأمـوال، وكان أمامنـا قـوي فاسـق وفسـقه متعلـق بالسـلب والنهـب والرشـوة فـإن في توليتـه فعـل عكـس المطلـوب مـن التوليـة، وهـذا لا يقبـل بـأي حـال.
- عندمـا أُطلِقـت هـذه العبـارة عـلى ألسـنة الفقهـاء المتقدمـين كانـت الأمـور تـدار عـبر أفـراد، أمـا الآن فـإن غالـب الأمـور – ومنهـا إدارة المجالـس البلديـة كمثـال – تـدار عـبر عمـل جماعـي، فـإن كان التقـي ضعيفًـا ففـي مـن حولـه مـن يسـنده ويسـدَّ ثغـرة الضعـف التـي عنـده، وفي هـذا يقـول ابـن تيميـة: «فـلا بـد مـن ترجيـح الأصلـح، أو تعـدُّدِ

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٢٥٥.

المُـوَلَّى إذا لم تقـع الكفايـة بواحـد تـامّ»[1].

- قاعـدة تقديـم القـوي الفاجـر ليسـت قاعـدة عامّـة، فجمهـور العلـماء يقولـون مثـلًا أنـه إذا لم يوجـد مـن يُـولّى القضـاء إلا عـالم فاسـق أو جاهـل ديِّـن، فـإن ذا الديـن يُقَّـدم؛ لأن الأئمـة متفقـون عـلى أنـه لا بـد في المتـولي مـن أن يكـون عـدلا أهـلا للشـهادة؛ واختلفـوا في اشـتراط الاسـتقلال بالعلـم، والجاهـل الـذي يعنونـه هنـا هـو غـير المسـتقل بالعلـم، فيقدّمونـه ويشـترطون عليـه استشـارة أهـل العلـم لسـدّ النقص الـذي عنـده، وهـم هنـا لم يقبلـوا بتقديـم الفاسـق لأنـه لا يتفـق مـع المطلـوب مـن القضـاء مطلقًـا[2]، ولعلهـم في ذلـك ينظـرون إلى أن بعـض المهـام تكـون الحاجـة الأساسـية فيهـا هـي القـوة، بينـما الحاجـة الأساسـية في مهـام أخـرى هـي الأمانـة.

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٢٥٨.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٢٥٩.

التعامل مع الأفكار المخالفة

أن يحمل الإنسان فكرة ويعمل على نشرها أمرٌ جيد، إذ الغاية من حمل الأفكار الانتقال بها إلى مربع التطبيق، وعندما يكون الأمر اجتهاديًّا، فالأصل أن يتقبل الجميع الأفكار المخالفة ما دامت لا تمسُّ ثوابت الدين والوطن، وأن يجري النقاش بأدب واحترام.

ولكن الواقع المؤسف الذي نعيشه هو أن (كل) مدارسنا التربوية والحركية تربي أفرادها على عدم تقبل الآخر، وإن بدرجات متفاوتة! فصرت تلحظ أن كثيرين من شباب حزب التحرير - مثلًا - منشغلون بمهاجمة الأفكار التي يدعو إليها مخالفوهم، كفكرة التدرج في تطبيق الشريعة، وجواز المشاركة في الانتخابات البرلمانية، بل يبلغ من تطرف بعض أفراد الحزب في مهاجمة مخالفيهم أنهم يعتبرون أن كل من يخالف فكرتهم لا يريد إقامة الخلافة، وأن طريقتهم هي الطريقة الوحيدة الواجب اتباعها لإقامة الخلافة، ومن لا يسير عليها خائن أو عميل، وفي المقابل تجد كثيرين من المحسوبين على (الإخوان) دأبهم مهاجمة طرح حزب التحرير لفكرته في استنصار الجيوش، وتسفيه رأي الحزب، ورميه بالجهل وحتى بالعمالة أحيانًا، (بالمناسبة أجد أن فكرة طلب النصرة بالطريقة التي يطرحها الحزب فكرة خاطئة عندما يتم عرضها على مقاييس الشرع).

ينبغي على الذي يعرض رأيه وفكرته أن لا يُسفّه آراء الآخرين ويزدريها لمجرد مخالفتها لفكرته، وأن لا يطعن في النوايا، فيجعل من يخالف فكرته منطلقًا من خيانة وتخاذل وحرص على مصالح دنيوية، وأن لا يستنقص تضحيات الآخرين فيعمل على التهوين من إنجازاتهم لإبراز فكرته، والتي قد يخالفها الآخرون لأنها ليست واقعية في نظرهم، وأخيرًا: أن لا يظنَّ نفسه ممتلكًا للصواب المطلق، إذ كثير من المتحدثين بأفكارهم على

الساحة لا تصمد أفكارهم أمام النقاش الشرعي والفقهي مطلقًا، وإن ظنّوا لقلة بضاعتهم في العلم خلاف ذلك.

أما المخالف له – وإن لم تعجبه (فكرة ما) – فالأصل أن لا ينشغل بتسفيهها، وأن يدع صاحبها يحاول ترويجها، وليكن على يقين أنه في النهاية: (لا يصحُّ إلا الصحيح).

فليتحمل بعضُنا البعض، ولنحترم بعضَنا البعض في نقاشنا.

العمل السياسي وضرورة التخصص

لـكل مهمـة وعمـل يقـوم بـه المـرء أدوات وخـبرات ومتطلبـات تناسـبه، فـما يحتاجـه الداعيـة مـن تأهيـل للقيـام بمهامـه الدعويـة يختلـف عـما يحتاجـه السـياسي للقيـام بواجبـه، فالدعـوة - عـلى سـبيل المثـال - بحاجـة إلى اللـين وإحسـان الظـن، بينـما العمـل السـياسي يحتـاج أحيانًـا للشـدة وتوقـع الأسـوأ، وكل شيء يتـم اسـتخدامه في موضعـه، وقـد يُقبـل مـن الداعيـة في عملـه الدعوي أن يقـول (رأيـت في مـا يـرى النائـم) ويقـصَّ عـلى سـامعيه رؤيـا ترقـق قلوبهـم، أو يَعِظهـم مـن خلالهـا، ولكـن هـذا لـن يكـون مقبـولًا مـن السـياسي، الـذي يفـترض فيـه أن يبحـث ويـدرس ويقـدم الإحصائيـات ويقـترح الحلـول.

إحـدى مشـاكلنا في السـاحة الإسـلامية هـي أن عـددًا مـن الدعـاة ينتقلـون إلى مجـال العمـل السـياسي، فيمارسـون مهمـة رجـل السياسـة بـأدوات الداعيـة، فيفشـلون في السياسـية ويضيّعـون الدعـوة.

ليسـت هنـاك مشـكلة في أن يعمـل الداعيـة في السياسـة عـلى أن يسـتخدم أدواتهـا (ضمـن مرجعيتـه الإسـلامية)، غـير أن المشـاهد أن أكـثر الدعـاة عندنـا لم يسـتطيعوا خلـع ثـوب الداعيـة وأدواتـه في ممارسـتهم السياسـية (الواجـب انضباطهـا بالـشرع) فأوقعونـا في أزمـات لهـا أول ولا آخـر لهـا، وفي كثـير مـن الأحيـان فـإن الـذي تكونـت ملكاتـه وقدراتـه عـلى أسـاسٍ دعـويٍّ صرف، وعـاش أغلـب عمـره داعيـةً، ولم يمـرَّ بتأهيـل مناسـب للممارسـة السياسـية، ولا بتجربـة ناضجـة، فإنـه لـن يسـتطيع الانخـلاع مـن ثوبـه كداعيـة، وسـيبقى ممارسًـا للسياسـة بـأدوات الدعـوة.

وبالطبـع ينبغـي التنبـه إلى أن مـا نقولـه هنـا متعلـق بالفصـل بـين وظيفتـين ومهمتـين، وهـما مهمـة الداعيـة، ومهمـة السـياسي، وليـس هنـاك مـا يمنـع أن يقـوم نفـس الشـخص بالمهمتـين، فيكـون داعيـة وسياسـيًّا في نفـس الوقـت،

ولكـن الـذي يجـب أن يُنتبـه إليـه هنـا أن الـذي يجمـع بـين المهمتـين ينبغـي عليـه أن يمـارس كل مهمـة بأدواتهـا، فيـمارس العمـل السـياسي بمـا يناسـبه مـن أدوات، ويمـارس العمـل الدعـوي بمـا يناسـبه مـن أدوات، ولا يخلـط بـين الأمريـن.

وكذلـك ليـس المقصـود أن لا يتكلـم الداعيـة الـذي لا يمـارس السياسـة في شـؤون السياسـة، بـل إن انشـغال الدعـاة واهتمامهـم بالهـمّ السـياسي وشـؤون الأمـة مـن أوجـب الواجبـات عليهـم، ولكنـه انشـغال المتابـع والمراقـب والناصـح، وليـس انشـغال المـمارس، وفي نفـس الوقـت فـإن السـياسي يجـب أن يكـون ملتزمًـا بمرجعيتـه الدينيـة، مسـتظلًّا بظلّهـا، غـير مخالـف لمـا شرعـه اللـه وأمـر بـه.

العلاقة بين القادة وأتباعهم

الثقـة عنـصر أسـاسي لانضبـاط العمـل، وقـد عـدّه الإمـام البنّـا أحـد أركان البيعـة العـشرة، غـير أن جـلّ - أو كل - حديثنـا عـن الثقـة يـدور حـول ثقـة التابعـين والمرؤوسـين بقياداتهـم، وهـي ثقـة مطلوبـة، لا شـك في ذلـك، ولكـن يغيـب عنـا أن عمليـة (الثقـة) يجـب أن تكـون متبادلـة بـين الطرفـين، فكـما أنـه مـن الواجـب - لانتظـام الأمـور الحركيـة - أن يثـق الجنـود بقادتهـم، فـإن ثقـة القـادة بجنودهـم وبمـن هـم تحـت مسـؤوليتهم لا تقـل أهميـة عـن ذلـك.

إحـدى المشـاكل التـي تعيـق تطويـر العمـل الحـركي في كثـير مـن المواقـع، وتعيـق إنشـاء أجيـال قياديـة تسـتفيد مـن خـبرة السـابقين لهـم تتمثـل في أن المسـؤولين لا يثقـون بمـن هـم تحـت قيادتهـم لتكليفهـم بالقيـام بالأعـمال التـي يلزمهـم التـدرّب عـلى القيـام بهـا، ثـم إذا كلفوهـم بذلـك وأخفقـوا لم يعطوهـم فرصـة أخـرى، ولم يعـززوا ثقتهـم بأنفسـهم، بـل عملـوا عـلى تحطيـم نفسـياتهم، فتشـعرهم وكأنهـم كانـوا ينتظـرون أن يخطـئ ذلـك المكلـف حتـى يجلـدوه بسـوط تقريعهـم، ويثبتـوا أنـه لا يسـتطيع النجـاح في أداء العمـل الـذي يقومـون هـم بـه.

وعندمـا يفعـل القـادة ذلـك ويترصـدون أخطـاءَ مـن هـم تحـت مسـؤوليتهم، ولا يتفهمـون أن احتماليـة الإخفـاق في تنفيـذ أي عمـل واردة، فيعملـون عـلى تحطيـم نفسـياتهم إن أخفقـوا في أداء عمـلٍ كُلّفـوا بـه، بـدل أن يعـززوا ثقتهـم بأنفسـهم بتوجيههـم وإعطائهـم فرصـة أخـرى، فـإنّ هـؤلاء الأتبـاع سـيفقدون الدافعيـة للمبـادرة تخوّفًـا مـن الوقـوع في أخطـاء يُلامـون عليهـا، رغـم أن منهـا مـا لا يكونـون السـبب المبـاشر في الإخفـاق فيـه، ولـن يبـادروا لتحمل المسـؤولية أو لطـرح أفـكار جديـدة تسـاعد عـلى تطويـر العمـل والأداء، وفي ذلـك خسـارة عظيمـة للذيـن يعقلـون.

وللأسف فإن من أسباب ذلك أن بعض من وصلوا إلى مواقع المسؤولية لم يكونوا مستحقين ومؤهلين للقيادة، بل دفعت بهم الظروف الاستثنائية التي نعيشها إلى هذه المواقع، ولم يعملوا خلال شغلهم لمواقعهم على تطوير أنفسهم، ودراسة كيفية القيادة بطريقة علمية، فظلوا لا يتمتعون بصفات القيادة، ويتعاملون مع من يعتقدون أنه يمتلك من الكفاءة ما لا يمتلكونه بطريقة الإقصاء لخشيتهم أن تتضعضع مناصبهم، وصاروا يختارون حولهم الأشخاص الذين لا يوجد في قاموسهم كلمة (لا)، وهؤلاء إن دفعتهم الظروف لتولي المناصب القيادية - لقربهم من القيادة - كرروا نفس النهج.

وهناك ممن يتبوأون مواقع القيادة من هم مؤهلون لها، ولكنهم آمنوا بندرة صنفهم وغرتهم الإنجازات التي حققوها، فجعلت منهم أشخاصًا لا يرون إلا أنفسهم، ويعتقدون أنهم وحدهم من يجب أن يكلفوا بكل المراكز القيادية، وينظرون لغيرهم أنهم ما زالوا صغارًا، وتزداد الفجوة بينهم وبين الجيل التابع، وخصوصًا إذا كانت لدى الجيل الناشئ رؤًى تخالف ما عليه جيل القيادة الذي يعتبر نفسه جيل الحكماء والأساتذة، وينتج عن ذلك أنهم يلجؤون إلى تشجيع وإبراز المطيعين الموافقين لهم في رؤاهم، ولو لم يكونوا مبدعين، وإقصاء الآخرين ذوي الرؤية المختلفة.

إن القائد الحق هو من يرى نجاح أتباعه نجاحًا له، ولذلك يمدُّ لهم كل أسباب النجاح ليراهم قادة ناجحين، ويزدادُ قوة بقوتهم، بينما المتسلط المدعي يخاف نجاح الآخرين، ويمدُّ لنفسه كل الجسور والحيل ليعتلي أكتاف من حوله.

بين الوسيلة والغاية

نألـف (الوسـائل) أحيانًـا حتـى نصـل بهـا إلى مرتبـة مـن التقديـس ترفعهـا لموضـع (الغايـات)، وننـسى أن الأصـل في الغايـات الثبـات وفي الوسـائل التغـير.

كانـت (الكتابـة عـلى الحيطـان) وسـيلة لإيصـال الخـبر والفكـرة أيـام الانتفاضـة الأولى، أمـا الآن فاسـتخدامها عبـث لوجـود بدائـل أفضـل منهـا.

وكان إشـعال الإطـارات ووضـع الحجـارة في الشـوارع وسـيلة لإعاقـة تحـرك سـيارات العـدو أيـام كانـت سـياراته داخـل شـوارعنا، أمـا الآن فـإن اسـتخدام هـذا داخـل المـدن ضررٌ بـلا أدنى فائـدة.

وكذلـك كان (الإضراب التجـاري) في بعـض المراحـل وسـيلة تصلـح لتحقيـق بعض الغايـات السـامية، ومـع تغـير الظـروف والأوضـاع ونفسـيات النـاس أعتقـد أن هـذه الوسـيلة صـار ينبغـي تجاوزهـا والبحـث عـن بدائـل تحقـق الغايـات المرجـوة بطريقـة أفضـل.

لا تنسوا (الوسائل غير مقدسة) فلا تكونوا أسرى لها

لعل المشكلة فيك أنت

أحيانًا يواجه (شخصٌ ما) عقبات في حياته، في العمل أو الزواج أو العلاقات الاجتماعية، فتراه يظنّ سبب هذه العقبات نفور الناس من شيء عنده، وقد يكون هذا الشيء إيجابيًّا من وجهة نظره، ككونه متدينًا، أو ابن عائلة معينة، أو ساكنًا منطقة معينة، أو أسيرًا سابقًا، فيُكثِرُ لوم الناس وتقريعهم وتحميلهم المسؤولية عن وضع هذه العقبات في طريقه، ولكنه لو وقف مع نفسه ثم تفكّر بحيادية ومنطق ونظر لمن يشاركونه (هذا الشيء) الذي يظنُّه سبب هذه العقبات، فلربما وجد أنهم لا يواجهون مثلها، وحينها فإن عليه البحث عن السبب آخر قد يكون وراء تعثر أموره، فلعلّ المشكلة فيه هو، لا في الشيء الذي يظنه سببها.

بدون أن تعرف السبب الحقيقي لمشكلتك لن تستطيع علاجها.

أعرف أحد الأشخاص ممن عايشته في السجن وكان يبحث عن فتاة ليخطبها فتم رفضه مرات عديدة، وفي كل مرة كان يُرفض فيها كان ينشر على صفحته على الفيسبوك شاكيًا باكيًا متذمّرًا من هذا المجتمع الذي يحارب الأسرى - في زعمه - ويمتنع عن تزويجهم لأنهم كانوا أسرى.

ولا شك أن هناك في مجتمعنا من يرفض تزويج ابنته من أسير سابق؛ حرصًا عليها - في ظنه - من أن تتعرض للمعاناة إن عاد زوجها إلى السجن، وهذا من حقه لا نعترض عليه، ولكن في المقابل نجد من لا يمتنعون عن ذلك، ولذلك نجد كل الأسرى المحررين وقد تزوجوا، ولذلك إن واجه أسيرٌ سابق مشكلة في أن يجد من تقبل به زوجًا، وتكرر هذا الرفض بشكل ملاحظ فينبغي عليه أن يسأل نفسه: هل السبب الحقيقي لرفض كثيرين تزويجي هو كوني أسيرًا سابقًا، كما كان يزعم صاحبنا، أم أنه لربما كانت هناك أسباب أخرى متعلقة بشخصيته أو عائلته!؟

تناقشت مرة مع عدد من الإخوة في موضع صاحبنا هذه وكثرة شكواه، واتفقت آراؤنا أنه أساء تقدير سبب تعثره، وقد كنا كلنا نعرفه، ونعرف أن المشكلة كانت فيه كشخص، وليس في كونه أسيرًا سابقًا، ولذلك فإنه لو تقدم لأي منا ليطلب يد ابنته أو أخته لم يكن أحدنا ليوافق عليه.

أعود وأكرر: بدون أن تعرف السبب الحقيقي لمشكلتك لن تستطيع علاجها، وقد تكون أنت نفسك المشكلة.

خذ بيدهم

من ملاحظاتي عبر السنين الطويلة الماضية فإن شهر رمضان كان نقطة الانطلاق لكثير من الذين سلكوا درب التديّن والمحافظة على الصلاة بالذات، وهذا يتطلب منا جميعًا أن نكون عونًا لهم على ذلك، ويتطلب من الآباء أن يأخذوا بيد أبنائهم برفق في سلوك طريق التقرب إلى الله تعالى مستفيدين من الأجواء الروحانية في هذا الشهر الفضيل.

وأريد هنا أن أهمس في آذان إخواننا الدعاة والخطباء والوعاظ وعموم المتدينين فأقول لهم: لقد اعتدنا من كثيرين منكم استخدام خطاب يهاجم من تُطلقون عليهم (عُبّاد رمضان)، ويقصد بهم من يلتزمون بالعبادة في رمضان ويقصرون فيها في أوقات غيره، ويكون هذا الخطاب عادة بطريق الذمِّ والشتم والتقريع لهؤلاء، والذي أراه أن الذي يقترب من الله في رمضان وإن ابتعد عنه في غيره أفضل بكثير من المبتعد عن الله في كل أوقاته، فاقترابه في رمضان يدل على وجود بذرة خيرٍ في نفسه، تنتظر توفر بيئة مساعدة لها لتنمو وتثمر، فبدلًا من لوم هؤلاء على تقصيرهم السابق، وإشعارهم أن عبادتهم في رمضان غير مقبولة، فلنعمل معًا على مساعدتهم بتوفير البيئة التي تشجع بذرة الخير في قلوبهم على الصمود.

أخي المتدين الملتزم:

إذا رأيت من أتى ليصلي في المسجد، وخصوصًا إن كان فتًى أو شابًّا فابتسم في وجهه، وبادر لمصافحته والتعرف عليه، وأشعره بأن المسجد بيت دافئ له، وكن ليِّنًا في توجيهه إن رأيته أخطأ في الصلاة أو في الالتزام ببعض آداب المسجد.

أعاننا الله وإياكم على أداء حقوق الله علينا في رمضان.

دروس دعوية من جائحة الكورونا

ابتلي العالم في سنة (٢٠٢٠ م) بانتشار مرض (الكورونا) الذي حصد أرواح ملايين البشر خلال فترة انتشاره التي قاربت السنتين، وبغض النظر عن اختلاف الناس في هذا المرض هل كان أمرًا طبيعيًّا أم نشأ نتيجة عمل مقصود إلا أن الواقع أنه كان مرضًا حقيقًّا انتشر ورأينا آثاره بأنفسنا، بل وفقدنا خلاله عددًا من أحبابنا.

وبطبيعتي المحبة لأن ألاحظ وأدقق وأقارن وأربط الأمور ببعضها، وجدت أن في هذه الجائحة وأساليب تعاملنا معها دروسًا يمكن أن نستفيد منها في مسيرتنا الدعوية.

وهذه بعض الدروس المستفادة من هذه الجائحة.

المناعة المفرطة مدمرة

لفت نظري أيام انتشار جائحة الكورونا مسألة مهمة فيما يتعلق بهذا الوباء ينبغي الوقوف عندها لأخذ العبرة:

يقول الخبراء أن فيروس الكورونا غير قاتل بذاته، ومع ذلك فإن نسبة الوفيات التي يتسبب بها مرتفعة جدًّا مقارنة بغيره من الأمراض، فما علة ذلك؟

الجواب هو أن الذي يقتل المريض ليس الفايروس نفسه، وإنما يقتله الردُّ المناعي المفرط الذي يقوم به جسمه، فيؤدي إلى القضاء على الأنسجة في رئتيه.

كيف يكون ذلك؟

الجسم البشري مزوّدٌ بجهاز للمناعة هدفه حماية الجسم من الأمراض والسموم، يقوم هذا الجهاز بالتعرف على مسببات المرض، ثم العمل على

تحييدهـا وإبادتهـا، أي أنـه يقـوم في الجسـم بمهمـة تشـبه مهمـة (الجيـش والأجهـزة الأمنيـة) في الدولـة.

في الوضـع الطبيعـي ينجـح (جهـاز المناعـة) في مهماتـه، فيقـي الجسـم مـن الأمـراض، ولـه في ذلـك طـرق عديـدة منهـا مثـلًا أنـه يقـوم برفـع درجـة حـرارة الجسـم، وذلـك كوسـيلة هجوميـة للتصـدي للمـرض، ويهـدف الجسـم مـن خـلال رفـع درجـة حرارتـه إلى مقاومـة العـدوى مـن خـلال قتـل البكتيريـا التـي لا تتحمـل بعـض أنواعهـا الحـرارة الناجمـة عـن الحمـى.

<u>نعود لعلاقة جهاز المناعة بوفاة المريض.</u>

الـذي يحـدث لـدى بعـض مـرضى الكورونـا أن جهـاز المناعـة لديهـم يسـجل نشـاطًا زائـدًا عـن الحـدّ، ويخـرج عـن السـيطرة، فتـؤدي المعركـة الناشـبة بينـه وبـين الفيروسـات التـي دخلـت الجسـم إلى التأثـير عـلى الجهـاز التنفـسي مـما يـؤدي للوفـاة لـدى عـدد مـن المـرضى.

<u>ما هو الدرس الذي يمكن أن نستفيده؟</u>

دعونـا نعـود ونؤكـد أن وجـود جهـاز المناعـة في الجسـم مهـم جـدًا، وبدونـه سـيتعرض الجسـم لمخاطـر عديـدة، ولكـن المشـكلة تظهـر عنـد خروجـه عـن السـيطرة، هـذا في المجـال البيولوجـي.

وكذلـك الأمـر في بقيـة المجـالات، فـإن الإفـراط الـذي تمارسـه أجهـزة المناعـة قـد يـؤدي للدمـار، ومـن أمثلـة ذلـك:

- في الـدول (أجهـزة المناعـة) هـي (الأجهـزة الأمنيـة)، وإفراطهـا في كتـم أنفـاس المعارضـين، وسـلب حرياتهـم يشـبه السـلوك المدمّـر لجهـاز مناعـة الجسـم الخـارج عـن السـيطرة.
- في المجتمعـات يمكـن اعتبـار (العـادات والتقاليـد) ضمـن (أجهـزة المناعـة) التـي تعمـل عـلى ضـمان عـدم انحـراف المجتمـع، ولكـن هـذه

(العـادات والتقاليـد) قـد تمـارس الـدور المدمّـر لجهـاز المناعـة الـذي لا يعـرف حـدوده.

- في التنظيـمات والأحـزاب والمذاهـب الفكريـة، الأصـل أن تعمـل (أجهزتهـا المناعيـة) عـلى ضـمان عـدم الانحـراف عـن الفكـر الـذي تأسسـت عليـه تلـك الحـركات، ولكنهـا في بعـض الأحيـان تمـارس الـدور المدمّـر عـبر محاربتهـا للأفـكار التطويريـة الإيجابيـة، ومهاجمتهـا لهـا وكـأنها فيروسـات مدمّـرة، فـلا تفـرق بـين المفيـد والضـارّ مـما يتفاعـل معـه أبناؤهـا.
- في التربيـة الأسريـة، إفـراط الأبويـن في حمايـة أبنائهـم يـؤدي إلى تدميرهـم اجتماعيًّـا وهـدم شـخصياتهم.

وهكـذا نجـد أن (أجهـزة المناعـة) والتـي يفـترض فيهـا أنهـا (الحارس) للجسـم أو الدولـة أو المجتمـع أو الحركـة أو الأسرة قـد تكـون سـبب دمـاره إن فلتـت مـن عقالهـا، ولم تعـرف حدودهـا.

بين التهويل والتهوين

خـلال جائحـة (الكورونـا) لاحظـت أن أحـكام النـاس عـلى هـذا المـرض – في غالبهـا – تـدور بـين التهويـل والتهويـن، فالملاحـظ أن غالبيـة المصابـين في بلادنـا يعانـون مـن أعـراض طفيفـة أو متوسـطة، أو حتـى لا تظهـر الأعـراض عليهـم، وهـذا مـن فضـل اللـه تعـالى علينـا ولطفـه بنـا، إذ لـو قارنّـا حالنـا بحـال أمريـكا ودول أوروبـا لوجدنـا ملامـح اللطـف الإلهـي ظاهـرة علينـا، ولذلـك أسـباب عديـدة حـيرت علـماء الصحـة، فافـترض بعضهـم أن معـدل أعـمار الشـعوب العربيـة وكـثرة الشـباب فيهـا مـن أسـباب مقاومتهـم للمـرض، وافـترض آخـرون أن الكثافـة السـكانية ونمـط الحيـاة الـذي نحيـاه والـذي كان يتسـبب بتعرضنـا لأمـراض مـن عائلـة الإنفلونـزا (الشـبيهة بالكورونـا) أوجـد لـدى شـعوبنا مناعـة

أقـوى ضـد تلـك الأمـراض.

عـلى كل: كثـيرون مـن الذيـن شـاهدوا أنهـم أو أن مـن حولهـم مـن المصابـين لم يتعرضـوا لأضرار كثـيرة يلجـؤون للتهويـن مـن المـرض وتأثـيره، ويزعمـون أنـه لا يتوجـب عـلى النـاس أخـذ احتياطـات لمقاومتـه، وهـؤلاء لا يلتزمـون في الغالـب بتعليـمات الجهـات الصحيـة.

وفي المقابـل تجـد أن مـن ابتـلي بتعرضـه أو تعـرض مـن حولـه لمعانـاة شـديدة مـن المـرض، أو لحـالات وفـاة يبالـغ في التهويـل مـن تأثـير المـرض.

المطلـوب فهـم حقيقـة هـذا المـرض، فهـو - كـما شـاهدنا - لا يؤثـر عـلى غالبيـة النـاس إلا تأثـيراً طفيفًـا، ولكنـه في نفـس الوقـت ذو تأثـير مميـت عـلى فئـة مـن النـاس أغلبهـا مـن آبائنـا وأمهاتنـا وأحبابنـا الذيـن ابتلاهـم اللـه تعـالى بالأمراض وضعـف المناعـة، وواجبنـا تجـاه هـؤلاء أن نحتـاط لئـلا نتسـبب بالـضرر لهـم.

<u>أما الدرس المستفاد من ذلك</u>

فإننـا في مسـيرنا الدعـوي نتعامـل مـع كثـير مـن الأمـراض القلبيـة والتنظيميـة والسـلوكية، ومـع انتشـار بعـض الأفـكار الشـاذة والغريبـة بـين أبنـاء دعوتنـا، وللأسـف فإننـا ننقسـم في تعاملنـا معهـا كـما انقسـم مجتمعنـا مـع (الكورونـا)؛ فريـق منـا يهـوّن مـن تلـك الامـراض ويتغافـل عنهـا، وفي كثـير مـن الأحيـان يـؤدي ذلـك إلى تفاقمهـا، وانتشـار أفـكار غريبـة وشـاذّة في اوسـاطنا، وفريـق يهـوّل مـن المسـالة ويعطيهـا اكـبر مـن حجمهـا، فيتسـبب في التضييـق عـلى أبنـاء الحركـة وفي قمـع كثـير منهـم فكريًـا أو في إسـاة الظـن بهـم وإبعادهـم عـن سـاحة العمـل لوجـود ادنى شـبهة، مـما يسـبب خسـائر جسـيمة تعـاني منهـا الدعـوة.

وكـما كان المطلـوب أيـام جائحـة الكورونـا التعامـل بعقلانيـة واعتـدال معها، فلا نهـوّن منهـا ولا نبالـغ، فـإن الواجـب يقتـضي منـا أمـام مـا نواجهـه في سـاحتنا

الدعويـة مـن أمـراض ومشـاكل أن نتعامـل كذلـك بتـوازن، وبذلـك لـن يمـوت الذئـب ولـن تفنـى الغنـم.

حالة (الإنكار)

كانـت إحـدى مشـاكل الذيـن يصابـون بمـرض الكورونـا تتمثـل في حالـة (الإنكار) التـي تصيـب كثيريـن منهـم، وخصوصًـا مـن كانـت إصابتهـم بـلا أعـراض أو بأعـراض طفيفـة أو متوسـطة، فكثـير مـن هـؤلاء ينكـرون أنهـم مصابـون، ويعللـون مـا يمـرون بـه بأنـه حالـة مـن حـالات الإنفلونـزا العاديـة، أو أنـه بسـبب تأثرهـم مـن المكيفـات أو المـراوح في موجـة الحـر الحاليـة، ثـم إذا نصحتهـم بعمـل الفحـص للتأكـد تهربـوا مـن ذلـك، وتعللـوا بمعاذيـر شـتى لئـلا يقومـوا بالفحـص.

علـماء النفـس يقولـون أن الإنسـان لديه ميـل لتجنب الأفـكار الصعبـة والحقائق التـي تحـدث لديـه مشـاعر سـلبية وضغوطًـا نفسـية، ولذلـك فهـؤلاء يفضلـون مواصلـة حياتهـم كأن شـيئا لم يحـدث، متجاهلـين الحقائـق، ومواصلـين التظاهـر بعـدم معرفـة مـا يجـري حولـه لأنهـم يعتقـدون أن «الجهـل قـد يكـون نعمـة». المشـكلة هنـا تكمـن في (خطـورة الكتـمان)، فكتـمان خـبر الإصابـة بالعـدوى قـرار سيِّءٌ مـضِرٌ بالآخريـن، وإخفـاء كـون الشـخص مصابًـا يمكـن أن يتسـبب بمزيـد مـن تفـشي الوبـاء وإلحـاق الـضرر بالأشـخاص المحيطـين بـه، كـما أن المقربـين مـن المصـاب قـد يشـعرون بغضـب أكـبر إذا علمـوا بخـبر إصابتـه بشـكل متأخـر، واكتشـفوا أنـه أخفـى عنهـم الأمـر، وبالتـالي تسـبب لهـم بخسـارة الوقـت.

<u>على المستوى الدعوي، فإن هناك درسًا مستفادًا من ذلك</u>

تكـون عندنـا مشـكلة، سـواء فكريـة أو تنظيميـة أو حتـى أمنيـة، فيلجـأ كثـيرون لإنـكار وجـود هـذه المشـكلة، ويـصرون عـلى أننـا بخـير حـال، ثـم مـا نلبـث أن

نجد المشكلة وقد تفاقمت حتى أصبحت متجذرة مستعصية على الحل.

ويكون لدينا أخ نلحظ في بداياته عوامل انحراف كالكبر والغرور والكذب، فنتغافل عن كل ذلك بدعوى أن الأيام ستهذبه، وبدل أن نسعى لعلاجه وتربيته، نوكل إليه المهامّ التي تساعد على تفاقم أمراضه القلبية، فنكون وكأننا ألقيناه في النار بإنكارنا وجود الخلل أيام كان قليلًا قابلًا للعلاج.

دور المتنمّرين في نشر الوباء

تحدثت في الفقرة السابقة عن حالة الإنكار التي يمرُّ به بعض من يصابون بمرض الكورونا، وأشرتُ إلى أن قسمًا منهم يفعل ذلك هروبًا من مواجهة الواقع، غير أن هناك من يمارسون الإنكار العلني لإصابتهم، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم مصابون بالمرض، ولكنهم يخفون إصابتهم، ولعل (المتنمّرين) في المجتمع هم أول من يتحمل مسؤولية دفع هؤلاء لإخفاء إصابتهم بالمرض.

فبعض الناس في مجتمعنا – للأسف – يتعاملون مع مريض الكورونا كأنه مجرم، ويلاحقونه بنظرات اللوم والغضب والتعليقات الحادة، وكأنه اختار الإصابة بالمرض بنفسه، وهذا التصرف يدفع الكثيرين لإخفاء إصابتهم وإنكار مرضهم، بل والاستمرار في الاختلاط بالمجتمع خوفًا من تعرضهم لهذا التنمّر، وبالتالي يساهم ذلك في ازدياد انتشار المرض، وأعتقد أن (المتنمرين) هم أكثر من يتحمل مسؤولية ذلك.

<u>أما في ساحتنا الدعوية:</u>

فإن هناك متنمّرين أيضًا، فإن علموا بخطأ أحد إخوانهم سلوا عليه سيوفهم، وشحذوا في لومه ألسنتهم، وهؤلاء يدفعون من يقع في الخطأ من أبناء الدعوة ليخفي خطأه، ولو بالكذب على مسؤوليه ومن حوله، خوفًا من ردود فعل هؤلاء المتنمرين، وبدلًا من أن يسعى المخطئ لاستدراك

الخطـأ، ومعالجـة الخلـل، فـإن الخلـل يتجـذر، بـل ويتفاقـم، بينـما لـو كان هـؤلاء المتنمريـن رحـماء مـع إخوانهـم لأخـذوا بأيديهـم وانتشـلوهم مـن وحـل أخطائهـم، فحفظوهـم وحفظـوا دعوتهـم.

النظرة الشمولية

تعليقًا على مقتل القنطار

الأصل أن نحاول الاستفادة وأخذ الدروس والعبر من الأحداث وتفاعلاتنا معها، وعندما يقع إخواننا فيما نظن أنه خطأ في التعامل مع قضية ما فإن الواجب يلزمنا بأن ننصح وننتقد، ولكنه نصيحة المحب، وانتقاد الساعي للصلاح والإصلاح، لا الشامت الهادف للهدم والإفساد.

وفي عالمنا الذي نعيش فيه ليس هناك خير محض ولا شر محض، فالخير والشر مختلطان، والناس عمومًا يختلط الخير بالشر فيهم، وهذا من مقتضيات النقص في المخلوقات، وانعدام الكمال فيهم، وإنما يتفاوتون في الجانب الغالب عندهم، ففيهم من الخير فيه غالب، حتى لا يكاد الشر الذي فيه يستحق الذكر، وفيهم عكس ذلك، وبينهما درجات.

وعندما يكون مطلوبًا منك اتخاذ موقف من (إنسان) ممن اختلط الخير عنده بالشر، فكانت له إيجابيات تستحق الثناء عليها، وسلبيات يستوجب الذم لأجلها، فإنك كالماشي على جسر كحدّ السيف، يجب أن تحافظ على توازنك؛ لأنك ستقع إن مِلْتَ يمينًا أو يسارًا.

نموذج من القضايا الإشكالية التي واجهتنا، وأذكرها للاستفادة منها كانت مقتل اللبناني (سمير القنطار)، الذي قُتل بتاريخ (٢٠١٥/١٢/١٩) في قصف صهيوني على مبنى في مدينة (جرمانا) الواقعة جنوب العاصمة السورية دمشق، وكان القنطار، وهو درزي الديانة في الأصل، قد أمضى في سجون الاحتلال الصهيوني نحو (٢٦) عامًا، إثر مشاركته في عملية فدائية قامت بها مجموعة تابعة لـ (جبهة التحرير الفلسطينية) سنة ١٩٧٩، وتم تحريره في صفقة تبادل بين حزب الله اللبناني ودولة الاحتلال سنة ٢٠٠٥م.

(القنطـار) قُتـل في سـوريا حيـث كان مـع عنـاصر منظمـة (حـزب اللـه) الشـيعي اللبنـاني الذيـن وقفـوا مـع النظـام السـوري المجـرم ضـد الشـعب السـوري الثائـر طلبًـا لحقوقـه وحريتـه، ولكـن الـذي قتلـه لم يكـن ثـوار سـوريا، بـل قتلتـه دولـة الاحتـلال الصهيـوني، والصهاينـة يـبررون قتلـه بأنـه كان لمحاولتـه تهيئـة أرضيـة في جنـوب سـوريا لمهاجمـة دولـة الاحتـلال.

وعنـد مقتـل (القنطـار) أصـدرت عـدة جهـات بيانـات إدانـة لمقتلـه، كان منهـا حركـة حـماس التـي أصـدرت بيـانَ نعـيٍ أشـادت فيـه بالقنطـار ووصفتـه بـ (الشـهيد)، وقـد أثـار ذلـك زوبعـة عنـد كثـير مـن مؤيديهـا ومحبيهـا.

اختلفـت مواقـف النـاس مـن (القنطـار) بعـد مقتلـه، فبعـض النـاس نظـروا إلى الإيجابيـات في مـاضي الرجـل فمدحـوه، وتناسـوا مشـاركته في جرائـم النظـام السـوري، وآخـرون نظـروا إلى مـا مـات عليـه، وتناسـوا مـا مـضى مـن تاريخـه، وقـد ثـارت زوبعـة بـين الفريقـين، وكان كل فريـق منهـما متمترسًـا وراء موقفـه.

الذين مدحوا الرجل ركّزوا على نقطتين رئيستين، وهما:

- تاريخه في مقاومة الاحتلال.
- حقيقة أنه قُتل على أيدي الصهاينة.

أمـا الفريـق الآخـر – فريـق الذيـن ذمّـوه – فقـد نظـروا إلى أنـه نـاصر طاغـوت سـوريا الـذي قتـل وقهـر المسـلمين فيهـا، ولعلـه بنفسـه كان مسـاهمًا في قتـل وذبـح أهلنـا في سـوريا، ثـم إن الرجـل درزي، أي صاحـب عقيـدة فاسـدة، لا تنطبـق عليـه أحـكام الإسـلام.

وحتـى عندمـا احتـج الفريقان بقاعـدة أن (الأمـور تقاس بخواتيمهـا) **اختلفت نظرتهم، فالمدافعون عنه قالوا** أن خاتمتـه كانـت أنـه قتـل عـلى أيـدي الاحتـلال، والـذي لـولا أنـه يعلـم أن (القنطـار) يشـكل خطـرًا عليـه لم يقتلـه، والمهاجمـون لـه قالـوا أنـه وإن كان لـه تاريـخ نضـالي إلا أن الأمـور تقـاس

بخواتيمها، وخاتمته كانت محاربته للمسلمين.

من الواضح عند النظر إلى مواقف الطرفين، وهي مواقف متناقضة دفعت كثيرين من متبنيها إلى شتم ومهاجمة وتخوين وحتى تكفير الفريق الآخر، من الواضح أن الطرفين وقعا في مشكلة (النظرة الجزئية) للصورة، فكل فريق نظر من زاوية واحدة، وأهمل الزاوية الأخرى، وقَصرُ النظر على جزء واحد من الصورة يؤدي إلى التضليل.

نحن بحاجة إلى (نظرة شمولية) تلحظ الصورة كاملة من زواياها المختلفة، ولو نظرنا مثل تلك النظرة لتبين لنا ما يلي:

الرجل له مواقف في مقاومة الاحتلال سواء اختلفنا معه أو اتفقنا، ولا يمكن أن نهمل هذه المواقف، وقتله على يد الاحتلال يشي بأن لدى الاحتلال معلومات مفادها أنه كان يخطط لاستهداف العدو الصهيوني، وأخلاق الأحرار تأبى الشماتة فيمن قتله الاحتلال حتى لو كان خصمًا، كما أن حقيقة أن الرجل قتله العدو يجب أن تمنعنا من التصفيق لجريمة العدو مهما بلغت درجة اختلافنا مع (القنطار).

ولكن في المقابل فإن الرجل قتل في فتنة هو فيها في طرف الباطل الذي لا مراء فيه، ولا مبرر لوجوده في سوريا مع قوات (حزب الله) المتحالف مع النظام السوري المجرم، ومن مات أو قتل وهو يقاتل المسلمين باغيًا عليهم لا يستحق لقب الشهيد؛ لأن الشهادة لفظ شرعي تطلق على من قاتل في سبيل الله، ومن مات في سبيل الله، وعلى أصناف أخرى منهم الميت تحت الهدم، والغريق والحريق... الخ،، وليس منهم من مات وهو يقاتل المسلمين باغيًا عليهم.

وعند ملاحظة مجموع الأمرين، مع استحضار أن الثناء على من كانت له سابقة خير بسابقته، حتى لو كانت خاتمته خاتمة سوء له أصل، فقد

أمـر الرسـول ﷺ شـاعره حسـان بـن ثابـت رضي الله عنه برثـاء المطعـم بـن عـدي، وكان قـد مـات قبـل معركـة بـدر عـلى شركـه – وهـل بعـد الـشرك ذنـب؟ – أمـره برثائـه لمواقـف طيبـة كانـت لـه مـع المسـلمين وهـم في مكـة، فقـال فيـه حسـان (كـما في الموسـوعة في صحيـح السـيرة النبويـة، ص٣٥٩):

أيـا عـين فـابـكي سيد القوم واسفحي   بـدمـع وإن أنـزفـتـه فاسـكبي الدما

فـلـو كــان مجدٌ يخلد الدهرَ واحـدًا   من الناس، أبقى مجدُه اليوم مطعما

أجـرتَ رسـولَ الله منهم فأصبـحوا   عـبيـدك مـا لـبّـى مُـهِـلٌّ وأحــرمـا

فـلـو سُـئِلت عـنـه معدٌّ بأسـرها   وقـحـطـان أو بـاقـي بـقـية جـرهما

لـقـالـوا هـو الـمُوفـي بخـفرة جاره   وذمّـتــه يـومًـا إذا مــا تـذمّـمــا

وهـذا يصـل بنـا إلى أنـه لا ينبغـي أن نهاجـم (القنطـار)؛ لأن الفرحـة بتحقـق غايـات الأعـداء غـير محمـودة، ولا ينبغـي إظهارهـا، حتـى لـو كان في تحقـق غاياتهـم تحقيـق مـراد لنـا، وفي نفـس الوقـت لا ينبغـي أن نـسرف في الثنـاء عليه وننـسى جرائمـه، بـل ولا يجـوز أن نطلـق عليـه اسـم (الشـهيد)؛ لأنـه مـات وهـو يقاتـل المسـلمين باغيًـا عليهـم، ولذلـك فـإن بيـان حـماس في نعيـه لم يعجبنـي، ولكنـي أعتـبر أن حـماس (أخطـأت) في اجتهادهـا، ولم ترتكـب (جريمـة).

ولـو كنـت معلقًـا عـلى اغتيـال القنطـار آخـذً بعـين الاعتبـار النظـرة الشـمولية للمسـألة، لجعلـت التعليـق في النقـاط التاليـة:

- اسـتنكار وإدانـة اعتـداء الصهاينـة عـلى بـلاد المسـلمين، واسـتباحتهم أرضنـا.
- التذكـير بـأن الذيـن يحاولـون اسـتلاب الشـعوب حقهـا في الحريـة وتقريـر مصيرهـا هـم الذيـن تسـببوا في هـذا الصَّغـار الـذي تتعـرض لـه الأمـة.
- التذكـير بالجزئيـة المشرفـة في تاريـخ القنطـار، مع الإشـارة إلى أن الشـعب

الفلسطيني لا ينسى من ناضل معه ضد عدوه، مع دعوة أبناء الأمة لإعادة توجيه البوصلة إلى القضية الأساس.

- كل ذلك دون ترحم ولا منح ألقاب.

استدراك:

الراجح في شأن ديانة (سمير القنطار)، الذي ولد سنة (١٩٦٢ م) درزيًا أنه اعتنق الإسلام وفق المذهب الشيعي الجعفري الإثني عشري، وكان اعتناقه للتشيع قد حدث وهو في سجون الاحتلال الصهيوني سنة (٢٠٠٥ م)، حين كان يعيش مع أسرى حزب الله، مما يؤكد تشيعه وتركه للديانة الدرزية أنه - بعد تحرره سنة ٢٠٠٨ م في عملية تبادل للأسرى بين حزب الله ودولة الاحتلال - تزوج من إعلامية لبنانية شيعية، اسمها (زينب البرجاوي)، كانت تعمل في قناة العالم الإيرانية، وعاش في الضاحية الجنوبية لبيروت ذات الغالبية الشيعية، وهي معقل (حزب الله)، وعند مقتله شيعه «حزب الله» اللبناني في جنازة أمّ المصلين فيها الشيخ (هاشم صفي الدين)، رئيس المجلس التنفيذي لـ (حزب الله).

وعليه، ورغم أن المذهب الشيعي الجعفري مذهب مبتدع، إلا أن جمهور علماء المسلمين على عدم تكفير عامة الناس من معتنقيه، رغم تلبّسهم ببدع عقائدية مستنكرة، فيكون ضمن عموم الموحدين.

بين المداراة والمداهنة

إحدى الإشكاليات التي يعاني منها أبناء التيار الإسلامي، سواء في تصرفاتهم بأنفسهم أو في نظرتهم لتصرفات غيرهم، هي عدم القدرة على التمييز بين المداراة والمداهنة.

والمصطلحان متقاربان في أصل معناهما، إذ كلاهما يتضمن معنى (الملاينة) مع الآخر، وفي اللغة أصل (المداراة) مشتق من الفعل (درأ) وأصل معناه دفعُ الشيء[1]،

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢﴾ [الرعد: ٢٢]، ومعناه هنا - كما ذكر الطبري في تفسيره -: «ويدفعون إساءة من أساء إليهم من الناس، بالإحسان إليهم»[2].

وقد ورد نفس التعبير القرآني في موضع آخر، ضمن سياق آخر، في الحديث عن المؤمنين، وهو قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: ٥٤]، وفي هذا الموضع فإن معنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، أي: «ويدفعون بحسنات أفعالهم التي يفعلونها سيئاتهم»[3].

وقد ذكر الجوهري أن معنى قولك (داريته) أي اتقيته ولاينته[4].

أما (المداهنة) فهي مشتقة من الفعل (دهن)، وأصله كما ذكر ابن فارس يدل على «لين وسهولة وقلة»، ومعنى قولك: (داهنت الرجل) أي واربته

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ٢/ ٢٧١.

(٢) تفسير الطبري (ط هجر)، ١٣/ ٥١٠.

(٣) تفسير الطبري (ط هجر)، ١٨/ ٢٨٠

(٤) الصحاح للجوهري، ١/ ٤٩.

وأظهرت له خلاف ما أضمر له[1].

وقد ذكر المفسرون في معاني قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم: ٩]، أن المقصود هو أن المشركين ودّوا يا محمد لو تلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهتهم، فيلينون لك في عبادتك إلهك، وهو القول الذي رجحه الطبري، وذكر أن المعنى مأخوذ من (الدهن)، وقد شُبّه فيه التليين في القول بتليين الدهن[2].

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾ [الواقعة: ٨١]، ذكر المفسرون أن معناه «أفبهذا القرآن الذي أنبأتكم خبره، وقصصت عليكم أمره أيها الناس أنتم تلينون القول للمكذبين به، ممالأة منكم لهم على التكذيب به والكفر»[3].

وفي عالم الواقع، وبالذات في عالم السياسة، تضطر للتعامل مع أناس لا تطيقهم، فتلين لهم اتقاء شرّهم، وهنا يظهر الفرق بين المداراة والمداهنة، ويظهر اختلافهما.

فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي في (إحياء علوم الدين) في باب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أن وجوب إنكار المنكر يسقط إذا خاف المُنكِرُ مكروهًا يناله، فإذا تعارضت الظنون عنده، وترجح عنده حصول المكروه سقط الوجوب، ولكن الترجيح هنا ينبغي أن يكون بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع، فإن رجّح بموجب الدين سمي سكوته عن النهي عن المنكر (مداراة)، وإن رجّح بموجب الهوى سمى سكوته (مداهنة)[4].

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ٢/ ٣٠٨.

(٢) تفسير الطبري (ط هجر)، ٢٣/ ١٥٧.

(٣) تفسير الطبري (ط هجر)، ٢٢/ ٣٦٧.

(٤) إحياء علوم الدين (ط دار المنهاج) ٤/ ٥٨٩.

ووفـق كلامـه فـإن المـداراة والمداهنـة تختلفـان مـن حيـث الغـرض الباعـث عليهـما؛ فـإن كان الباعـث عـلى إلانـة القـول للشرّيـر الفاسـق سـلامة الديـن والإصـلاح فهـي مـداراة، وإن كان الباعـث حـظُّ النفـس واجتـلاب الشـهوات وسـلامة الجـاه فهـي مداهنـة.

وقـد كان النبـي ﷺ ينبسـط إلى بعـض النـاس مـن المنافقـين تألُّفًـا لهـم واتقـاءً لشرِّهـم، وقـال لمّـا سـئل عـن ذلـك (**إِنَّ شَرَّ النَّـاسِ عِنْـدَ اللَّـهِ مَنْزِلَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَةِ مَـنْ تَرَكَـهُ النَّـاسُ اتِّقَـاءَ شَرِّهِ**)[1]، ونقـل البخـاري - في أول بـاب (الْمُـدَارَاةِ مَـعَ النَّـاسِ) عـن أبي الـدرداء رضي الله عنه قولـه: (**إِنَّـا لَنَكْـشِرُ – بمعنـى نضحـك – فِي وُجُـوهِ أَقْـوَامٍ، وَإِنَّ قُلُوبَنَـا لَتَلْعَنُهُـمْ**).

فينبغـي للفَطِـن الواعـي مـن أبنـاء الإسـلام أن يـدرب نفسـه عـلى التمييـز بـين المـداراة والمداهنـة، ليأخـذ بذلـك في خاصـة نفسـه عندمـا يكـون مطلوبًـا منـه - كشـخص - اتخـاذ موقـف، وليسـتطيع الحكـم عـلى تصرفـات الآخريـن، وفيهـم إخوانـه، فـلا يـسيء الظـن بهـم في أمـر لهـم فيـه سـعة.

ونحـن في هـذا الواقـع الـذي نحيـاه مضطـرون في كثـير مـن الأحيـان لمـداراة بعـض الأشرار، تحصيـلًا لمصلحـة للديـن والدعـوة، لا لمصلحـة شـخصية، وذلـك دون التنـازل عـن شيء مـن ثوابـت الديـن، وقـد قـال المتنبـي في تحـسّره عـلى حـال الدنيـا:

ومِن نَكَدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى　　عدوًّا له ما مِن صداقته بُدُّ

ولـو قـال (مـا مـن مداراتـه بُـدٌّ)، لـكان أفضـل، فالصداقـة لا تُتخيَّـل مـع العـدوِّ أصلًا.

---

(١) صحيح البخاري، ح ٦٠٣٢، في باب (الْمُدَارَاةِ مَعَ النَّاسِ).

الأسرى والمواقع التنظيمية[(١)]

قـرأت كثـيرًا مـن الانتقـادات الموجهـة لحركـة فتـح لعـدم منح القائـد الأسـير مـروان البرغـوثي منصبًـا في تشـكيلتها التـي أعلنتهـا.

بغـضِّ النظـر عـن موقفـي مـن حركـة فتـح في وضعهـا الحـالي وصراعاتهـا الداخليـة إلا أن الموضـوع الـذي كان موضـع النقـد، وهـو تعيـين أسـير في منصب فعـلي في حركـة فاعلـة يحتـاج وقفـة وتعليقًـا.

لا شـك أن الأسرى لهـم رمزيـة يجـب أن نحافـظ عليهـا، ويجـب أن لا نهمـل تضحياتهـم، وأن نحافـظ عـلى التفـاف النـاس حولهـم، ولكـن، وبعيـدًا عـن التفكـير العاطفـي:

هل من المنطقي أن يتم تعيين شخص وهو أسير في موقع تنفيذي ؟؟؟

لقـد عشـت في السـجن نحـو (١٠) سـنوات، وأعـرف طبيعـة حيـاة السـجن، وطبيعـة تفكـير الأسـير المضطـر للحكـم عـلى الأشـياء بنـاء عـلى الواقـع المحـدود الضيـق الـذي يحيـاه، والمعلومـات القـاصرة التـي يعرفهـا، والـذي أراه وأوقـن بـه أنـه لا يجـوز مطلقًـا أن يتـم تكليـف أسـير بمهمـة تنفيذيـة تحتـاج عمـلًا، لأننـا نظلمـه ونظلـم المهمـة التـي يجـب أن يتولاهـا شـخص يقـوم بأعبائهـا.

وقـد يطـرح البعـض هنـا اقتراحًـا مفـاده أنـه يمكـن تعيـين (الشخصية الأسـيرة) في أحـد المناصـب، ثـم يُكلّـف آخـر بإشـغال المنصـب كقائـم بأعمالـه، وهـي فكـرة وإن كانـت تدغـدغ العواطـف، غـير أنهـا غـير عمليـة، إذ الـذي يتـولى

---

(١) عقـدت اللجنـة المركزيـة لحركـة التحريـر الوطنـي الفلسـطينية (فتـح)، اجتماعًـا بتاريـخ (١٥/ ٢/ ٢٠١٧) وزعـت فيـه المناصـب والمهـام داخـل اللجنـة، ومـن ضمـن ذلـك تـم تعيـين (محمـود العالـول) في منصـب نائـب رئيـس الحركـة، وهـو المنصـب الـذي كان تيـار (مـروان البرغـوثي) داخـل فتـح يطمـع في أن يتـم إسـناده لــ (مـروان)، الـذي لم يتـم توكيـل أي مسـؤولية أو منصـب لـه خـلال الاجتـماع، وقـد ثـارت انتقـادات كثـيرة عـلى مـا اعتـبره كثـيرون تهميشًـا لــ (مـروان) كشـخص، ولـلأسرى كحالـة اعتباريـة.

منصبًا بالإنابـة لـن يكـون مبدعًـا ومطلـق التـصرف كالـذي يتـولى المنصـب بالأصالـة.

أمـا المناصـب الشـورية التـي يظـن البعـض أنـه يمكـن لـلأسرى القيـام بـدور فيها يسـاهمون مـن خلالـه في التعبـير عـن رأي شريـح مهمـة مـن أبنـاء الحـركات المناضلـة فـإني أرى أن هنـاك عوائـق تجعـل الفائـدة مـن آرائهـم منعدمـة أو سـلبية أو ضعيفـة.

وهنـا لا بـدَّ مـن الإشـارة إلى أننـا لا يجـوز أن نعمـي أعيننـا عـن حقائـق هامـة في هـذا الموضـوع، أعنـي موضـوع المشـاركة الشـورية لـلأسرى، والعوائـق التـي تعترضـه، فـالأسرى في السـجون يمكـن تصنيفهـم إلى أربعـة أقسـام:

- قسـم ليسـوا أصـلًا مـن أهـل الحـل والعقـد الذيـن يتوجـب مشـاورتهم؛ لصغـر سـنّهم، أو لحداثـة انتمائهـم، أو لقلـة خبرتهـم.
- قسـم ثـانٍ لم يكونـوا مـن أهـل الحـل والعقـد والاطـلاع عـلى شـؤون وخفايـا العمـل في الخـارج، ولكنهـم صـاروا مـن أهـل الحـل والعقـد في السـجون التي شـغلوا فيهـا مناصـب إداريـة في تنظيـمات السـجون.

  وهـؤلاء تقتـصر خبرتهـم الحياتيـة والتنظيميـة عـلى مـا يجـري داخـل مجتمع السـجن، هـو مجتمـع محـدود، ظروفـه تغايـر ظـروف مجتمـع الخـارج بشـكل واضـح، ولأجـل ذلـك فمهـما كان المنصـب الـذي وصلـوا إليـه داخـل السـجن فـإن قدرتهـم عـلى إبـداء الـرأي يشـوبها خلـل، وهـؤلاء لا ينبغـي أن يتدخلـوا في غـير شـؤون السـجون التـي هـم فيهـا.
- قسـم ثالـث كانـوا مـن أهـل والعقـد في الخـارج، وهـم في الأصـل أهـل لإبداء الـرأي، غـير أنـه قـد مـضى عـلى سـجنهم مـدة طويلـة جعلـت معرفتهـم بتفاصيـل القضايـا التـي تـدور خـارج السـجون تـذوي مـع التغـير الهائـل الحاصـل في المجتمـع والمواقـف وطبائـع النـاس وعلاقاتهـم.

  وهـؤلاء يمكـن أن يشـاوروا للاسـتئناس برأيهـم، مـع ملاحظـة وجـود الخلـل

الـذي سأشـير إليـه مـع القسـم الرابـع.

- القسـم الرابـع هـم الذيـن كانـوا أهـل الحـل والعقـد في السـاحات خـارج السـجون، وهـؤلاء في الغالـب يكونـون مـن المعتقلـين الإداريـين، أو ذوي الأحـكام القليلـة، أو ممـن لم تمـض عـلى اعتقالهـم فـترات طويلـة تجعلهـم غائبـين أو مغيبـين عـن اسـتقراء الوضـع في الخـارج.

وهــؤلاء هــم الفئــة الوحيــدة التــي يمكــن أن يكــون لمشــاورتها فائــدة حقيقيـة، لـولا وجـود خلـل خطـير - يشـتركون هـم والقسـم الثالـث فيـه - يتمثـل في صعوبـة وصـول الصـورة الكاملـة للقضيـة محـل الاستشـارة في غالـب الأحيـان، إذ الإدلاء بالـرأي الشـوريّ يحتـاج (القـدرة عـلى الحكـم عـلى الأمـور)، وهـي متوفـرة عندهـم كـما هـو المفـترض، و(القـدرة عـلى تصـور المسـألة موضـع النقـاش)، وهـي النقطـة التـي لا يمكـن تحقيقهـا إلا بمغامـرة تتضمـن الكشـف عـن كل عنـاصر القضيـة للاحتـلال الـذي يراقـب اتصـالات الأسرى.

قـد يصلـح أن يُعطـى الأسـير في تنظيمـه منصبًـا (شَرَفيًّـا)، ولكـن عـلى أن لا تأخذنـا العاطفـة ونظـن أن لديـه القـدرة عـلى أكـثر مـن ذلـك.

وأنـا أعلـم أن الكثيريـن سـيغضبون مـن كلامـي هـذا، وقـد يظنـون أن فيـه انتقاصًـا مـن أهميـة الأسرى ودورهـم، ولكـن الحقيقـة المـرة أن الأسـير لا يملـك مـن أمـره شـيئًا، وبالتـالي لا يجـوز أن نملّكـه أمـر غـيره.

التفكير خارج الصندوق مباح

في ظل الأزمة التي تعيشها الضفة الغربية، والتي يعتبر (التهميش) أبرز معالمها، يقوم البعض بالتفكير بصوت عالٍ والبحث عن حلول لهذه المعضلة، فتجد بعض المعلّقين (الفيسبوكيين) يهاجمون ويتهمون ويخوّنون، وذلك بدلًا من أن يناقشوا المقترح أو الفكرة بعقلانية.

قد تكون بعض الحلول والمقترحات غريبة، وخارجة عن سياق المألوف، وقد تلامس (قضايا) يعتبر البعضُ النقاشَ فيها من المحرمات، ولكن الذي علينا أن ندركه هو أن حلَّ المعضلات لا يكون غالبًا إلا بالتفكير بطريقة خارجة عن المألوف.

دعوا الناس يفكرون، دعوهم يقترحون الحلول حتى المجنون منها، ولا تقمعوهم، ولا تصادروا حريتهم في التفكير، فالذين يفكرون بصوت عالٍ قد يزعج البعض هم في الغالب من المخلصين الذين احترقت قلوبهم لسوء الأوضاع التي نعاني منها.

وعندما يفكر البعض منا في حلولٍ لأزمتنا فعلى (البعيدين) عن الواقع الذي نحياه الوقوف جانبًا، لأن أهل مكة أدرى بشعابها.

ومن نافلة القول التأكيد على أنه ليس بالضرورة أن تكون كل فكرة جديدة تطرح إيجابية، ولكن كون الذي طرحها أخطأ في تقديره لا يعني أن نهاجمه، بل المطلوب النقاش العقلاني.

فالذي يرى أن الفكرة خاطئة من حقه – بل من واجبه – أن يناقشها ويعترض عليها، وليس في مجرد الاعتراض على الفكرة تخوينٌ لقائلها، فالنقاش مطلوب، وبه نستطيع الوصول للرأي الأقرب للصواب، ولكن أن يُتَّهم صاحب الرأي بأن في عقيدته خللًا، وأنه يعمل مع جماعة عباس وماجد ... الخ، إن هذا (تخوينٌ) وليس نقاشًا موضوعيًّا، وإن لم يكن هذا

تخوينًـا فـلا أدري مـا التخويـن؟!

نريد أن نرتقي في نقاشاتنا ونتحاور بالعقل دون الطعن في النوايا.

توضيح

سـبب كتابـة المنشـور أن أحـد الإخـوة الأفاضـل كان قـد نـشر عـلى جـدار صفحتـه يقـول: (حـزب جديـد؛ الوضـع الاجتماعـي والاقتصـادي والأخلاقـي والدعـوي في الضفـة في تراجـع، فضًـلا عـن فشـل المـشروع الوطنـي واندحـاره. ولربمـا وصـل للارتهـان بيـد العـدو. وقـد بتنـا نعيـش في ضيـاع تـام. عـلى جميـع الصعـد، فـما الحـل؟

إن كانـت غـزة تحـاول لملمـة جراحهـا. ونحـن تحـت مطرقـة الاحتـلال وسـنديان السـلطة. فهـل هـذا يمنـع الإقـدام والتضحيـة ووضـع يدنـا بأيـدي شرفـاء شـعبنا والتعـالي عـن الجـراح، والالتفـات لهمـوم شـعبنا ومسـتقبل أولادنـا؟

إن السـلطة لا تريـد عمـلًا مقاومًـا عـالي الوتـيرة بشـكل عـام. ومنـا بشـكل خاص لا تسـمح بـشيء حفاظـا عـلى مصالحهـا، لكـن هـذا ليـس موقـف عمـوم فتـح وباقـي الشـعب. ونحـن لا نسـتطيع أن نقـاوم بعمـل عسـكري مـؤرق للاحتـلال، وعـدم قدرتنـا لذلـك لا يعنـي تـرك بقيـة الجوانـب الاجتماعيـة والدعوية....الـخ. فلـمَ لا نتوجـه لتأسـيس حـزب سـياسي اجتماعـي لغـير العسـكريين يهتـم بهـذه النواحـي؟) اهـ.

وقـد علـق عديـدون عـلى هـذا المنشـور بمـا يتضمـن تخويـن ذلـك الأخ، واتهامـه بأنـه يتسـاوق مـع السـلطة ورئيسـها، وأنـه يسـوّق هـذه الفكـرة لتخليـص السـلطة مـن أزمتهـا وإظهـار حـماس منقسـمة.

كلامنا ورقباء العالم كله

كان القـادة الإسـلاميون قديمًـا يتحدثـون - في الغالـب - في أوسـاط شـبابهم، وأحيانًـا في تجمعـات غالبهـا مؤيـد لهم، فيبوحـون بما في صدورهم، ويسـتخدمون أحيانًـا تعبـيرات مجازيّـة يفهمهـا سـامعوهم بسـهولة بسـبب الخلفيـة الثقافيـة المشـتركة بينهـم، ولم يكـن في ذلـك الوقـت مـن يتتبـع كل كلمـة قالوهـا، بـل كل همسـة همسـوها، ولذلـك فقـد تعـودوا عـلى إلقـاء الـكلام عـلى عواهنـه دون مراعـاة مـا يمكـن أن يسـاء فهمـه منـه.

أمـا اليـوم فـكل كلمـة تصـدر مـن أحدهـم تجـد العـشرات مـن الأجهـزة والمؤسسـات تترصدهـا وتبحـث فيـما وراءهـا مـن مدلـولات، ومـا يمكـن أن تـدلّ عليـه مـن مخططـات مزعومـة!

الكلمـة التـي كنـت تقولهـا في الأسرة أو المحـاضرة أو خطبـة الجمعـة، والمسـتندة إلى العاطفـة أكـثر مـن اسـتنادها إلى العقلانيـة انقـضى زمنهـا.

عـلى الواحـد منّـا أن يعـدَّ إلى العـشرة قبـل النطـق بـأي كلمـة، وأرى لزومًـا عـلى (الرسـميين) أن تكـون (كل) كلماتهـم التـي يلقونهـا مكتوبـة ومُراجعـةً مـن أهـل الخـبرة، لئـلا نقـع فيـما لا يحمـد عقبـاه، كـما فعلنـا مـرارًا ولم نتعلـم.

اتهام النوايا

في انتخابات المجلس البلد لمدينة الخليل سنة (٢٠١٧ م) كانت هناك كتلة مرشحة مدعومة من الحركة، بشكل لم يكن واضحًا بجلاء للجميع، وكان بعض الإخوة من الفضلاء من أبناء الحركة قد اتخذوا موقفًا وقفوا فيه مع كتل أخرى، وقد هاجمهم بعض إخواننا من أبناء الحركة هجومًا لاذعًا، فنشرت على صفحتي في الفيسبوك منشورًا أدعو فيه لالتماس العذر لبعض هؤلاء الإخوة على موقفهم من الانتخابات، فأرسل لي أحد الشباب الذين أحبهم رسالة يسألني عمّا نشرته، وقال في كلامه: (أليس من الدين - كما علمتمونا - أن نقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت؟؟ فلماذا التبرير لهم شيخي؟؟ ولماذا لا نبين لهم أنهم أخطأوا، حتى وإن كنا نحبهم ونحترمهم).

فأرسلت رسالة لهذا الأخ لتوضيح المسألة، قلت له فيها:

نعم؛ يجب أن نعتاد على النقد والقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأتَ، وبدون ذلك فلن نستطيع تصويب مسيرتنا، ولا ترشيد عملنا وسلوكنا.

ولكن هناك أمرًا آخر يجب أن لا يغيب عنا ونحن نمارس النقد، وهو من الشروط اللازمة ليكون النقد إيجابيًّا واعيًا، وهي مسألة أننا يجب أن نحكم على الظواهر وأن لا نتدخل في السرائر والنوايا.

المسألة التي كانت موضع النقاش والخلاف خلال الأيام الماضية، وهي الانتخابات البلدية ومع من يجب أن نقف فيها مسألة اجتهادية، والمسائل الاجتهادية ليس فيها صواب مطلق ولا خطأ مطلق، ويجب فيها أن نبقى ملاحظين أن (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب).

الذي انتقدته في منشوري السابق، وفي غيره من منشوراتي هو (التطرف) في اتهام الإخوة بأن (الدافع الوحيد) لهم للوقوف مع من وقفوا معه

في الانتخابات هو (العصبية العشائرية)، وهذا الاتهام تم توجيهه لإخوة فضلاء، ليسوا ممن يبيعون دينهم ومبدأهم لأجل عصبية عشائرية، وهؤلاء اشتبه على الناس أمرهم لأن اجتهادهم في أن الكتلة الفلانية هي الأصلح تصادف معه أن من فيها هم من أقاربهم، وأنا هنا لا أنفي إمكانية أن يكون للقرابة دور في ميلهم، فكلنا بشر، ولكني لا أجيز لنفسي ولا لغيري أن نتهمهم في نواياهم، ونجعل (العصبية) هي الدافع الأوحد لهم في اتخاذهم موقفهم، وخصوصًا أن لهم مبررات فيها (منطق) وافقهم عليه عدد آخر من الإخوة الأفاضل ممن ليست لهم قرابة مع هؤلاء المرشحين، وإن كنت شخصيًا لم أقتنع بهذا (المنطق)، ولكن من الذي قال أنني أمتلك الحقيقة المطلقة؟؟؟

ولا شك أن بعض الشباب ممن ينتمون إلى التيار الإسلامي ولم تكتمل تربيتهم كان دافع العصبية هذا موجودًا عندهم، وهو أمر طبيعي (وإن كان مرفوضًا ويلزمه علاج)، فحتى الصحابة الكرام كانت هذه النزعة تبدو عند بعضهم أحيانًا، ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه قال: (**غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا**[1]**، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ؟ ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ المُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**)[2].

ودور الدعاة هو أن يعالجوا مثل هذا الخلل، ولا يتأتى ذلك بين يوم وليلة،

---

(١) الكَسْعُ هو أن يضرِب الواحد الآخر برجله أو بيده على مؤخره، وهو بلهجتنا العامية أن يضربه (شلُّوطًا). ينظر: الصحاح للجوهري، ومقاييس اللغة لابن فارس، مادة (كسع).

(٢) صحيح البخاري، ح ٣٥١٨، صحيح مسلم، ح ٢٥٨٤

فحتــى الصحــابي الجليــل أبــو ذر رضي الله عنه، قــال لــه الرســول صلى الله عليه وسلم: (**إنــكَ امــرؤٌ فِيــكَ جاهِلِيّــة**)[1] رغـم أنـه كان قديـم الإسـلام.

نعـم يجـب أن (نقـول للمحسـن أحسـنت، وللمـسيء أسـأت) وأن (نبـين لهـم أنهـم أخطـأوا، حتـى وإن كنـا نحبهـم ونحترمهـم)

ولكن لا يجوز أن نتهم النوايا وندعي علم ما في القلوب.

---

(١) صحيح البخاري، ح ٣٠، ح ٦٠٥٠، صحيح مسلم، ح ١٦٦١

المعالجة الوقائية لانحراف الفكر

الانحراف الفكري، كالانحراف الذي عند الدواعش، وعند الحداثيين، والذين يسمون أنفسهم القرآنيين، وأمثال هؤلاء بحاجة إلى علاج فكري، وإلى تربية فكرية سليمة نفتقدها.

في كثير من الأحيان نفطن لضرورة المعالجة الفكرية بعد حدوث الانحراف، وهو لا شك أمر مطلوب، ولكن تجربتنا علمتنا أن نتائج هذه المعالجة ضعيفة متواضعة، إذ هؤلاء المنحرفون قد أحاطوا عقولهم - في الغالب - بحواجز من (الغباء) ورفض سماع القول الآخر ابتداءً، وهنا تأتي أهمية المعالجة بالطرق الأخرى.

والنقطة الأهم والواجبة وجوبًا متعيّنًا هي (المعالجة الوقائية) لنحفظ الجيل القادم من الوقوع في براثن هذا الفكر المنحرف.

والمعالجة الوقائية تعني أن نعالج الانحراف قبل حدوثه، وذلك عبر طريقين مهمين:

- نشر العلم والثقافة الشرعية، وتعليم أبنائنا المنهج الصحيح للفهم.

  وللأسف فإن لدينا في هذا الجانب تقصيرًا واضحًا، سببه غياب الشباب، بما فيهم أبناء الحركات الإسلامية، عن المساجد التي هي المحاضن الأساسية لترشيد الفكر، وتوفير الثقافة الشرعية المنضبطة.

- تعزيز ثقة أبنائنا بعلمائهم ليتبعوهم فيما يشتبه عليهم من أمور.

  وهنا لا بدّ من أن يكون للعلماء أنفسهم دور في أن يكونوا بأنفسهم قدوات صالحة تحبب جيل الشباب فيهم، وتقربهم منهم، وتعزز ثقتهم بهم، كما أن واجب الواعين من أبناء الحركة هو أن يظهروا التوقير والاحترام للعلماء الراسخين، ليعززوا الثقة بهم والالتزام بتوجيهاتهم

إدراك أسباب الفوز

عندما تحقق فوزاً في انتخابات ما، كالانتخابات الجامعية، فإنّ من المهم الضروري أن تدرك أسباب فوزك وأسباب فشل خصمك، لأنك إن لم تدرك ذلك على وجهه الصحيح ستكون كالطبيب الذي (يشخّص) الحالة (تشخيصًا) خاطئًا، فيبني على ذلك خطة علاج قد تكون مدمّرة.

(الإسلاميون) في كثير من الأحيان (يعتقدون) أنهم يفوزون لأنهم يحملون راية الإسلام، ويدافعون عنها، ترى ماذا لو كان هذا الكلام غير دقيق مئة بالمئة؟!

إن الذي ينطلق في تخطيط نشاطه من فرضية ما سيعتمد عليها كأساس لخطته، فالذي يفترض من الإسلاميين في موضوع الانتخابات أن الناس ينتخبونهم ويقدمونهم على غيرهم لنهم يرفعون راية الدين سيركز في (ترويجه) لنفسه على هذا الأمر، و(يُغفل) غيره من العوامل، أو يتعامل معها كعوامل ثانوية، فإذا كانت الفرضية الأصلية غير صحيحة فإن النتيجة ستكون خسارات متلاحقة يُمْنَى بها أصحاب تلك الفرضية، ولذلك لا بدّ لنا من وقفة لترشيد المسار، وضمان وضع الأمور في نصابها الصحيح.

في جامعة (بير زيت) حققت الكتلة الإسلامية في انتخابات مجلس الطلبة إنجازًا رائعًا، حيث حصدت (٢٤) مقعدًا من مقاعد المؤتمر الطلابي العام البالغ عددها (٥١) مقعدًا، بينما حصلت كتلة فتح على (٢٣) مقعدًا، وفاز الكتلة التابعة لليسار (الجبهة الشعبية) بـ (٤) مقاعد.

تعتبر هذه النتائج في ظل حالة القمع والتهميش التي تعيشها الضفة الغربية نتائج ممتازة، ويعتبر الإنجاز الذي حققته الكتلة الإسلامية في جامعة بير زيت إنجازًا رائعًا، ولكن من الخطأ أن نحمّل هذا الإنجاز أكبر مما يحتمل، فقد قرأت للعديد من المتابعين ما مفاده أن هذا الفوز

يعنـي أن الناخبـين انحـازوا إلى البرنامـج السـياسي للكتلـة الإسـلامية، ولخيـار المقاومـة، بـل وحتـى لأفـكار التيـار الإسـلامي.

الخطـر في هـذه الدعـوى أنهـا تعطـي الطـرف الآخـر حـق الاحتجـاج بنفـس المنطـق لـو فـاز في الانتخابـات في نفـس الجامعـة في وقـت لاحـق، أو في فـاز في مواقـع أخـرى، فإنـه حينهـا سـيقول أن فـوزه يعنـي انحيـاز الأغلبيـة إلى مشروعـه السـياسي، وهـو ادّعـاء غـير صحيـح ولا مقبـول.

كـما أن هنـاك خطـرًا آخـر مـن وراء تلـك الدعـوى، قـد لا ينتبـه إليـه الكثـيرون، إذ لـو زعمنـا أن فـوز الكتلـة الإسـلامية انحيـازٌ للفكـرة الإسـلامية فسـيخرج لنـا مـن يقـول كلامـك غـير صحيـح، فالكتلـة الإسـلامية حصلـت عـلى (٤٦٪) فقـط مـن مجمـل أصـوات الناخبـين، بينـما حصلـت فتـح واليسـار (وهـم الذيـن لا يتبنـون الإسـلام مبـدأً وشـعارًا) عـلى (٥٤٪) مـن هـذه الأصـوات؟ وهـذا يعنـي أن مؤيـدي (الفكـرة الإسـلامية) هـم الأقليـة في مجتمعنـا؟؟!!

يجـب أن ننتبـه إلى ضرورة أن لا نحمّـل الأحـداث أكـثر مـما تحتمـل، وإلا دخلنـا في التناقـض مـع أنفسـنا وخسرنـا الواعـين المدركـين ممـن يؤيـدون أفكارنـا.

كـما يجـب أن ننتبـه إلى أن عمـوم النـاس في أي انتخابـات لهـم دوافـع عديـدة للتصويـت، والدافـع السـياسي واحـد منهـا، وليـس كلهـا، ولا شـك - بالطبـع - أن عـددًا مـن الناخبـين يدلـون بأصواتهـم بنـاءً عـلى تأييدهـم للبرنامـج السـياسي للجهـة التـي يختارونهـا، ولكـن هـذا لا يكفـي لتحليـل وفهـم سـلوك الناخبـين.

رسـالتي إلى أبنـائي مـن الطلبـة في الجامعـات، وعبرهـم إلى كل مـن يخـوض الانتخابـات مـن أبنـاء التيـار الإسـلامي:

- هنـاك فئـة سـتنتخبكم لأنكـم تحملـون رايـة الإسـلام، وهـؤلاء لـن ينتخبـوا غيركـم مهـما كانـت ظروفهـم، لأنهـم يعتـبرون التصويـت موضـوع ولاءٍ وبـراءٍ.

- وهناك فئة تنتخبكم لأنها معجبة بتضحياتكم وثباتكم وصمودكم، وهؤلاء سينافسكم عليها من يكون ذا تضحية وثبات وصمود من غيركم (كبعض أبناء التيارات اليسارية الأوفياء لمبادئهم).
- وهناك فئة تنتخبكم لأنها ترى أنكم القادرون على تحقيق الإنجازات التي يريدونها لتيسير أمور حياتهم (الجامعية مثلًا)، وهؤلاء سيمنحون أصواتهم لمن يتوقعون منه تحقيق ذلك مهما كان مبدؤه.
- وهناك فئة تنتخبكم نكاية في خصومكم، لأنها لا تحبهم وتريد معاقبتهم، وهؤلاء ستخسرونهم إن حسّن خصومكم تعاملهم معهم وأقنعوهم بنزع أسباب الخصومة.
- وهناك فئة تنتخب بناءً على العلاقات الاجتماعية والقرابة والصداقة.

إنّكم إن ركّزتم على الفئة الأولى وقصّرتم في (جلب) بقية الفئات إلى صفّكم، فلا تستغربوا الخسارة، ولا تتهموا الناس أنهم لا يريدون للواء الإسلام أن يرتفع.

عليكم أن تقدموا الصورة الإيجابية في كل النواحي لتستقطبوا كل هذه الفئات، وحينها تكونون قد أديتم ما عليكم، وأبرأتم ذممكم أمام ربكم ودينكم.

ومما يجب التركيز عليه وترسيخه في أذهان أبنائنا أنه بمقدار نجاحهم في خدمة المجتمع الذي هم فيه (وهو هنا مجتمع الطلبة) يستطيعون تحقيق الإنجاز (مع عدم نسيان الظروف الأخرى بالطبع)، وأن الفوز في أي انتخابات هو فوز للكتلة أو الأشخاص الذين خاضوها، والهزيمة كذلك، ولا ينبغي أن نقول إذا فزنا أن الإسلام هو الذي فاز؛ لأن الناس سيستنتجون أن الإسلام خسر إذا خسرنا أو هزمنا.

إننـا نريـد أن نفـرح عندمـا نفـوز في أي موقـع، ولكـن دون تحميـل الأمـور أكـثر مـما تحتمـل.

ويجـب أن نبقـي في أذهاننـا أننـا نفـوز حـين نأخـذ بالأسـباب، فلـو لم نأخـذ بهـا ولم نكـن عـلى قـدر المسـؤولية فلـن يكفـي كوننـا حاملـين للفكـر الإسـلامي لتحقيـق الفـوز.

لغة (التخوين) منهج الجهال

إحدى المزالق التي يقع بها أبناء الحركات الإسلامية مزلق استخدام لغة (التخوين) و(التكفير) و(الاتهام بالعمالة) كلغة رئيسة في الخطاب مع الآخرين.

إن اعتماد أي حركة أو حزب أو شخص على هذا المنهج في مخاطبة الآخرين يدل على جهل بمبادئ الشريعة وأدب الاختلاف فيها، وعلى نفسية مريضة ورثت من فرعون مبدأه الذي عبر عنه بقوله (مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ).

في السياسة القضايا الخلافية كثيرة، لأن نظرة كل فئة للقضية محكومة بعدة عوامل تؤثر في الرأي الذي تتبناه تلك الجهة، ويجب علينا أن نتعلم كيف نتعامل مع هذه الخلافيات، وأن نأخذ الدروس والعبر مما يقع فيه غيرنا من عثرات.

الإخوة في حزب التحرير يرون أن (الهدنة) مع العدو الصهيوني لا تجوز، ورغم أن هذا الرأي رأي غريب عجيب، لم يسبقهم إليه أحد من أهل العلم فيما أعلم، إلا أنه – مع ذلك – لا مشكلة لديّ ولدى كثيرين فيما أعتقد في رأيهم هذا، فقصارى ما أراه في رأيهم أنه اجتهاد خاطئ، يمكنهم العمل به في أنفسهم وتصرفاتهم وأن لا يعقدوا هدنة مع هذا العدو!

لكن المشكلة – كل المشكلة – في اعتبارهم مخالفة رأيهم (الذي ليست له جذور) وفي اتّباع اجتهاد علماء الأمة من السابقين واللاحقين (خيانة لله ورسوله والمؤمنين).

في القضايا الاجتهادية الخلافية المطلوب من المكلف أن يتعبد الله بما أداه إليه اجتهاده إن كان من أهل الاجتهاد، أو بما أفتاه به أهل الفتوى ممن يوثق بدينهم وعلمهم إن كان هو من المقلدين، ولا ينبغي لأحد أن يلزم

أحـدًا باجتهـاده (باسـتثناء الإمـام الأعظـم فيـما يتبنـاه لرفـع الخـلاف)، فضـلًا عـن أن يتهمـه في دينـه بسـبب الاختـلاف في الـرأي.

عندمـا نختلـف لا حـرج في أن يقـول الواحـد منـا لأخيـه أخطـأت، ولكـن لـن يكـون مقبـولًا أن يقـول لـه خائـن وكافـر وعميـل بسـبب هـذا الخـلاف.

نسأل الله الهداية.

مراجعات حول ماراثون الخليل[١]

هـدأت عاصفـة الجـدل حـول الماراثـون (المختلـط) الـذي نظمته جمعيـة تنظيم وحمايـة الأسرة في الخليـل، ذلـك الماراثـون الـذي اسـتفز أهـل هـذه المدينـة المحافظـة، فثـاروا عـلى صفحـات الفيسـبوك مهاجمـين إيـاه، معتبرينـه قـد جـاء في سـياق هـدم البنيـان القيمـي والأخلاقـي لمدينـة أبي الأنبيـاء عليـه السـلام، وبعـد أن هـدأت تلـك العاصفـة نحـن بحاجـة إلى وقفـة نراجـع فيهـا أداءنـا في هـذا الحـدث، والـذي هـو تكـرار لأدائنـا في أحـداث كثـيرة مشـابهة، ننفعـل بهـا، ونتفاعـل معهـا، ثـم تمـضي ولا نأخـذ العـبرة منهـا.

في البدايـة يجـب أن ننتبـه إلى أن هـذا المارثـون ومـا شـابهه من أنشـطة مدعومة مـن منظـمات الـ (NGOs) ليـس حدثًـا منفـردًا، بـل هـو حلقـة ضمـن سلسـلة متواصلـة مـن محـاولات تنشـئة جيـل يحمـل فكـرًا بعيـدًا عـن دينـه وعقيدتـه، وهـذا يعنـي أنـه لم يكـن الأول ولـن يكـون الأخـير ضمـن هـذه السلسـلة مـن محاولات الإفســاد.

المشـكلة التـي نقـع فيهـا هـي أننـا دائمًـا نتعامـل مـع مثـل هـذه الأحـداث بـردود الفعـل، لا بإنشـاء فعـل مضـاد موجَّـهٍ خـاصٍّ بنـا، وكأني بمـن هـم وراء هـذه الفعاليـات يدركـون ذلـك، فيشـغلوننا في إطفـاء حريـق هنـا، ثـم آخـر هنـاك، ونبقـى لاهثـين وراء تلـك الحرائـق المفتعلـة، راكضـين في متاهاتهـا، لا نسـتريح لنفكـر أو نخطـط أو نرسـم معـالم سـيرنا.

وخـلال ردود أفعالنـا، ولأن العاطفـة هـي التـي تحكمنـا، **وهـي عاطفـة محمودة، غـير أن عـدم ضبطهـا بضوابـط الفكـر والعقـل يجعلهـا تحمـل معهـا سـلبيات عديـدة تـأتي بعكـس مـا يـراد منهـا**، خـلال ذلـك تنمـو عندنـا ممارسـات سـلبية

---

(١) نـشر أصـل هـذا المقـال في مجلـة إشراقـات، بتاريـخ (٢٠١٨/٨/١٥)ن وكنـت قـد نـشرت أفـكاره الأساسـية كتدوينـات منفصلـة عـلى صفحتـي في الفيسـبوك.

يفرح بها المخالفون المتربصون، ويشعرون أنهم حققوا جزءًا مما يريدونه عبر اندفاعاتنا العاطفية غير المدروسة، وهل من نجاح لهم أكثر من استقطاب فئة من أبنائنا وبناتنا وإقناعهم بوجود سور حاجز بينهم وبين ثقافة وأخلاق أهلهم وشعبهم، وذلك عبر تنفيرنا إياهم وإساءة معاملتنا لهم؟!

خطابي هنا ليس موجهًا لهؤلاء الذين ينظمون تلك الفعاليات الإفسادية، ولا للمغرر بهم الذين يشاركون فيها، وإنما هو موجه للذين تدفعهم حرقتهم لإنكار هاتيك المنكرات، ولا يدركون أنهم قد يقع بعضهم في منكرات أكبر بسوء طريقتهم في إنكار المنكر.

النقطة الأولى التي يجب أن نقف عندها هي التذكير بأن لإنكار المنكر قواعد يجب مراعاتها، وإلا أدى ذلك إلى عكس المقصود منه، فالمقصود الأساس من إنكار أي منكر هو إزالته أو التخفيف منه، فإن أدى فعلنا لزيادته وتجذيره وتقويته توجب علينا مراجعة أدائنا ومنهجنا.

ثم إن مهمتنا - كدعاة - في مجتمعنا هي نفس مهمة الطبيب، توفير سبل الوقاية من المرض، وعلاجه إن حدث، والطبيب لا يلجأ إلى الخيارات العنيفة كعمليات البتر والجراحة إلا عندما لا يبقى غيرها حلًّا للمرض الذي يعالجه، أما نحن فإن الخيارات العنيفة هي أول ما نلجأ إليه في تعاملنا مع أمراض المجتمع الأخلاقية والسلوكية والفكرية، وقد تكون هذه الخيارات عنفًا (لفظيًّا) وليس (حقيقيًّا ماديًّا)، ولكن العنف يبقى عنفًا مهما كانت صورته.

الداعية كالطبيب مطلوب منه أن يكون رفيقًا بمرضاه، حريصًا عليهم، فهو يعمل ليعالجهم لا ليقتلهم، ولذلك حرص النبي ﷺ على الحث على الرفق، ولنقف مع نموذج من توجيهاته في ذلك:

دخل مجموعة من اليهود على النبيّ ﷺ، فَبدل أن يقولوا له (السلام عليك) قَالُوا: (السَّامُ عَلَيْكَ)، و(السام) هو الموت والهلاك، فقال النَّبيُّ ﷺ: (السَّامُ عَلَيْكُمْ)، وكانت أمنا عائشة رضي الله عنها حاضرة سامعة فغضبت وقالت لهم: السَّامُ عَلَيْكُمْ يَا إِخْوَانَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَعْنَةُ اللهِ وَغَضَبُهُ، فَقَالَ لها ﷺ: (**يَا عَائِشَةُ، مَهْ!**)، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ قَالَ: (**أَوَمَا سَمِعْتِ مَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ؟ يَا عَائِشَةُ، لَمْ يَدْخُلِ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَمْ يُنْزَعْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**)[1].

لقد رافق تعاملنا مع منكر الماراثون مخالفات خطيرة وقع كثيرون منا فيها، ومن ذلك:

- استسهال التكفير؛ فرغم أن نشر الاختلاط والفساد أمر مذموم مدان، إلا أنه لا يصل إلى مرحلة الكفر، ولا يجوز إطلاق الأحكام بتكفير الناس بهذه الطريقة التي يقوم بها بعض الغيورين على دينهم جهلًا.
- إصدار الأحكام على أناس معينين بأنهم سيدخلون النار وسيحرمون من دخول الجنة، وقد غاب عن هؤلاء أن مفاتيح الجنة والنار ليست بأيديهم، وأن الذنوب التي دون الكفر تحت مشيئة الله، إن شاء غفرها وإن شاء عذب بها، وليستمع هؤلاء المتعجلون إلى هذا الحديث المخيف الذي يجب أن يدفعهم للتوقف عن توزيع مقاعد الجنة والنار:

فقد أخبرنا ﷺ (**أن رجلين في بني إسرائيل كانا مُتَوَاخِيَيْنِ، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ، وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ**

(١) مسند أحمد، ح ١٣٥٣١، والحديث في صحيح مسلم، ح ٢١٦٥ ولكنه مختصر.

فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ).

لاحظوا معي هي نفس العبارات التي تدور على صفحاتنا مع عصاة غير كفار من أبناء أمتنا.

يكمل الرسول ﷺ حديثه فيقول: (**فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا، أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلْآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ**)[1].

وقد علق أبو هريرة رضي الله عنه، وهو راوي الحديث فقال: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

فهل يقبل أحدكم أن يتكلم بما يوبق دنيا وآخرته؟!

وقد يحتج البعض بأنهم لم يقولوا غير ما قاله ﷺ كما في حديثه الذي فيه (**ثَلَاثٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ**) وذكر منهم (**الدَّيُّوث**)[2]، فأقول لهؤلاء:

إن فهمكم للحديث ولمنهج الإسلام فيه خلل عظيم، فالعلماء يذكرون أن هذه الأحاديث التي جاء فيها أن من فعل كذا كفر، أو حُرِمَ من دخول الجنة، تتحدث عن (الفعل) وتهدف إلى ذمّه والتنفير منه، أما عندما يكون الحديث عن (الفاعل) أي الشخص المعين، فحتى نحكم عليه بالكفر أو أنه ليس من أهل الجنة نحتاج أمورًا أخرى، إذ هناك موانع عديدة تمنع من دخول (الشخص المعين) تحت طائلة ذلك الوعيد، فلا بدّ من التحقق من انتفاء تلك الموانع، وهو ما ليس من مهمة الأفراد في الأمة.

كما أن فهمكم لـ (الدّيوث) بحاجة إلى مراجعة، فليس كل من خرجت

(١) سنن أبي داود، ح ٤٩٠١، وإسناده حسن.

(٢) مسند أحمد، ح ٦١٨٠، وإسناده حسن.

ابنته أو قريبته متبرجة ديّوثًا، إذ الدّيّوث - كما جاء مفسرًا في بعض روايات الحديث - هو (**الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخَبَثَ**)[1] والخبث هنا هو الزنا، قيل: ومقدماته أيضًا، وكم من رجل تخرج ابنته متبرجة وقد تقارف المعاصي وهو غير مُقِرٍّ لذلك ولا راضٍ به، بل هو عاجز عن تغييره!

لقد كثر الاتهام بالدياثة هذه الأيام، وليُحَضِّرْ كلُّ من أطلق لسانه في الناس نفسه ليوم القيامة إذ قد يأتيه متّهمٌ بالدياثة ظلمًا فيشكوه إلى الله ويطلب منه حقّه.

إنكار المنكر مطلوب، ولكن الطريقة الأمثل لذلك تكون بنشر الخير والمعروف، وبذل الجهد لتقريب الناس من دينهم، وتذكروا (أن تشعل شمعة خير من أن تلعن الظلام ألف مرة).

ردود وتوضيحات

<u>**سأل أحد الإخوة**</u>: إذا كانت البنت أو أمها تخرجان من البيت متبرجتان بغير رضى رجل البيت، فأي رجل هذا؟

<u>**فأجبته**</u>: لعلّ حاله كحال نبي الله نوح ﷺ كان ابنه كافرًا، ولم يكن هو راضيًّا عن كفره.

<u>**وسأل أخ آخر**</u>: كيف سنرد على من يستند على حديث رسول الله ﷺ بأن الأولوية تغييره باليد (**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده**)؟

<u>**فأجبته**</u>: كما أشرتُ في المقال فإن لإنكار المنكر قواعد يجب مراعاتها، إلا أدى ذلك إلى عكس المقصود منه، ومن ذلك تحديد متى يتم استخدام كل وسيلة من الوسائل، ومن يستخدمها، وباختصار: التغيير باليد يكون ممن يملك سلطة ذلك، وتتوفر له القدرة عليه، ويأمن ألا يؤدي تغييره هذا إلى منكر أكبر.

---

(١) مسند أحمد، ح ٥٣٧٢، ح ٦١١٣، وهو حديث صحيح.

واعترض أحد الفضلاء قائلًا: إنّ الحراك وردة الفعل التي رافقته أربكت من أعدوا للماراثون وضايقتهم، فالأمور لم تكن بذاك السوء.

فأجبته: لا شك أن الحراك المُنكِر لهذا المنكَر كانت له نتائج إيجابية، ولست معترضًا عليه، بل ملاحظاتي تتعلق ببعض السلبيات المرافقة له قصدَ ترشيد مسارنا، مثل استخدام لغة التكفير والشتائم، وكذلك الانشغال بعلاج القضايا الفرعية ونسيان أصل المشكلة (وهو غياب الدعاة عن التأثير الإيجابي الفاعل في المجتمع).

وجوب ضبط العاطفة بالفكر

العواطـف مهمـة جـدًّا في الحيـاة البشريـة، فهـي - في الغالـب - التـي توجـه السـلوك البـشري، وتـزود الإنسـان بالدوافـع التـي تجعلـه يستسـهل البـذل والعطـاء والتضحيـة في سـبيل مبادئـه، فالعواطـف الدافعـة كـ (الحـب والكـره) - مثـلًا - هـي التـي تدفـع الإنسـان للدفـاع عـما يحـب ولمقاومـة مـا يكـره، وهـي عواطـف محمـودة عندمـا تكـون متعلقاتهـا أمـورًا سـامية، كالديـن والعقيـدة، ولكـن العاطفـة إن تركـت لوحدهـا دون ضوابـط العقـل والفكـر سـتكون كالسـيل الجـارف يأخـذ كل مـا في طريقـه، ويدمـر الأخـضر واليابـس، ولذلـك نحـن مطالبـون بالحفـاظ عـلى التكامـل بـين العقـل والعاطفـة، وكـما قـال الإمـام البنـا رحمـه اللـه (**ألجمـوا نـزوات العواطـف بنظـرات العقـول، وأنـيروا أشـعة العقـول بلهـب العواطـف**)، فالعاطفـة المندفعـة غـير المنضبطـة بالفكـر والعقـل تحمـل معهـا سـلبيات عديـدة تـأتي بعكـس مـا يـراد منهـا.

النسبية وجدلية النصر والهزيمة

الحدث الذي كان ليلة (٢٠١٨/١١/١١)، والذي اقتحمت فيه قوة من جيش الاحتلال منطقة شرق مدينة خانيونس، واشتبك معها المجاهدون هناك، وكانت الحصيلة استشهاد سبعة منهم، ومقتل ضابط صهيوني، وانسحاب القوة الصهيونية، تسبب في موجة من الجدل على صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، وكعادة الناس في أنهم لا يتفقون على رؤية واحدة للحدث الواحد، إذ ينظر كلٌّ منهم من زاوية تغاير نظرة الآخرين، وينطلق منها محاولًا - في كثير من الأحيان - إلغاء كل ما يخالفه.

وكان من العناصر الجدلية التي بحثها (الفسابكة) توصيف ما حدث، أكان نصرًا للمقاومة أم هزيمة لها.

الذين نظّروا لفكرة (النصر) كان منطلقهم أن الصهاينة ما دخلوا إلا لتحقيق مهمة خطيرة تستحق المغامرة وفق مقاييسهم، وقد خرجوا بدون تحقيق مهمتهم تلك، بل وتكبدوا خسائر ليست سهلة.

أما الذين نظّروا لفكرة أن ما حدث كان هزيمة، فقد طرح أحدهم الفكرة بالصيغة التالية: «لو أنّ وحدة خاصة من القسام تسللت إلى داخل الكيان وقتلوا مسؤول الأمن المستهدف في مستوطنة ما، إضافة إلى (٦) مستوطنين، ثم تم اكتشاف أمرهم هناك، لكنهم انسحبوا ووصلوا إلينا بسلام بعد أن استشهد منهم واحد بتبادل إطلاق النار، هنا؛ هل نحن انتصرنا أم قوات الاحتلال؟»

ثم تساءل: «لماذا نحن دائما المنتصرون؟».

وهو طرح منطقي لو كان مستندًا إلى أسس سليمة في المقارنة، وهنا، وقبل الاستمرار في النقاش، لا بدّ من الإشارة إلى أن بقية منشور هذا الأخ الفاضل مما أوافقه وأظن كل العقلاء يوافقونه عليه، فقد تساءل: «أليس هذه

العملية تستوجب الكثير من المراجعات والتحقيقات لاكتشاف نقطة انطلاق سيارة الكمين؟ هل يمكن التفكير في آليات أكثر صرامة لضبط الحدود؟»، وهي تساؤلات (واجبة) وليست (مشروعة) فقط، ولعل الحريصين على المقاومة ممن ينتقدون اعتبار مثل هذا الحدث انتصارًا ينطلقون من أنّ (وهم النصر) يخفض الدافعية لدى أصحابه للبحث عن (مكامن الخلل)، إذ ما دمنا انتصرنا فمعنى ذلك أنه ليست لدينا مشكلة.

نعود لبحث جدلية النصر والهزيمة في مثل هذه الأحداث، وقبل ذلك فلنؤسس للفكرة ببعض النصوص (الشرعية) التي تؤكد على اعتماد فكرة (النسبية) في النظرة إلى أمور كثيرة مما نمرُّ به في حياتنا.

في حديث صحيح عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه: (**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ**)، فاستغربوا من ذلك، وسألوه: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ؟ فقَالَ لهم موضّحًا الفكرة: (**رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ، فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ، فَتَصَدَّقَ بِهَا**)[1].

وهذا الحديث هنا يؤسس لفكرة مهمة، وهي أن النظرة إلى تقييم حدث (الصدقة) يجب أن تراعي (إمكانيات) المتصدق، لا قيمة الصدقة فقط.

وفي حديث صحيح آخر يسأل النبي ﷺ أصحابه: (**مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَا؟**) فقَالُوا: (**حَرَّمَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)، فَقَالَ لهم ﷺ: (**لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرَةِ نِسْوَةٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ**)[2].

وهو هنا - أيضًا - يؤكد على نفس الفكرة، وهي أن حال المعتدي والمعتدى عليه لهما تأثير في حجم قبح الجريمة.

ولدينا نصٌّ صحيح ثالث - سنكتفي به؛ لأن النصوص كثيرة، والهدف

(١) سنن النسائي، ح ٢٥٢٨.

(٢) مسند أحمد، ح٢٣٨٥٤.

الاستدلال وليس استيعاب النصوص - يقول فيه ﷺ: (**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**)[1]، وهو هنا يؤكد على نفس الفكرة، فمعصية الزنا - مثلاً - مع أنها قبيحة سواء مارسها شاب أم شيخ (رجل كبير السنّ)، إلا أنها من الشيخ أقبح؛ لأنه ليست لديه تلك الدوافع من الشهوة التي لدى الشباب.

وهكذا نجد أن هذه النصوص تؤسس لفكرة (النسبية) في النظر إلى الأمور وتقييمها، ولهذه النظرة النسبية تطبيقات في واقع الحياة لها أول، وقد لا يكون لها آخر؛ لأن وقائع الحياة متجددة، وسأضرب مثلًا واحدًا على تلك التطبيقات:

في الالتزام بالحجاب - وهو حكم شرعي واجب - قد أتفهم بعض التقصير من مسلمة تعيش في باريس تحت ضغط المجتمع وقوانينه، فتقصّر في التزامها به بعض الشيء، ولكن هذا التفهّم لا يوجد عندما تكون المسلمة من أهل دولة يعتبر الحجاب فيها من الأساسيات المجتمعية كجزيرة العرب (أي أن قبح المعصية من المرأة المقصرة في حجابها في جزيرة العرب أعظم من قبح المقصرة في ديار الغرب).

نعود لموضوعنا.

عندما نناقش السؤال المشروع: هل ما حدث كان انتصارًا لنا وهزيمة للعدو، أم أن الصحيح هو العكس؟

لو نظرنا لمسألة النصر والهزيمة كـ (قيمة مطلقة) سنجد أن الجواب هو أن العدو انتصر ونحن هزمنا، فنحن الذين استبيحت أرضنا، ونحن الذين قدمنا الكمية الأكبر من الخسائر.

---

(١) صحيح مسلم، ح ١٧٢ (١٠٧).

ولكننا لو نظرنا وفق هذه النظرة (النسبية)، وهي النظرة المنطقية العادلة، التي تراعي فرق القوة والإمكانات بين الطرفين، فسنجد أن العدو هزم والمجاهدون انتصروا.

وحتى لو اعتبرنا أن العدو لم ينهزم فهو لم ينتصر، فهو - من ناحية الهدف - جاء لتحقيق هدفٍ محدد وفشل في ذلك، أما المجاهدون فنجاحهم ماثل في أنهم (أفشلوا) مخطط العدو، ومنعوه من تحقيق هدفه، أما بالنظر إلى الخسائر البشرية والمادية، فمن الظلم للمجاهدين أن نطالبهم بأن يثخنوا في العدو أكثر مما فعلوا مع الفرق الشاسع في الإمكانيات بين الطرفين.

ومع ميلي لاعتبار ما حدث نصرًا (بالمعنى النسبي للنصر)، إلا أنه يجب أن نعود لنؤكد على فكرة مررنا عنها في ثنايا الحديث، وهي أنه لا يجوز أن يشغلنا استشعار (النصر) عن البحث عن (مكامن الخلل)، وأن نظن أننا ما دمنا انتصرنا فمعنى ذلك أنه ليست لدينا مشكلة، وكلنا ثقة بأن أصحاب الشأن لن تغيب عنهم هذه بإذن الله تعالى.

رحم الله الشهداء، وشفى الجرحى، وحفظ أهلنا في غزة من كيد الكائدين.

مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَتَسَامَعَ الْأُمَمُ

كان رأس المنافقين (عبد الله بن أُبيّ) يقود حراكًا مشبوهًا له أجندات خبيثة تهدف لهدم الدولة الإسلامية الناشئة ومحاربة الدعوة.

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يدرك ذلك ويعلمه.

ومع ذلك فعندما اقترح عليه عمر رضي الله عنه قتله لما حاول إشعال فتنة داخلية بين المسلمين، وهدد قيادة المجتمع المسلم فقال (أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) كان ردّ النبي ﷺ على هذا الاقتراح أن قال لعمر رضي الله عنه: (**دَعْهُ، لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**)(١).

لاحظوا معي أن النبي ﷺ ذكر (الناس) هنا، وهو لفظ عام يشمل المؤمن والكافر، المناصر والمخالف، ولعل قصد الكافر والمخالف والمعادي فيه أولى؛ لأن المناصر قد يتفهم تصرفك العنيف للحفاظ على كيانك.

وفي حديث آخر في قصة ذلك الرجل الذي اتهم الرسول ﷺ بعدم العدل في توزيع الغنائم بعد معركة حنين، واقترح بعض الصحابة قتله بتهمة النفاق، قال لهم النبي ﷺ: (**مَعَاذَ اللهِ أَنْ تَتَسَامَعَ الْأُمَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**)(٢).

وهنا أيضًا كان تخوّف النبي ﷺ أن (**تتسامع الأمم**)، وهو ما يوازي الرأي العام العالمي في زمننا.

الدرس الذي نتعلمه من هذه التصرفات النبوية الهادية:

قد يكون شخص أو جهة مستحقًّا للعقوبة الرادعة، فيمنعك من ذلك

---

(١) صحيح البخاري، ح ٤٩٠٥، ح ٤٩٠٧، صحيح مسلم، ح ٢٥٨٤.

(٢) حديث صحيح، ١٤٨٢٠، مسند أحمد، ح ١٤٨٢٠.

الحرص على الـ (صورة) التي تترك الانطباع عند الناس، فالبعيدون عن الساحة؛ (الناس) بعمومهم في قصة (ابن أبيّ)، و(الأمم) في حديث غنائم هوازن، سيرون أن (محمدًا يقتل أصحابه)، ولن يروا بقية الصورة وهي أن المقتولين كانوا مجرمين مستحقين، ولأجل ذلك امتنع الرسول ﷺ عن إيقاع العقوبة بهم.

فهل من معتبر؟!!

طبعًا ليس المقصود النهي عن (القتل) فقط هنا، فـ (القتل) جاء لضرورة سياق الأحاديث، وإنما الكلام عن كل العقوبات والتصرفات التي تشوه صورة المقاومة وأهل الحق، بما فيها الضرب بالهراوات والألفاظ العنيفة ومنع التظاهر.

مناسبة المنشور

في قطاع غزة خرج عدد من المواطنين محتجين على الظروف المعيشية السيئة التي تسود عندهم، وكان هذا الحراك موجَّهًا من قبل جهات في السلطة الفلسطينية وحركة فتح تحت عنوان (بدنا نعيش)، وهدفه المعلن الاحتجاج على سوء الأوضاع المعيشية، وبينما هدفه المخفي كان إسقاط حركة حماس في غزة.

وللأسف فقد تعاملت الأجهزة الأمنية مع هذا الحراك بطريقة فظة واعتدت على عدد من المتظاهرين بالضرب والسحل، رغم أن هذا الحراك شارك فيه مع المغرضين أناسٌ عاديون متضررون من الأوضاع الناتجة عن الحصار على القطاع.

وكنا نودّ لو كان تعامل تلك الأجهزة مع الناس بطريقة حضارية تتوافق مع تعليمات ديننا.

اعتراضات وردود

قد يظن البعض أنني أدعو لاتباع منهج (السلمية) مع الأعداء والمخربين، وهو ما وقع فيه إخواننا في مصر، وأدى إلى ردّة فعل سلبية لدى كثير من أبناء الحركة الإسلامية قادتهم لعدم التوازن بسبب الألم الذي أصابنا في أرض الكنانة، أما أنا فلست من دعاة هذا النوع من (السلمية)، ولكني من دعاة (لا أضع سيفي حيث ينفع سوطي)، وكذا لا أستخدم سوطي حيث ينفع صوتي.

يجب علينا أن نخوض غمار السياسة والاقتصاد وتصرفات إدارة الحكم عن طريق خبراء ومختصين وعلماء يحددون الأنسب من التصرفات كل سلوك، لا أن تحركنا العواطف.

وقد يعترض البعض بأن في السيرة النبوية _ أيضًا - أن الرسول ﷺ أمر بقتل من عدد ممن كان لهم دور إعلامي في التحريض على المسلمين، وهذا الاعتراض مردود بأن الذين امتنع الرسول ﷺ عن قتلهم كانوا (من أصحابه)، أي من رعيته، أما الذين أرسل لقتلهم فكانوا من رؤوس أعدائه المجاهرين بعداوته والتحريض عليه.

وقد يحتج البعض بأن ما حدث من انقلاب على الثورة المصرية، والإطاحة بالرئيس الشهيد (محمد مرسي) رحمه الله تعالى كان بسبب التساهل مع أمثال هؤلاء المحتجين، ويكون قد غاب عن هذا المعترض أن ما حصل في مصر كان فيه خطأ أساسي، وهو عدم استعداد إخوان مصر بقوة عسكرية، سمها (ميليشيا) إن شئت لتحمي الثورة إذا تطلب الأمر.

وقد يحتج البعض بأنه لولا تعامل حماس في غزة بالقوة مع الخوارج الذين اعتصموا في مسجد هناك لتفاقمت مشكلتهم ولما انقطع دابرهم، ولهؤلاء أقول: إن هناك فرقًا بين من يخرج معترضًا يحمل السلاح ويريد

قتلـك، وبـين مـن يخـرج بـلا سـلاح.

ويبقـى أننـا نتحـدث في قواعـد عامـة، وعنـد تنزيـل الأحـكام عـلى الوقائـع لا بـد مـن دراسـة كل الحيثيـات المحيطـة بهـا، فالسياسـة كلهـا مبنيـة عـلى تطبيق (فقـه الموازنـات) المنضبـط بضوابـط الـشرع، ولا بـد مـن مراعـاة مـآلات أي فعـل قبـل الإقـدام عليـه.

النظر بعين واحدة

تعليقًا على مقتل (ناهض حتّر)[(١)]

أغلق إحدى عينيك وحاول أن تجول بالثانية المفتوحة فيما حولك، ثم أغلق الثانية وافتح الأولى وأعد النظر، ثم افتح كلا العينين وأنظر، لو فعلت ما أقول وركّزت فيما كنت تراه، ستجد أنك عندما تنظر بعين واحدة لن ترى كل الصورة المحيطة بك، فسيغيب عنك جوانب منها.

كثير من الذين علّقوا على مقتل الكاتب الأردني (ناهض حتّر) نظروا للمسألة بعين واحدة، فغابت عنهم جوانب من الصورة المتكاملة، وهذا ما نتج عنه ما نراه من تلاسن بين الإسلاميين على صفحات الفيسبوك في تعليقهم على هذه المسألة.

البعض رأى أن الهالك (حتّر) تجاوز كل الحدود، ومسّ بالمحرمات والمقدّسات، وأن الدولة لم توقفه عند حدّه، فثارت عاطفته الدينية وعبّر عن ذلك بتأييد قتله والثناء على قاتله، ولا شك أن ما رآه هذا البعض حقيقة واقعة، فقد تجاوز الرجل كل الحدود، وأساء إساءات لا ينبغي السكوت عنها، ولكن تأييدَ قتله والثناءَ على قاتله نتيجةٌ طبيعيةٌ لعدم رؤية الجانب الآخر من

---

(١) يوم الأحد (٢٠١٦/٩/٢٥) اغتيل الكاتب الأردني اليساري (ناهض حتّر)، على يد مواطن أردني من أصل فلسطيني ينتمي للسلفية الجهادية، وكان ذلك بثلاث رصاصات اخترقت رأسه بالقرب من قصر العدل في العصمة عمّان، أثناء توجه (حتّر) لحضور جلسة لمحاكمته في قضية كان متهمًا فيها بـ (الإساءة للذات الإلهية) إثر مشاركته رسمًا كاريكاتيريًّا على صفحته وتعليقه عليه بعبارة (رب الدواعش).

(ناهض حتّر)، المولود سنة ١٩٦٠، كاتب أردني ملحد، من أصول مسيحية، وكان عضوًا في الحزب الشيوعي الأردني، وكان معاديًّا للتيارات الإسلامية.

وقد تمّ تحميل الحركات الإسلامية مسؤولية اغتياله من قبل من يعتبرون أنفسهم (المثقفين) بدعوى أن القاتل أقدم على ذلك بسبب تحريض الإسلاميين ضدّ حتّر، مما دفع الدولة لمحاكمته.

القضية.

آخرون نظروا فرأوا المفاسد العظيمة التي يتوقع أن تنتج عن حادثة القتل هذه، ومنها التأسيس ليأخذ كل مواطن منفرد القانون بيده وهذا باب شرٍّ إذا فتح فلن يغلق، وإشغال الرأي العام عن قضايا أهم بكثير من إساءات (حتّر) كتغيير المناهج الدراسية، وزرع بذور فتنة طائفية نحن في غنًى عنها، فأعلنوا استنكارهم لحادثة القتل بطريقة استفزّت الفريق الأول، وكانت طريقة استنكارهم ناتجة عن غياب الجانب الآخر من الصورة.

الذين نظروا للصورة الكاملة وعيونهم مفتوحة، وهم قلة للأسف، رأوا جرائم (حتّر) بحق الدين والوطن، ورأوا كذلك المفاسد الناجمة عن أخذ القانون باليد وسفك الدماء بهذه الطريقة المنفردة.

القتل وإزهاق الأرواح مفسدة عظيمة، جاء الشرع بإباحتها في حالات نادرة دفعًا لمفاسد أعظم منها، أو تحقيقًا لمصالح عامّة للأمة لا تتحقق دون هذا، ووضع لذلك قيودًا وشروطًا مشددّة لئلا يستهين الناس بسفك الدماء، ولذلك عندما اقترح عمر بن الخطاب رضي الله عنه على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتل رأس المنافقين (عبدَ الله بن أبي)، وجرائمه كانت أكبر بكثير من جرائم (حتّر) هذا، وكان الاقتراح موجهًا لرئيس الدولة الإسلامية، أي أن القرار والتنفيذ ليس بيد شخص منفرد، رفض رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لما يترتب عليه من مفاسد لا تكافئ ما سيتحقق من التخلص من رأس المنافقين رغم سوئه.

أقول: قَتْلُ (حتّر) إشغال للأمة عن القضايا الأهم، وإن كان الرجل يستحق إيقاع أقسى العقوبات به، وقد تصل إلى الإعدام، ولكن لا يجوز لشخص منفرد مهما كان وأيًّا كان أن يتخذ هذا القرار.

وبالمناسبة فقاتل (حتّر) مخطئ في رأيي ولا ريب، وإن كانت دوافعه لها

ما قد يبررها، ولكن الإجرام الحقيقي يكمن في فعل من يسمحون لأمثال ذلك التافه في أن يعتدي على مقدسات الأمة ويدافعون عنه، وفي نفس الوقت يحاربون الدعاة الوسطيين، ويتركون الأرض مهيّأة لتنبت فيها بذور الغلوّ والتطرف.

توضيحات

اعترض بعض الإخوة في النقاش على انتقادي لعملية قتل (حتّر) وذكروا أن من سب الله تعالى أو الرسول ﷺ فإن دمه هدر، وهنا لا بد من توضيح ما يلي في هذه المسألة:

ليست قضيتنا هل دمه مهدور أم لا، فالمسألة فيها كلام طويل للفقهاء لا ينبغي طرحه إلا عند المتخصصين، وإنما المسألة في ما لو سلّمنا بأن دمه مهدور، فمن يملك الحق في تنفيذ ذلك؟

وليكن الجواب على شكل مثال ليكون أوضح إن شاء الله تعالى: نفترض أن شخصًا ظهر لديه ورم خبيث في جسمه، فالأصل أن هذا الورم يجب أن يُستأصل، فلو جاء آخر من عامة الناس وأمسك سكينًا واستأصل هذا الورم فهل هذا الفعل جائز؟؟

إن استئصال الورم الخبيث لا بد له من شروط لا يصلح البتّ بتحققها إلا من أهل الاختصاص، فقد يتم استئصال الورم ويؤدي ذلك إلى انتشار السرطان في الجسم، وقد يصلح أن يتم معالجة الورم بدون استئصال، كل ذلك لا يحسن تقريره إلا أهل الاختصاص، وإلا صارت الأمور سائبة.

واعترض بعضهم - ممن عارض عملية القتل - فقال متسائلًا عن منهج: «لماذا لا نرى شجاعة وإقدام وجرأة وانتصار هؤلاء الدواعش والتكفيريين لله وللدين عندما تكون القدس وفلسطين والمقدسات الأخرى التي يدنسها اليهود المحتلين فعلًا لا قولًا لو كانوا محقّين؟»

فأجبتـه: حتـى لا نظلـم النـاس يجـب أن نحاكمهـم إلى أفعالهـم وليـس إلى نيّاتهـم، فهـؤلاء (التكفيريـون) شـجعان وجـرءاء، وهـم يعتقـدون أن انتصارهـم للـه، ولكـن المشـكلة عندهـم في غيـاب فقـه الأولويـات، وفقـه الموازنـات.

بين الفعل والفاعل

بتاريخ ٢٠١٦/١٢/١٩م اغتيل السفير الروسي لدى تركيا أثناء إلقائه كلمة في افتتاح معرض، وقد اغتاله شرطي تركي، قال أنه يفعل ذلك انتقامًا لمشاركة الروس في قصف حلب.

هذا الحدث أثار لَغَطًا واسعًا بين الناس عمومًا وفي ساحة الإسلاميين على وجه الخصوص، وكان النقاش يدور حول أصل الفعل هل هو جائز أم محرم، وهل للسفير حكم (الرسول) الذي جاءت الشريعة بتحريم قتله لقول النبي ﷺ لرسولي مسيلمة الكذاب (**لو كنت قاتلا رسولا لقتلتكما**)، وقد فهم هذا الحكم الصحابي راوي الحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: (**فمضت السنة أن الرسل لا تقتل**)[1]، أم ليس له هذا الحكم، في مسائل أخرى من مسائل السياسة الشرعية أخذ كثيرون يهرفون فيها بما لا يعرفون[2].

ليس المسألة هنا أن نبحث في حكم ما حدث، ولكن الذي أريد التنبيه إليه مسألتان:

أولاهما: (**ضرورة معرفة ما يجوز أن نختلف فيه وما لا يجوز أن نختلف فيه**)، وهي مسألة مهمة، لو استطعنا إدراكها لتراجع كثير من النقاش العقيم في أوساطنا.

أما (ما يجوز أن نختلف فيه)، مع وجوب احتفاظنا بالأدب في الخلاف،

---

(١) الحديث صحيح، رواه أحمد في المسند، ح ٣٧٦١، وهو في سنن أبي داود، ح ٢٧٦١، بدون قول ابن مسعود.

(٢) (الهَرْفُ) هو الإطْنابُ في المدح والثناء على الشيء إعجابا به، وخصه بعضهم بالمبالغة في المدح حتى يكون كالهذيان بالثناء على الإنسان إعجابا به، وإذا (هرف) الإنسان أي تكلم مادحًا بما لا يعرف فهي مصيبة. انظر: الصحاح للجوهري، ٤/ ١٤٤٢، ومقاييس اللغة لابن فارس، ٦/ ٤٨.

فهـو مسـألة هـل يجـوز قتـل السـفير الـروسي أم لا؟

رأيـي – ولا ألـزم بـه أحـدًا – أن قتلـه لم يكـن فعـلًا صائبًـا، للمفاسـد الكثـيرة المتوقعـة عليـه، ولأن الأحـكام الشرعيـة تعطـي السـفراء حصانـة تمنـع مـن قتلهـم، لأنهـم في حقيقـة توصيفهـم الشرعـي (رسـلٌ) يمثلـون دولهـم.

وهـذا رأيـي أتبنـاه، وفي نفـس الوقـت أتفهـم رأي المخالفـين، وإن كنـت أراه ضعيفًـا، وأدرك أن كثيريـن منهـم تحملهـم عـلى تبنـي رأيهـم عاطفـة دينيـة مشـبوبة، وغـيرة عـلى حرمـات المسـلمين محمـودة، ولذلـك لا أسيء الظـن بهـم.

أما (ما لا ينبغي الاختلاف فيه)، فأمران:

الأول: أن السـفير الـروسي ودولتـه مـن ورائـه مجرمـون، والذيـن لم يعجبهـم قتـل السـفير لم يكـن ذلـك لأنهـم متعاطفـون معـه، بـل هـم مقتنعـون بأنـه مسـتحق للعقوبـة، ولكـن ليـس كل مـن يسـتحق العقوبـة يُعاقـب، لوجـود موانـع لذلـك أحيانًا.

الثـاني: ليـس مـن واجباتنـا التـي كلفنـا اللـه تعـالى بهـا الحكـم عـلى (نيّـة) و(قصـد) قاتـل السـفير الـروسي، فالرجـل أفـضى إلى مـا قـدّم، ولا أظـن أن عاقـلًا يضحـي بنفسـه ويعرّضهـا للمـوت بـدون أن يكـون لـه هـدفٌ يسـعى لتحقيقـه، ولا يصلـح هنـا اعتبـار (إفسـاد العلاقـة بـين تركيـا وروسـيا) هدفًـا لهذا الشـخص، نعـم، قـد يكـون هدفًـا لجهـة وجَّهتـه وضلّلتـه وحرَّضتـه عـلى القيـام بهـذا الفعـل، لكـن دافعـه – هـو شـخصيًّا – في اعتقـادي كان حرقتـه عـلى إخوانـه في سـوريا، ومـع نُبـل الدافـع إلا أننـي أرى الفعـل غـير مقبـول.

رحمه الله وغفر له، وأنا أبرأ إلى الله مما فعل.

أمـا المسـألة الثانيـة التـي أريـد الإشـارة إليهـا فهـي (**ضرورة التمييـز بـين الفعـل والفاعل**).

إذ يجـب علينـا التفريـق بـين (الفعـل) و(الفاعـل)، فقـد يكـون الفاعـل حَسَـنَ

النيَّـة، سـليمَ القصـد، ولكـنّ الفعـل الـذي قـام بـه (مرفـوض) لترتُّـب مفاسـد عليـه.

جـاء في السـيرة أن الرسـول ﷺ أرسـل خالـد بـن الوليـد قائـدًا عـلى جيـش، فاجتهـد خالـد واسـتعجل فقتـل بعـض الأسرى، فذكـروا لرسـول اللـه ﷺ صنيـع خالـد، فقـال ﷺ، ورفـعَ يديـه: (**اللهُـمَّ إِنِّي أَبْـرَأُ إِلَيْـكَ مِـمَّا صَنَـعَ خَالِـدٌ**) مَرَّتَـيْنِ[1].

لاحظـوا أنـه تـبرَّأ مـن (صنيـع) خالـد، ولم يتـبرَّأ مـن خالـد نفسـه، فهـو - بـأبي وأمـي هـو، ﷺ - تـبرأ مـن (فعـل) خالـد، ولم يتـبرأ مـن (خالـد) نفسـه.

(١) صحيح البخاري، ح ٤٣٣٩، ح ٧١٨٩.

الرغبة في الإنجاز

حجـم التفاعـل مـع برنامـج (عـرب أيـدول)[1] كان لافتًـا للنظـر، بجانبيـه الإيجابي والسلبي.

في الجانـب الإيجـابي يشـير هـذا التفاعـل إلى الرغبـة بتحقيـق النجـاح أي نجـاح، وعـلى أي صعيـد، وهـذا سـلوك طبيعـي عنـد أي إنسـان أو أي مجموعـة بشريـة.

وعليـه فالتعامـل مـع مثـل هـذا التفاعـل الإيجـابي (الداعـم) للفائـز في البرنامـج يجـب أن يلحـظ هـذا المعنـى، لأن هـذا التفاعـل عبـارة عـن (عَـرَض) يشـير إلى جـذور غـير ظاهـرة هـي التـي عزّزتـه، وهـي كـما قلـتُ الحاجـة للشـعور بالنجـاح وتحقيـق الإنجـاز.

عمليـة الشـتم والسـبّ للمشـاركين في البرنامـج ولمتابعيـه لـن تحقـق شـيئًا عـلى المسـتوى العمـلي، سـوى تعزيـز الفرقـة والاسـتقطاب.

إن تحقـير المخالـف ولـو كان مخطئًـا ليـس أمـرًا محمـودًا، وليـس هـو أسـلوب الـذي يريـد تقريـب النـاس مـن الحـق.

وليـس معنـى كلامـي أن لا ننتقـد، ولكـن فلنجعـل النقـد برفـق، وبـدون شـتم وتحقـير للآخريـن.

ثـم إن إدراكنـا للدافـع وراء هـذا التفاعـل، وهـو الرغبـة في الإنجـاز، يلفـت نظرنا إلى أن السـعي لتحقيـق إنجـازات في مجـالات مفيـدة وسـامية هـو الـذي يبعـد عمـوم النـاس عـن ملاحقـة الإنجـازات التافهـة.

الفكـر لا يُحَـدّ، واللسـان لا يصمـت، والجـوارح لا تسـكن، فـإن لم تشـغلها بالعظائـم شـغلتها الصغائـر، وإن لم تُعملهـا في الخـير عملـت في الـشر.

---

(١) (عـرب أيـدول) هـو برنامـج مسـابقات غنـائي تبثـه قنـاة (mbc) ويتنافـس فيـه المطربـون الشـبان عـلى الفـوز بلقـب (عـرب أيـدول)، والـذي يترجمونـه بمعنـى (محبـوب الجماهـير) مـع أن معنـاه الأصـلي هـو (معبـود الجماهـير)، إذ كلمـة (idol) تعنـي: صنـم، أو وثـن، أو معبـود، كـما في قامـوس أوكسـفورد، ص ٥٧٧.

وقـد عرضـت حلقـات الموسـم الرابـع منـه ابتـداءً مـن (٢٠١٦/١١/٤)، وأعلـن عـن الفائـز في (٢٠١٧/٢/٤)، وفـاز في هـذا الموسـم الفلسـطيني (يعقـوب شـاهين) بالمركـز الأول.

علامات نجاح المشروع الإسلامي

في كلمة ألقاها في اجتماعات مجلس شورى الحركة الإسلامية السودانية اعتبر الرئيس السوداني (عمر البشير) المشروع الإسلامي في السودان (ناجحًا)[1]؟

لماذا؟ وما الأدلة التي ساقها سيادة الرئيس؟؟؟

سيادة الرئيس يزعم أن علامات نجاح المشروع الإسلامي هي: انتشار المساجد وارتياد الشباب لها، والتنافس في إعداد وتوزيع كيس الصائم والتوسع في إقامة صلوات التراويح والتهجد في معظم المساجد!!!!

نريد من يشرح لهذا (الزول) أن الأدلة على نجاح أي مشروع إسلامي يجب أن تكون: توفير العدل والعزة والكرامة والحرية والكفاية للوطن والمواطن، وبدون ذلك فمشروعكم فاشل حتى لو انتسب للإسلام.

نريد أن ندرك - كإسلاميين - أن الإسلام جاء لتحقيق مقاصد أساسية مهمة كالعدل مثلًا، والدولة التي يصلي أفرادها ولا تمارس العدل حالها كالذي يصلي في المسجد ويأكل ميراث أخواته، فإن صلاته لا تكفيه.

قد يعذره البعض بأن السودان في عهده حورب وحوصر من أنظمة الكفر العالمية، وبغض النظر عن مدى دقة هذا الطرح كسبب لفشل النظام السوداني في تحقيق تلك المقاصد الشرعية، فإن وجود الأسباب الخارجية لا ينفي وجود الفشل، فلو رسب طالب توجيهي لأن الاحتلال اعتقله فإنه سيبقى راسبًا، مع التماسنا له العذر بسبب الظروف الخارجية.

إننا هنا نتحدث عن أن الأدلة على نجاح أي مشروع إسلامي ليست هي

---

(١) كانت كلمة الرئيس السوداني هذه بتاريخ ٢٠١٧/١٠/٢٨، وبعد نحو سنة ونصف منها، بتاريخ (٢٠١٩/٤/١١) انقلب قادة الجيش السوداني الذين أحاط (البشير) بهم نفسه عليه ووثق بهم، فعزلوه، وسجنوه، وانحدروا في انحطاطهم لدرجة التطبيع مع العدو الصهيوني.

ما يقوله الرئيس السوداني، فهذه الإنجازات التي ذكرها (البشير) تحسب للجمعيات والجماعات والحركات، أما الدول والأنظمة والحكومات، فهي لا تحسب لها كثيراً في غياب القضايا المهمة كالعدل والشورى ومحاربة الفساد.

والملاحظ أننا لا يجوز أن نعلق الفشل كل الفشل على شماعة الظروف الخارجية، فتمسك الرئيس بالمنصب لمدة اقتربت من (٣٠) سنة يدلُّ على عدم وجود ممارسة شورية، أو على الأقل على أن النظام لا يربي الشعب على تخريج قيادات ذات كفاءة منهم؟

وليس معنى كلامنا أننا نتهمه بالعمالة، كما يفعل البعض، فلست مع توزيع الاتهامات دون دليل، ولكننا نشير إلى موضع الخلل دون الحكم على الخفايا؛ لأنه لا يمكن معالجة المرض دون تشخيصه.

تحذير

هناك فئة من الناس يزعمون أنهم يفهمون في أمور السياسة ما لا يفهمه غيرهم، من صفاتهم:

- أنهم لا يميزون بين الثوابت التي لا يجوز الاختلاف فيها، وبين الاجتهادات التي تتفاوت الآراء فيها بناء على اختلاف النظر في الأدلة الشرعية والاستنباط منها.
- لا يلتمسون لمخالف عذرًا، ولا يحسنون الظن بغيرهم من المسلمين.
- إذا خاصموا فجروا.
- إذا رأى أحدهم قبيحًا أو شرًّا أذاعه، حتى لو كان مصدر خبره ضعيفًا، وإذا رأى خيرًا كتمه.
- سيوفهم وألسنتهم على صالحي عباد الله مسنونة.
- همّهم تصيُّد الأخطاء وليس نُصح المخطئين، وتسجيل المواقف، لا تصويب المسارات.

فاحذروهم واحذروا أن تكونوا منهم، نعوذ بالله أن نكون وإياكم منهم أو معهم، ونسأله أن يرشدنا للحق ويهدينا إليه.

الإنكار طريق الدمار

قد تتعثر وأنت تسير، وقد تفشل في تحقيق ما تريد، وتتباين أساليب الناس في التعامل مع ذلك؛ فالعاقل يبحث عن أسباب العثرات ليعالجها، أما الجاهل فإنه إما أن ينكر الفشل، ويصنع لنفسه إنجازات موهومة، أو أن يتجاهل الأسباب الحقيقية للفشل، فيعزوه لأسباب خارجة عن إرادته.

ولا شك أن هناك حالات يكون الفشل فيها نتيجة أمر خارجي، ولكن كثيرًا من حالات الفشل في العمل السياسي والاجتماعي تكون لها أسباب ذاتية، وقد تتداخل أسباب الفشل الذاتي مع أسباب الإفشال الخارجي، وهو ما يحدث مع (الحركات الإسلامية) في غالب الأحيان.

نموذج تطبيقي لذلك هو ما حدث مع (حزب العدالة والتنمية المغربي) الذي مُني بهزيمة صارخة في الانتخابات الأخيرة، فقد تراجع عدد مقاعده في البرلمان من (١٢٥) إلى (١٣) مقعدًا فقط من إجمالي (٣٩٥) مقعدًا برلمانيًّا (من ٣٢٪ من المقاعد إلى نحو ٣٪ فقط)، وكذلك تراجعت مقاعد الحزب في مجالس البلديات من (٥٠٢١) إلى (٧٧٧)، وفي مجالس الأقاليم من (١٧٤) إلى (١٨) مقعدًا فقط.

ورغم هذه الهزيمة الصارخة فإن الحزب الذي كان يقود الحكومة منذ عشر سنوات، ويفترض أنه يملك (ماكينة) انتخابية نشطة، وقاعدة جماهيرية واسعة، عزا - في بيان أصدره أمس بعد دورة استثنائية لمجلسه الوطني لمناقشة نتائج الانتخابات - سبب الهزيمة إلى «الخروقات والاختلالات»، وندد بها، وقال أن النتائج لا تعكس حقيقة الخريطة السياسية والإرادة الحرة للناخبين.

قد يكون التزوير قد شاب الانتخابات، وقد يكون الاستعمال الكثيف للمال السياسي قد أثر على النتائج، ولكن كل ذلك لا يفسر هذا التراجع

الصـادم لنتائـج الحـزب.

إن (حـزب العدالـة والتنميـة المغـربي)، و(الإخـوان) في مـصر والأردن وغيرهـما، وحـزب النهضـة في تونـس، وحـزب التحريـر، ومثلهـم بقيـة مـن يحملـون شـعار العمـل للإسـلام، يتوجـب عليهـم أن يقفـوا مـع ذواتهـم، ويفتشـوا في أنفسـهم، فقـد يكتشـفون أن خلـلًا أصـاب مسـيرتهم أو منهجهـم أو شـاب تطبيقهـم لخطتهـم كان لـه دور كبـير في عـدم تحقيـق أهدافهـم، وبذلـك قـد يتمكنـون مـن اسـتدراك الخلـل ومعالجـة موضعـه، واسـتكمال السـير، وإلا فهـم كالمريـض الـذي ينكـر أنـه مريـض، ويرفـض إجـراء الفحـوص وتلقـي العـلاج، فإنـه سرعـان مـا سـينتكس ويمـوت، ولات حـين منـدم.

القمّة

بمناسبة استشهاد الأستاذ المرشد (محمد مهدي عاكف) رحمه الله تعالى

عندما يحاول إنسانٌ تسلق جبل مرتفع للوصول إلى قمته ويرتقى بنظره فيرى بُعدَ القمة الهدف، ووعورة الطريق، تهاجمه الأفكار السلبية، فتفتر عزيمته مرة بعد مرة، وقد يدفعه ذلك إلى التراجع، ولكنه إن نظر فرأى من سبقه ووصل إلى القمّة رغم ارتفاعها ووعورة الطريق، فإن ذلك سيُمِدُّه بعزيمة لا تتحطم أمام الصعاب، ويُقوّي إرادته، ويُهوِّن عليه مشقّة الطريق، فقد أيقن أن الوصول إلى القمة ممكن.

فكيف إذا كان الذي سبق ووصل القمة شيخ بلغ التسعين من عمره؟؟!!

(مهدي عاكف) - رحمه الله - وصل القمّة، وأقام علينا الحجّة.

صناعة الوهم[1]

رفعُ سقف التوقعات والتفاؤلُ غير المنضبط يؤديان إلى أن يكون حجم الإحباط أكبر إن لم تَصدُقْ تلك التوقعات، فبقدر ارتفاع (الآمال) تكون (الآلام) عند السقوط.

(١) بعد توقيع اتفاق المصالحة بين حماس وفتح انتشر تفاؤل مفرط، وخصوصًا لدى إخواننا في غزة، عبّرت عنه تصريحاتهم، وكأن المشكلة انتهت، فكتبتُ داعيًّا لكبح جماح هذا الإفراط. وقد علق العديد من الإخوة الأفاضل مؤيدين للفكرة، وكان اللافت للنظر تعليق أحد أعضاء المكتب السياسي لحماس، حيث كتب في تعليقه على هذا المنشور: لم يصدر عن السلطة ما يبث الأمل أو يدفع إلى التفاؤل!! مما يعني أن الدعوة للتفاؤل كانت بلا أساس.

نصائح وتنبيهات في مسائل الانتخابات[1]

صارت (العمليات الانتخابية) أمورًا راسخة متكررة في مسيرنا، منها انتخابات داخلية لاختيار من يقود المسار، ومنها انتخابات سياسية كانتخابات المجالس التشريعية، ومنها انتخابات خدماتية (تشوبها في بلادنا التأثيرات السياسية) كانتخابات المجالس البلدية، والانتخابات الطلابية، وانتخابات الجمعيات الخيرية.

ونحن بحاجة إلى التفقه في فقه الانتخابات، وهذه التدوينات لا تغطي المطلوب كله، ولكنها خواطر ولفتات في هذه المسائل.

القيم (الإيجابية) و(السلبية) للمرشحين

في كثير من الأحيان لا يكون الاختيار في العمليات الانتخابية بين الحق والباطل، ولا بين الأبيض والأسود، إذ يكون في كل المرشحين خير يستفاد منه، وهذا يتطلب من الناخب استخدام ميزان دقيق ليختار الأصلح لشغل المنصب الذي يتنافس عليه المرشحون.

في هذا الميزان يجب أن يتم وضع (القيم الإيجابية) للمرشح في إحدى الكفتين، و(القيم السلبية) في الكفة الأخرى، ويتم الاختيار بناء على ما تنتجه عملية الموازنة، فيتم اختيار من رجحت قيمه الإيجابية على غيره من منافسيه.

وعندما نتحدث هنا عن (القيم الإيجابية) و(القيم السلبية) للمرشحين، فإننا نعني بها الصفات الضرورية للنجاح في الموقع المقصود والذي يتنافس عليه المرشحون.

---

(١) نُشرت هذه النصائح في تدوينات منفصلة أيام الانتخابات البلدية، وهي نصائح عامة تصلح للتطبيق في كل عملية انتخابية، سواء كانت داخلية أم خارجية، سياسية أم خدماتية.

ولا بدَّ أن نلاحظ أنَّ قيمة الشخص الإيجابية والسلبية تتغير من موقع لآخر، فلو أردت تقويم شخص ما لمعرفة صلاحيته لشغل عضوية المجلس البلدي فقد أعطيه - شخصيًا - تقويمًا سلبيًّا، بينما قد يتمتع الشخص نفسه بتقويم إيجابي لو أردت على سبيل المثال انتخابه لشغل منصب عضوية مجلس نقابة مهنية، أو أردت استفتاءه في مسألة فقهية إن كان فقيهًا، أو تقويمه من ناحية طبية لأتعالج عنده إن كان طبيبًا، أو استشارته في أمر قانوني إن كان محاميًا، فقد أعطيه تقويمًا إيجابيًّا مرتفعًا، مع أنه نفس الشخص، ولكن الذي اختلف هنا هو (المهمة) التي يراد التقويم لأجلها.

وكما نحتاج للموازنة بين المرشحين كأشخاص، فإننا نحتاج أحيانًا للموازنة بين الكتل المترشحة ككتل، وذلك حينما يفرض النظام الانتخابي على الناخب اختيار كتلة كاملة، بصالحها وطالحها، وجيدها ورديئها، وهنا فإن الموازنة تتطلب معرفة الأوزان الإيجابية للأشخاص المرشحين في القائمة، لمقارنة مجموع تلك الأوزان والقيم ببقية القوائم، كما يلزم النظر إلى مقدار التوافق بين أعضاء القائمة، وفرصهم في تحقيق النجاح.

لا يوجد في هذه الدنيا خير مطلق، ولا شرٌّ مطلق، وهكذا هي الكتل المتنافسة في الانتخابات، كلها فيها خير وشرّ، ومهمتك أن تختار أكثرهم خيرًا وأقلهم سوءًا.

تمكين الشباب

يحمل البعض لواء الدعوة لتقديم الشباب لشغل المناصب القيادية، ويكثرون الشكوى من انفراد الشيوخ (كبار السنّ) بهذه المواقع، وهنا أحب أن أؤكد - في البداية - أنني مع مشاركة الشباب في اتخاذ القرار وتنفيذه، مع مراعاة المحددات والتخصصات، ومن يعرفني يعرف أني كنت

دومًا وما زلت منحازًا لصالح المشاركة الشبابية لأن الشباب هم المستقبل، غير أني أحب أن أسلط الضوء على بعض الملاحظات في هذه المسألة:

- مصطلح (الشباب) مصطلحٌ فضفاض، فبينما ترى البعض يسوّق لأشخاص أعمارهم في نهاية العقد الرابع أو بداية الخامس على أنهم من فئة الشباب، فإن أبناء (العشرينات) يرونهم شيوخًا كبارًا في السنّ، ولذا فإن الدعوة لـ (تمكين الشباب) دعوة فضفاضة ليس لها محددات ثابتة.
- ما يميز الشباب، ويوجب مشاركتهم في أي موقع لاتخاذ القرار هو (حماستهم) و(نشاطهم)، ولكن هذه الحماسة والنشاط ما لم تكن منضبطة بـ (حكمة) كبار السن وتجاربهم قد تؤدي إلى الوقوع في مزالق كثيرة.
- اعتبار صفة (الشبوبية) العامل الأساسي للنجاح غير مبني على أسس صحيحة، فكم من شاب فشل في أداء عمله، بل دمّر المؤسسة التي قادها، وفي المقابل فإن هناك من (كبار السنّ) من أبدع وما زال قادرًا على العطاء، ولعل نموذج رئيس الوزراء الماليزي (مهاتير محمد) الذي تولى المنصب (في المرة الثانية له) سنة ٢٠١٨م، وكان عمره حينها (٩٣) عامًا - إذ هو من مواليد سنة ١٩٢٥ - وكان رئيس وزراء ناجحًا في عمله يثبت أن القضية متعلقة بـ (حسن الأداء) لا بمجرد كون المسؤول شابًّا.

عندما تكون هناك قوائم مترشحة لإدارة مؤسسة ما فإن النموذج الأمثل هو أن تحوي القائمة المترشحة (من ناحية العمر) الشيوخ (كبار السن) للاستفادة من حكمتهم وخبرتهم، و(الشباب) للانطلاق بحماستهم ونشاطهم، و(الكهول) لاستثمار توازنهم.

وملاحظة أخيرة: (الشباب) شباب الروح والقلب والعقل، فكم من (صغير

في العمـر) إلا أنـه يحمـل فكـرًا قـد شـاخ، وعقـلًا مقفـلًا، وكـم مـن (كبـير في العمـر) مـا زال قلبـه شـابًا، وعقلـه متفتحًـا.

لا تخسر أخاك

في العمليـة الانتخابيـة مـن حقـك أن تـروج للقائمـة التـي أنـت مقتنـع بهـا، ومن حقـك أن تبـين نقـاط قـوة وضعـف المرشـحين (الأشـخاص والقوائـم) - مـن وجهـة نظـرك - ولكـن بـشرط أن لا يكـون في ذلـك تجريـح للأشـخاص، إذ جـلُّ المسـائل المتعلقـة بالشـأن العـام مسـائل اجتهاديـة تحتمـل الخطـأ والصـواب، ولا يجـوز لأحـد أن يظـن في نفسـه احتـكار الصـواب المطلـق، وهـذا يوجـب علينـا أن يسـتوعب بعضنـا بعضًـا.

بئسـت الانتخابـات إن كان مـن نتائجهـا أن تتوغـر النفـوس، وتتغـير القلـوب، وننـسى روابطنـا الجامعـة.

إن القسـوة أثنـاء الدعايـة الانتخابيـة تسـبب ندوبًـا في النفـوس يبقـى أثرهـا طويـلًا، ونحـن لا نريـد أن يخسر الواحـد منـا أخـاه أو قريبـه أو صديقـه لأجـل انتخابـات يدخـل الاختـلاف فيهـا ضمـن مسـائل الاجتهـاد، وليسـت معـارك مصيريـة، وبالتـالي فـلا ينبغـي أن نعطيهـا أكـثر مـن حجمهـا الحقيقـي.

التضحية وتأثيرها

في كثـير مـن الأحيـان ينظـر الناخـب إلى قيمـة (التضحيـة) التـي قدمهـا المرشـحون كعامـل حاسـم في الموازنـة بينهـم، وهـو أمـر يحتـاج مزيـدًا مـن النظـر والتدقيـق.

وفي البدايـة لا بـدَّ مـن التأكيـد عـلى أن التمتـع بالاسـتعداد لــ (التضحيـة) أمـر ضروري لازم، ففـي المناصـب العامـة التـي تتوفـر لشـاغلها المغريـات يلـزم أن يكـون شـاغل هـذا المنصـب مسـتعدًّا للتضحيـة بمصالحـه الخاصـة، ومصالـح

مـن حولـه مـن أقـارب وأصدقـاء ومنتفعـين عندمـا تتعـارض مـع المصلحـة العامـة، فعندمـا يريـد تعيـين موظـف - عـلى سـبيل المثـال - ويتقـدم قريـب له للوظيفـة، فـإن مصلحـة قريبـه أن يتـم توظيفـه، فـإذا كانـت مصلحـة المؤسسـة أن يتـم توظيـف غـير قريبـه فواجبـه يقتـضي تقديـم مصلحـة المؤسسـة عـلى مصلحـة قريبـه حتـى لـو اسـتاء ذاك القريـب منـه، والـذي لم يُضّحِّ ولم يقـدّم مـن دمـه وعمـره لأجـل الوطـن، أو لم يكـن عنـده الاسـتعداد للتضحيـة، فهـو بالـضرورة لـن يكـون لا قـادرًا عـلى إدارة المؤسسـة بإخـلاص، ولا حريصًـا عليهـا، إذ يعتـبر الوطـن (مشروعًـا اسـتثماريًّا) أو (بقـرةً حلوبًـا).

وهنا لا بدَّ من تنبيهات:

- القيمـة الأساسـية التـي نريدهـا أن تتوفـر في المرشـح هـي (الاسـتعداد للتضحيـة)، وهنـاك فـرق بـين (التضحيـة) الفعليـة وتوفـر الاسـتعداد للتضحيـة، والأمـر بحاجـة لموازنـة دقيقـة، إذ بعـض مـن قدمـوا تضحيات في مرحلـة مـا مـن مسـيرتهم فقـدوا بعدهـا (الاسـتعداد للتضحيـة) ولذلـك تراهـم جبنـوا وآثـروا الخلـود للراحـة، فهـؤلاء لا يجـوز أن نبقـى مأسـورين لتضحيـات قامـوا بهـا وندمـوا عليهـا.
- (الاسـتعداد للتضحيـة) لا يقـاس بحجـم التضحيـة، فعـلى سـبيل المثـال يُعتـبر التعـرض للسـجن لـدى العـدو نوعًـا مـن أنـواع التضحيـة، ولكـن ليـس بالـضرورة أن لـدى مـن سـجن عشريـن سـنة اسـتعدادًا للتضحيـة أكـثر مـن الموجـود عنـد مـن لم يسـجن إلا سـنوات قليلـة.
- عندمـا نتحـدث عمّـن ضحـى فالمقصـود مـن ضحـى بنفسـه، أمـا الـذي يفخـر بتضحيـات الآخريـن حتـى لـو كانـوا مـن أقاربـه، ولم يقـدم هـو شـيئًا فقـد لا يتمتـع بـ (الاسـتعداد للتضحيـة)، ويكـون هنـا كـ (القرعة الـلي بتتباهـى بشـعر بنـت أختهـا).
- والنقطـة الأخـيرة المهمـة هـي أنـه ليـس بالـضرورة أن يكـون مـن

ضحى في سبيل الله ومن أجل الوطن قادرًا على إدارة مؤسسة، ففيهم القادر على ذلك والعاجز، فقيمة التضحية مطلوبة، ولكنها لا تفيد منفردة إن فقد المرشح القيم الإيجابية الأخرى اللازمة لشغل المنصب.

الانتخابات بين الجنة والنار

في كثير من الأحيان يتم استخدام الخطاب الديني في مراحل الدعاية الانتخابية بطريقة غير صحيحة، وهنا أودّ التنويه إلى أنني لست ضد استخدام الخطاب الديني بالمطلق، وإنما ضد التوظيف الخاطئ له.

لا حرج في استخدام الخطاب الديني - في رأيي - لتذكير الناخبين بأن أصواتهم أمانة سيحاسبون عليها، وأن الواجب الشرعي يلزمهم باختيار الأصلح، وأنهم يجب أن يستحضروا مخافة الله حين الإدلاء بأصواتهم، ولا مانع من تذكيرهم بأنه لا يجوز أن ينتخبوا الفاسدين، ولا أعداء الدين، كل ذلك بدون الخوض في شخصنة الأمور، ولا إلقاء التهم جزافًا.

المشكلة هي أن يتم استخدام الخطاب الديني في الانتخابات الخدماتية والتي تحتمل الاختلاف في وجهات النظر، وتندرج في إطار القضايا الاجتهادية لتوزيع الناخبين على الجنة والنار، والحكم على فريق منهم بالإثم والعصيان، وذلك دون الاستناد إلى أسس شرعية، فالحديث في موضوع الجنة والنار والإثم والمعصية متعلق بالدين وأحكامه، وليس أمرًا يجوز أن يُتساهل به ويفتي فيه كل أحد.

ولتوضيح اللبس في بعض الأمور أودّ الإشارة إلى ما يلي:

- ليس لأحد - مهما كان - أن يحكم - جزمًا - بدخول شخص ما من المسلمين الجنة أو النار، فحتى العصاة من المسلمين قد تكون لهم أعمال مخبوءة، وقد يُختم لهم بخاتمة مشرقة فلا تمسُّهم

النـار إلا تحلّـة القسـم، وكذلـك مـن نراهـم مـن أهـل الطاعـة والصلاح قـد يكـون عملهـم الصالـح الظاهـر مدخـولًا ونيّتهـم فيـه ليسـت للـه فيكونـون مـن أهـل اسـتحقاق العـذاب، ولكننـا نرجـو للطائعـين ونخـاف عـلى العاصـين.

- موضـوع الإثـم في انتخـاب كتلـة مـا ليـس - أيضًـا - بالأمـر الـذي يمكـن إصـدار الحكـم فيـه بسـهولة، فموضـوع الانتخابـات الخدماتيـة في أصلـه متعلـق باختيـار الأقـدر عـلى تقديـم الخدمـة، وهـي مسـألة اجتهاديـة، فمـن قـد أراه الأكفـأ عـلى تقديـم الخـير للبلـد وأهلـه قـد لا يوافقنـي غـيري في رؤيتـي هـذه، ويـرى غـيره أكفـأ منـه، ومعلـوم أن الأمـور الاجتهاديـة يـدور الأمـر فيهـا بـين (مصيـب مأجـور) و(مخطـئ معـذور).
- الحالـة التـي قـد يتعلـق بهـا وقـوع الناخـب في الإثـم هـي مـا وصفـه الرسـول ﷺ في قولـه: (مَـنِ اسْـتعملَ رجُـلاً مِـنْ عِصابَـةٍ وفيهِـمْ مَـنْ هـو أرْضى للـه مِنْـهُ؛ فقـد خـانَ اللـه ورسـولَهُ والمؤمنـينَ)[1]، وهـو حديث اختلـف العلـماء في الحكـم عليـه، وأكثرهـم عـلى تضعيفـه، ولكـن معناه صحيـح تشـهد لـه عمـوم نصـوص الشريعـة، ومنهـا حديـث (الديـن النصيحـة)[2]، وحديـث (مَـا مِـنْ عَبْـدٍ يَسْـتَرْعِيهِ اللـهُ رَعِيَّـةً يَمُـوتُ يَـوْمَ يَمُـوتُ وَهُـوَ غَـاشٌّ لِرَعِيَّتِـهِ إِلَّا حَـرَّمَ اللـهُ عَلَيْـهِ الْجَنَّـةَ)[3]، إذ الناخـب اسـترعاه اللـه أن يختـار مـن المرشـحين أفضلهـم، فـإن اختـار غـيره - وهـو يعلـم - فقـد غـشَّ رعيّتـه.
- وهنـا يجـب أن ننتبـه إلى أن الحالـة التـي (قـد) يلحـق الإثـمُ فيهـا الناخـب هـي حالـة أن يختـار شـخصًا وهـو (يعلـم) أن غـيره أكفـأ

(١) السنة لابن أبي عاصم، ح ١٤٦٢، المستدرك على الصحيحين للحاكم، ح ٧٠٢٣.

(٢) صحيح مسلم، ح ٥٥.

(٣) صحيح مسلم، ح ١٤٢.

وأفضـل منـه، مـع الأخـذ بالاعتبـار أن الكفـاءة والأفضليـة ليسـتا متعلقتـين بالشـهادات والخـبرات فقـط، بـل لهـما عنـاصر كثـيرة تتشـارك في تشـكيلهما، ففـي هـذه الحالـة يكـون الناخـب قـد (غـشّ) أهـل بلده متعمـدًا لمصلحـة خاصـة، أو تعصـب حـزبي أو عائـلي، وهـو مـا ذكـره النبـي ﷺ في الحديـث - المختلـف في صحتـه أيضًـا - عندمـا قـال: (مَـنْ وَلِيَ مِـنْ أمْـرِ المسـلمينَ شـيْئاً؛ فأمَّـر عليْهِـمْ أحـداً مُحاباةً، فعليـهِ لعنـةُ اللـه، لا يَقبـلُ اللـه منـه صَرْفـاً ولا عَـدْلاً حتـى يُدخِلَـهُ جهَنَّـمَ)[1].

- أمـا إن اختـار كتلـة مـا وهـو (مقتنـع) بهـا و(مؤمـن) بصلاحيتهـا فـإن الإثـم لا يلحقـه - واللـه أعلـم - لأنـه اجتهـد، فحتـى لـو أخطـأ فهـو معـذور في اجتهـاده.

الانتخابات بين الحلال والحرام

كـما سـبق وذكرنـا فـإن قضايـا الانتخابـات هـي مسـائل اجتهاديـة في الأصـل، يجتهـد فيهـا أهـل الـرأي ليختـاروا الأصلـح، ومـا يرجحـون أنـه يحقـق رضى اللـه تعـالى، والأصـل في عمليـة الانتخابـات إعـمال قواعـد الموازنـة بـين المصالـح والمفاسـد كقاعـدة (اختيـار خـير الخيريـن، واجتنـاب شر الشرّيـن)، و(تقديـم درء المفسـدة عـلى جلـب المصلحـة)، و(احتـمال الـضرر الأدنى لدفـع الـضرر الأعـلى) ومـا شـابه هـذه القواعـد.

وعنـد التطبيـق فـإن هـذه الموازنـات تتأثـر بظـروف كثـيرة محيطـة بهـا، فعـلى سـبيل المثـال قـد تكـون (كتلـة انتخابيـة) مـا هـي أفضـل الموجـود في مرحلـة، فالأصـل أن أختارهـا لأنهـا أصلـح الموجـود، ثـم تـأتي مرحلـة أخـرى تترشـح فيهـا نفـس الكتلـة السـابقة، ولكـن يدخـل في المعادلـة وجـود كتلـة هـي أفضـل منهـا، فتفقـد الكتلـة الأولى ميـزة أنهـا أصلـح الموجـود لوجـود مـا هـو أصلـح

(١) مسند أحمد، ح ٢١، المستدرك على الصحيحين للحاكم، ح ٧٠٢٤.

منها، وهنا واجبي في اختيار الأصلح يلزمني باختيار الكتلة الجديدة وترك الكتلة القديمة، وهنا نواجه معضلة يقع فيها كثير من المشايخ بحسن نية، وذلك حين يروجون لفكرة أن انتخاب الكتلة الفلانية أو الشخص الفلاني حرام، وأن الواجب هو انتخاب الكتلة العلانية، أو الشخص العلاني، وهذا يتضمن مفسدتين رئيستين:

أولاهما: أن حكم الحل والحرمة هنا متعلق بالشخص ويختلف باختلافه، فإذ كنت (مقتنعًا) أن الأصلح فلان وانتخبت علانًا فقد وقعت في الإثم، ولكن في نفس الوقت لو كان أخي أو صديقي مقتنعًا أن (علانًا) هو الأصلح وانتخبه فإنه لا يأثم؛ لأن كل واحد منا مأمور أن يعمل وفق قناعته التي أداه إليها اجتهاده، فإطلاق ألفاظ الحلال والحرام هنا يوقع الناس في إرباك لا داعي له.

أما المفسدة الثانية فهي: أن اجتهادي اليوم قد يخالف اجتهادي أمس، بمعنى: قد أختار في هذه الدورة شخصًا لأنتخبه - أو كتلة - لقناعتي بأفضليتها وصلاحيتها، وفي دورة انتخابية أخرى قد تتغير الظروف فأجد أن كتلة أخرى مغايرة هي الأصلح لتلك المرحلة، فأميل لانتخابها، فإذا كنت قد استخدمت مصطلحات (الحلال والحرام) في ترويجي لاختياري فإن ذلك سيربك من حولي، إذ كيف يكون انتخاب فلان طاعةً اليوم وقد كان معصية بالأمس؟!

لذلك فالأولى الابتعاد عن هذه المصطلحات الحاسمة في هذه القضايا الخلافية؛ لئلا يُساء الظنّ بأهل الدين من قِبَل عامة الناس، فيظنونهم يتلاعبون بالأحكام وفق أهوائهم.

في فقه الرايات المتنافسات

الرايات المختلفات الألوان التي ترفعها الفصائل والأحزاب لها هدف وظيفي وهو تمييز تابعي كل جهة عن غيرهم، وهذا التمييز له جوانب إيجابية وجوانب سلبية، والعقلاء هم من يعملون على تعزيز إيجابيات هذا السلوك وتقليل سلبياته.

هذه الرايات كانت في الزمن القديم تعقد للقبائل، لكل قبيلة راية تتميز بها، وكان من أهداف هذا التميز التنافس الإيجابي بين القبائل المختلفة، ولعلّ أول من عمل على نقل مفهوم الراية من كونه دالًّا على تجمع قبلي ليكون علامة على صفة أرقى هو النبي ﷺ الذي جعل في أول الأمر في معاركه درجات للرايات، فللمهاجرين راية وللأنصار راية، ثم في مستوى أدنى ضمن الأنصار مثلًا كان للأوس راية وللخزرج راية، وفي فتح مكة ترقى بهم درجة عندما وزع جيشه ص وفق قبائلهم إلا الأنصار والمهاجرين جمعهم تحت راية واحدة؛ لأن الرابطة الأقوى التي تجمعهم كانت العقيدة وليس القبيلة.

هذا الهدف التنافسي استفاد منه القادة المسلمون في معاركهم، فعلى سبيل المثال فإن كتب التاريخ تروي أنه لما اشتدَّ القتال في معركة اليمامة مع المرتدين، وكانت الحرب سجالا؛ مرةً على المسلمين ومرة على المرتدين، وكان قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد، قال خالد لجيشه: أيها الناس؛ امتازوا؛ لنعلم بلاءَ كلِّ حيٍّ، ولنعلمَ من أين نؤتى![1]

كان هدف خالد أن يتنافس الواقفون تحت رايات قبائلهم ويأنف كل فريق منهم أن يكون من تأتي الهزيمة من ناحيته فيدفعهم ذلك للاستبسال في القتال.

---

(١) تاريخ الطبري، ٣/ ٢٩٣.

بعـد صـدور الأمـر امتـاز أهـل القـرى والبـوادي، وامتـازت القبائـل مـن أهـل البادية وأهـل الحـاضر، فوقـف بنـو كل أبٍ عـلى رايتهـم، فقاتلـوا جميعًـا، واحتـدم القتـال، واستبسـل النـاس حتـى انتـصر المسـلمون.

ألا يمكننـا أن ننظـر للرايـات المتنافسـات في سـاحتنا نفـس النظـرة، ونجعلهـا ميدانًـا للتنافـس في تحصيـل المـكارم، لا للمناكفـات!؟

كلمة الحق في وقتها

أن تقول كلمة الحق والمعلومة الصحيحة شيء مهم ومطلوب، ولكن لا ينفكُ عنه أن يكون ذلك في المكان والزمان المناسبين.

كان ابن مسعود ﵁ يقول: (مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً)[1]، ومعنى قوله (لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ) أي لا يفهمونه ولا يُدرِكون معناه، وقد يكون ذلك لقصور في أفهام البعض، كما قد يكون لوجود حالة تغلب فيها العاطفةُ العقلَ، فإن جئت تخاطب العقل، وجدت بينه وبين الفهم حاجزًا من عاطفة مشبوبة، وكان عليٌّ ﵇ يقول: (أيها الناس أتريدون أن يكذَّب الله ورسولُه! حدثوا الناس بما يعرفون، ودَعُوا ما ينكرون)[2].

وليس معنى ما سبق أن تمتنع عن بيان الحق من الباطل، بل إن بيان الحق من أوجب الواجبات، وإنما المقصود أن يختار المتحدث الوقت المناسب لبيان الموقف الصحيح؛ لأن الهدف يجب أن يكون تجلية الحق، فإذا أدى الكلام أو الموقف إلى رد فعلٍ يدفع السامع لعدم الإذعان للحق، فإن تأجيل الكلام أو الموقف حتى تهدأ الأمور وتعود العقول لتكون القائدة للمسير واجب لا ينبغي الغفلة عنه.

ولنا عبرة في موقف سيدنا هارون ﷺ من عبادة بني إسرائيل للعجل، إذ لم يتخذ موقفًا بمفارقتهم رغم ما فعلوه، وعندما عاتبه سيدنا موسى ﷺ وقال له: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾، كان جواب نبي الله هارون ﷺ أن قال له: ﴿إِنِّى خَشِيتُ

(١) صحيح مسلم، المقدمة، ١/ ١١ (ت عبد الباقي).

(٢) هو بهذا اللفظ في: المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ت عوامة)، ح ١٧١٣، وأصله في صحيح البخاري، ح ١٢٧.

﴿أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾، يعني: أجلت اتخاذ الموقف، وترقبت عودتك حتى لا أسبب تفريق قومي قبل استشارتك وحضورك، فتأجيل اتخاذ الموقف وإعلانه ليس في موضع الذمِّ دومًا، بل إن الظروف قد تتطلب ذلك.

والله المستعان على أن يفقهنا في ديننا.

إنكار المنكر له قواعد

إنكار المنكر والأمر بالمعروف واجبان لا يتمارى مسلم في وجوبهما وضرورتهما، ولكن الإسلام نفسه الذي أوجب هذين الأمرين، وضع قواعد لكيفية ممارستهما، ومنها ألا يؤدي إنكار المنكر أو الأمر بالمعروف للوقوع في منكر أكبر أو ترك معروف أعظم، فلو كان إنكارك لوقوع مسلم في مخالفة في حكم عملي سيؤدي إلى وقوعه في مخالفة عقدية نتيجة ردّ فعل تتحكم به العاطفة فإن إنكارك يكون منكرًا هنا.

وليس معنى ذلك أن تسكت عن المنكر، ولكن أن تتريث لتجد الوقت والظرف المناسبين لبيان الحكم الشرعي.

واجب البيان

اختلط لدينا الحابل بالنابل، وصار كثير من الناس يهرفون بما لا يعرفون.

أساسيات الدين صارت مائعة لدى كثير من عامة المسلمين، وذلك لانتشار الجهل فيهم، بسبب تغييب أهل العلم الشرعي عن مراكز التوجيه والتعليم، وترك الساحة للرويبضات، ولا يُعفى أهل العلم الشرعي من نوع تقصير، فكثير من المتصدرين فيهم انشغلوا بالمواضيع السياسية مفترضين أنها واجب الوقت، وأن أساسيات العقيدة واضحة لدى عامة المسلمين، ولكن الأحداث هذه كشفت مقدار الخراب الفكري الذي أصابنا حتى صرت ترى من يفترض فيه أنه ملتزم دينيًّا يجادل في قضايا من المعلوم من الدين بالضرورة، مثل مسألة أن الكافر لا يدخل الجنة، ولا يجوز الاستغفار له إن مات، ولا تصلى عليه الجنازة ...الخ

المطلوب أن يقوم أهل العلم الشرعي - بعدما تهدأ عاصفة الجدل الحالي - بإعادة بيان الأساسيات في قضايا الدين والعقيدة، وأن لا يفترضوا أن عامة الناس مدركين لها، فمما رأيناه فإن الجهل بأحكام الشريعة عامٌّ طامّ.

وواجب أهل العلم الشرعي أن لا يقتصر جهدهم هذا على وسائل التواصل، بل يجب أن يقوم بواجب البيان الأئمة والوعاظ في المساجد، والمدرسون في مدارسهم، وبقية أهل العلم الشرعي في كل مجلس يكونون فيه.

والله المستعان.

علمانيو الإسلاميين

قد يكون تركيب هذا المصطلح غريبًا، فهو يجمع بين متناقضين، إذ كيف يمكن أن يكون الشخص إسلاميًّا وعلمانيًّا في آنٍ واحد؟ ولكن للأسف فإن هذا الأمر صار واقعًا مشاهدًا، وحتى يكون حديثنا واضحًا جليًّا على بيّنة، فإن الفئة التي أقصدها بهذا الوصف هي فئة تنتمي إلى التيار الإسلامي، محبّة وعاطفة، بل وتعتبر نفسها من كوادر العمل الإسلامي، غير أنها - ولظروف مركّبة معقدة - لم تتربَّ فكريًّا وعقائديًّا في المحاضن التي تزوّد النشء بالتأصيل الفكري الحامي من الانحراف، أو أنها التزمت بالتوجه الإسلامي بعد قضائها فترة في أحضان التيارات الأخرى، وكان انحيازها للفكر الإسلامي مدفوعًا بالعاطفة والإعجاب في المقام الأول، ولم تنخلع من الأفكار السابقة التي كانت قد تشرّبتها، ولذلك تراهم في مواقفهم يدافعون عن التيار الإسلامي، ويعتبرون أنفسهم من حملة لوائه، وهذا مناط وصفهم بـ (الإسلاميين)، ولكنهم في نفس الوقت لضعف تأهيلهم الفكري يتبنّون أفكارًا - في المجال السياسي - تندرج ضمن ما تدعو إليه العلمانية وأبرزها أن لا تخضع أحكام السياسة لأحكام الشريعة، ويحملون لواء أنه لا حلال ولا حرام في الممارسة السياسية.

هؤلاء الذين أشرتُ إليهم ليسوا الأكثرية من أبناء الحركات الإسلامية، وليس فيهم أحد من العلماء والمفكرين ورموز الإسلاميين، بل هم بعض الشباب من قاصري الفهم، ورغم أنهم ليسوا الأكثرية فإنّ من الضروري التنبيه لما وقعوا فيه من انحراف؛ لأن فريقًا منهم نشطاء على وسائل التواصل الاجتماعي، وإن لم ننبّههم وننبّه غيرهم إلى خطأ اعتقادهم فإن رأيهم سيتمدد وينتشر، كالأعشاب الضارة أن بقيت بين الزرع أهلكته، ولذا فمن المهم التنبيه على عوار ما ذهبوا إليه.

إن انفكاك بعض (الإسلاميين) عن المرتكزات التي تميزهم عن غيرهم، ونسيانهم أو تناسيهم أو جهلهم بما يجعلهم يتشرفون بأن يوصفوا بأنهم حملة الإسلام ودعاته هو إحدى كبائر المصائب التي تسربت إلى أوساط الإسلاميين.

لقد هالني أن أقرأ أثناء بعض النقاشات على وسائل التواصل الاجتماعي لبعض من يزعم أنه من حملة دعوة هذا الدين أنه لا يمانع ممارسة أي سلوك سياسي في سبيل تحرير فلسطين والأقصى، وتعليله لذلك كان أن (الغاية تبرر الوسيلة)! وأن أجد شخصًا آخر منهم يذكر في نقاشه أن السياسة مصالح فقط، وليس فيها للمبدأ والالتزام نصيب، وأن أقرأ لثالثٍ يدعو ألا يتم وضع الدين والحكم الشرعي في وسط العمل السياسي لأنه لا توجد ثوابت في السياسة.

هذه الأفكار تنزع ممن يزعمون أنهم ينتمون لحركات إسلامية عنصر تميزهم عن غيرهم، إذ لا معنى لكونك ابن حركة إسلامية سوى أنك ملتزم بما يريده الله تعالى منك، فالله - سبحانه - خلقنا لعبادته، ووضع لنا الشرائع لينظم علاقتنا بكل ما حولنا، وقد درسنا منذ كنا صغارًا أن من مبادئ الإسلام شموليته، فهو لم يدع مجالًا إلا وكان لله تعالى حكم شرعي فيه يجب على المسلمين التزامه، ومن أهم ذلك المجال السياسي، فإذا أراد البعض الانفكاك عن التزام أحكام الله تعالى في عملهم السياسي فلهم ذلك، ولكن على أن لا يوجعوا رأسنا بزعم انتمائهم لهذا الدين، فليعلنوا (علمانيتهم) ويتركوا المراوغة التي يمارسونها.

وكأني بهؤلاء الذين لا يريدون أن تخضع السياسة والسياسيون للدين وأحكامه، قد أُتوا من جهلهم بأحكام هذا الدين ومرونتها وشمولها، فتوهموا أن الدين لو تدخل في عمل السياسيين سيضيق عليهم ويُفقدهم المرونة، وتوهموا أن الشريعة قيود جامدة فحاولوا الهرب منها لعدم

علمهم بمرونتها وسعتها وتقبلها للاجتهاد والاختلاف، ولذا زَلُّوا فطالبوا بأن لا يتدخل الدين في السياسة.

ولعل مما زاد الطين بلّة فوق جهل هؤلاء بالأساسيات التي يرتكز إليها النظام الإسلامي الذي ندعو إليه، ومنها الشمولية والمرونة، أنهم وجدوا بعض من يتكلمون في الأمور السياسية من حملة الشهادات الشرعية ذوي نظر قاصر لا يستطيع التفريق بين ما يجوز وما لا يجوز في العمل السياسي، فيصدر فتاوى متطرفة يضيق فيها ما وسعه الله تعالى لعباده، وهنا لا بدَّ أن نؤكد أن (فقه السياسة الشرعية) مسألة تخصصية، فليس كل من حمل شهادة في الشريعة أو وقف على منبر قادر على الفتوى في الأمور السياسية، مشكلتنا في الذين يتكلمون في كل شيء وكأنهم علماء موسوعيون، والأصل أن يكون هناك تخصصات دقيقة في علوم الفقه، فالفقيه المختص بالاقتصاد ليس بالضرورة أن يستطيع الفتوى في القضايا الطبية المستجدة، والفقيه المبدع في القضايا الطبية قد يكون قاصرًا جدًّا إذا تحدث في الفقه السياسي، إننا بحاجة لمواءمة بين أمرين: أن تكون لنا مرجعيتنا الإسلامية المتمكنة في كل مسائلنا الحياتية، وأن يقوم بالفتوى المتخصصون في مجالها.

السياسة تخضع في جلّ تصرفاتها للموازنة بين المصالح والمفاسد، وقد جاءت الشريعة بقواعد عامة ليتم استخدامها في تلك الموازنات، مثل احتمال المفسدة الصغيرة لدرء المفسدة الكبيرة، ودرء المفاسد أولى من جلب المصالح، وتقديم خير الخيرين إذا لم يمكن تحصيلهما معًا، في قائمة تحمل عددًا من القوانين الضابطة لعمليات الموازنة.

ولكن يجب الانتباه إلى أن (المصالح) التي نتحدث عنها هنا، والتي نسعى لتحقيقها هي المصالح التي أباح لنا الشرع السعي لها أو طلب منا ذلك، فالمصالح في تقسيمها الشرعي ثلاثة أنواع:

- مصلحة معتبرة: وهي التي جاء الشارع الكريم باعتبارها ودلت عليها

الأدلـة الشرعيـة.

- مصلحة ملغاة: وهي التي دلّت الأدلة الشرعية على عدم اعتبارها.
- مصلحـة مرسـلة، وهـي التـي لم يـأت دليـل شرعـي مبـاشر يتعلـق بهـا، فلـم ينـص الشـارع الكريـم عـلى اعتبارهـا ولا عـلى إلغائهـا، وهـذه تخضـع للاجتهـاد بمـا لا يتعـارض مـع مقاصـد الشـارع الكريـم.

و(المصالـح المرسـلة) هـي النسـبة الأكـبر مـن المصالـح المتعلقـة بالعمـل السـياسي، ولأنهـا تخضـع لفقـه الموازنـة بـين المفاسـد والمضـارّ فإنهـا تحتمـل تفاوتًـا واسـعًا في الاجتهـاد، فقـد أرى أنـا في موقـف معـين أن المفاسـد فيـه تغلـب المصالـح، وبالتـالي أميـل إلى معارضتـه، بينـما يقـودك اجتهـادك لعكـس رأيـي فـترى أن المنافـع المتحصلـة مـن هـذا الموقـف أكـبر مـن مضـارّه فتميـل إليـه وتتبنـاه، وكثـير مـن الخـلاف في المواقـف الاجتهاديـة بـين الإسـلاميين ينـدرج تحـت هـذا، ومـا دمنـا تحـت مظلـة الـشرع، وهـي مظلـة واسـعة، والاختـلاف في الاجتهـاد ضمنهـا متوفـر ومقبـول، معترفـين بأنـه مرجعيتنـا، محتكمـين إليـه فـلا حـرج علينـا، إذ نكـون بـين مصيـب مأجـور، ومخطـئ معـذور، مـع مراعـاة أمـور مهمـة:

١. مـن حقـي أن أناقشـك وأعلـن رأيـي المخالـف لـك في تلـك المسـألة الاجتهاديـة، وأصـف اجتهـادك بالاجتهـاد الخاطـئ، دون أن أطعـن في دينـك وأتهمـك بالخيانـة والكفـر والتفريـط.

٢. يجـب عـلى مـن يريـد اتخـاذ موقـف سـياسي أن يكـون مؤهـلًا شرعيًّـا لمعرفـة مـا اعتـبره الشـارع الكريـم مـن مصالـح ومـا ألغـاه فلـم يعتـبره، فـإن لم يكـن مؤهـلًا فعليـه أن يسـأل أهـل العلـم والذكـر ويرجـع إليهـم ويلتـزم بحكمهـم.

٣. في هـذا القضايـا لا يجـوز أن أجـزم بصـواب رأيـي وخطـأ رأيـك، بـل

يجب أن أدرك، بما أنها قضايا اجتهادية، أن رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيك خطأ يحتمل الصواب، ولذا لا أرى أن نستخدم مصطلح الحلال والحرام في تلك المواقف، ليس لأنها لا تتعلق بالحل والحرمة، لا، بل لأن الحل والحرمة فيها مسألة نسبية، فالموقف الذي أوصلني اجتهادي إلى أن مفاسده هي الغالبة (يحرم) عليّ أنا أن أتبناه، بينما نفس الموقف إن أوصلك اجتهادك المعتبر أن مصالحه (التي لم يلغها الشارع الكريم) هي الغالبة (يجوز) لك أن تتبناه، بل قد (يجب) عليك أحيانًا، وهذا التفاوت هو نفس التفاوت الحاصل في الأمور الاجتهادية الأخرى، فلو لمس رجلان متوضئان امرأة، ثم صليا بعدها، وكان أحدهما مقلدًا للشافعي والآخر مقلدًا لأبي حنيفة، لبطلت صلاة الشافعي، بينما كانت صلاة الحنفي صحيحة، فكان لنفس الفعل حكمان مختلفان بسبب أن مستند كل واحد من الشخصين غير مستند الآخر.

إن من وصفتُهم بـ (علمانيي الإسلاميين) ليسوا أصحاب الرؤى المتنوعة، فما دامت تلك الرؤى تحت مظلة الشرع فلا حرج فيها، وإنما يتوجه اعتراضي على الذين يريدون من الشرع ألا يتدخل في السياسة ولا أن تخضع السياسة لقواعده.

وقد يدافع البعض عن هؤلاء بأنهم أساؤوا الفهم أو التعبير أو أنهم لا يقصدون الانفكاك من الالتزام بأحكام الله تعالى، فإن صح هذا الدفاع فإن هذه مصيبة أخرى، إذ أن الله تعالى عندما أخبرنا بالمهمة الموكولة للرسول ﷺ وأتباعه السائرين على نهجه أمره ﷺ بأن يعلن ذلك ويبيّنه بقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾، فإن كان هؤلاء يجهلون أن السياسة يجب أن تخضع للدين وحكم الله تعالى فهم لا يملكون البصيرة التي تؤهلهم ليكونوا من أتباع الرسول ﷺ.

بين إساءة الظن وإحسانه

إحدى السلبيات التي تنتشر بين المنتسبين للحركات الإسلامية هي إساءتهم للظن في بعضهم البعض ومسارعتهم لكيل الاتهامات بناء على تصريح هنا وموقف هناك.

والأصل أن نتعلم كيفية التعامل مع ما يمكن وصفه بـ (المواقف الملتبسة) حتى لا نقع فيما نهانا الله - جلّ في علا - عنه حين وجّهنا لكيفية التعامل مع الظنون فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فالآية الكريمة واضحة الدلالة في وجوب (اجتناب) الظنّ السيّء بالمؤمنين، وقد قال أهل التفسير إن الأمر جاء باجتناب كثير من الظن وليس الظن كله، لأن الله تعالى أذن للمؤمنين أن يظن بعضهم ببعض الخير[1].

إن (إساءة الظن) ضرورية في بعض الأحيان لئلا يقع المسلم في الاستغفال، وقد وردت نصوص عن السلف تؤيد ذلك، منها قول عُمَرُ رضي الله عنه: (**إِنَّ مِنَ الْحَزْمِ سُوءَ الظَّنِّ بِالنَّاسِ**)[2]، وروي مثله عن الحسن البصري[3]، ومُطَرِّفِ بْنِ الشِّخِّيرِ[4]، بل وروي ذلك مرفوعًا من حديث أنس بن مالك[5] رضي الله عنه،

(١) تفسير الطبري، ٢١/ ٣٧٤.

(٢) تاريخ المدينة لابن شبة (ت ٢٦٢ هـ)، ٣/ ٨٠١،تاريخ أصبهان (أخبار أصبهان) لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)، ٢/ ١٩١، ٢/ ٢٧٦.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، ٧/ ١٣١.

(٤) الزهد لأحمد بن حنبل، ح ١٣٥٤، حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/ ٢١٠.

(٥) مداراة الناس لابن أبي الدنيا، ح ١١٣، المعجم الأوسط للطبراني، ح ٩٤٥٨، وقال: « لَا يُرْوَى هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ أَنَسٍ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، تَفَرَّدَ بِهِ بَقِيَّةُ». وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ٨/ ٨٩: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَفِيهِ بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ وَهُوَ مُدَلِّسٌ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ».

وعبد الرحمن بن عائذ[1]، والحسن البصري[2].

وهذه الآثار، وإن كانت ضعيفة الأسانيد إلا أنها يقوي بعضها بعضًا، وقد قال السخاوي عن هذه الأحاديث: «وكلها ضعيفة، وبعضها يتقوى ببعض»[3] ، وقال الصنعانيُّ في سبل السلام بعد أن ساق طرق هذا الحديث: «وكل طرقه ضعيفة وبعضها يقوي بعضا ويدل على أن لها أصلا»[4].

أقول: رغم ذلك فإن ذلك ليس بإطلاقه، وهو ما يوجب علينا أمرين اثنين: أولهما أن نعلم متى يجوز لنا (إساءة الظن)، وثانيهما معنى إساءة الظن هنا، وما الذي يترتب عليها.

أما متى يجوز لنا أن نسيء الظن بـ (شخص ما) سواء كان شخصية حقيقة أو شخصية اعتبارية كـ (جهة) أو (حركة)، فإن لذلك حالتين اثنتين:

أن يكون قد سبق لهذا الذي (الشخص) مواقف تستدعي منّا أن نحذر منه، ففي الحديث الصحيح قال ﷺ: (**لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**)[5]، والمؤمن من صفاته أنّه (**كَيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ**)[6]، والذي يتصف

---

(١) مسند الشهاب القضاعي (ت ٤٥٤ هـ)، ح ٢٤، المراسيل لابن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ)، ح ٤٤٥، في ترجمة (عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَائِذٍ الْأَزْدِيُّ)، ونقل عن أبيه أنه قال: «هُوَ مُرْسَلٌ لَمْ يُدْرِكِ ابْنَ عَائِذٍ النَّبِيَّ ﷺ».

(٢) مداراة الناس لابن أبي الدنيا (ت ٢٨١ هـ)، ح ١١٤.

(٣) المقاصد الحسنة للسخاوي (ت ٩٠٢ هـ)، ح ٣٢ (احترسوا من الناس بسوء الظن).

(٤) سبل السلام للصنعاني، ٢/ ٦٦٥.

(٥) متفق عليه: البخاري، ح ٦١٣٣، سلم، ح ٢٩٩٨.

(٦) روي هذا مرفوعًا عن النبي ﷺ، ومعنى الحديث صحيح، غير أنه حديث ضعيف جدًّا أو موضوع، رواه: أبو الشيخ (ت ٣٦٩ هـ) في أمثال الحديث، ح ٢٥٨، والقضاعي (ت ٤٥٤ هـ) في مسند الشهاب، ح ١٢٨، والثعلبي (ت ٤٢٧ هـ)، في تفسيره، ٣٠/ ٢٦٠، ح ٣٦٣٧، وضعفه ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) في (فتح الباري، ١٠/ ٥٣٠)، والمناوي (ت ١٠٣١هـ) في (فيض القدير، ٦/ ٢٥٦)، والعجلوني (ت ١١٦٢ هـ) في (كشف الخفاء، ٢/ ٢٩٣، ح ٢٦٨٣)

بهـذه الصفـات توقفـه معرفتـه عـلى غوامـض الأمـور حتـى يصـير حازمًـا يحـذر مـا سـيقع، فـلا يـؤتى مـن جهـة الغفلـة.

أمـا الحالـة الثانيـة فهـي أن لا يكـون لدينـا معلومـات عـن هـذا (الشـخص)، وليسـت لنـا معـه تجربـة سـابقة، فالحـذر هنـا مطلـوب حتـى يثبـت لنـا أنـه سـالكٌ طريـق الاسـتقامة أم لا.

وهـذا يقودنـا إلى أن نتعـرف عـلى معنـى إسـاءة الظـن هنـا، ومـا الـذي يترتـب عليها .

عندمـا نفـترض في موقـف لــ (شـخص مـا) أنـه نابـع مـن قصـد غـير صحيـح، وأن وراءه مـآرب مريبـة فـإن إسـاءة الظـن فيـه تدفعنـا للحـذر مـن الوقـوع في حبائلـه، وتجنّـب مكائـده، وهـذا الحـذر هـو مـا قصـده مـن نقلنـا عنهـم النصـوص الواصفـة لــ (سـوء الظـن) بأنـه مـن (الحـزم)، وقـد صـوّر ابـن عبـاس رضي الله عنهما المسـألة صـورة بليغـة لمـا سـئل عـن عمـر رضي الله عنه فقـال: (**كان كالطـير الحَـذِر الـذي كأنّ لـه بـكل طريـق شَرَكًا**)[1]، و(الـشَرَكُ) هـو الحبائـل التـي يضعهـا الصائـد ليصيـد بهـا.

فالمطلـوب أن نكـون حذريـن، ولكـن هـذا الحـذر لا يجيـز لنـا أن نتّهـم النـاس، ولا أن نجعـل افتراضنـا كأنـه حقيقـة واقعـة، ذلـك أننـا مطالَبـون بالتعامـل مـع غيرنـا وفـق ظواهرهـم، إذ لم يُطلعنـا اللـه تعـالى عـلى بواطنهـم.

والـذي يخرجـك مـن تَبِعـة سـوء الظـن، عندمـا تتوفـر أسـبابه، هـو أن تبقيـه في نفسـك، ولا تخرجـه إلى الواقـع، فتكـون حـذرًا ولكـن لا تتكلـم بمضمـون مـا في ظنّـك أو تعمـل بموجبـه، وقـد روى الترمـذي عـن سـفيان الثـوري أنـه قـال: (**الظـنُّ ظنّـان: فظـنٌّ إثـم، وظـنٌّ ليـس بإثـم، فأمـا الظـنُّ الـذي هـو إثـم فالـذي يظـنُّ ظنًّـا ويتكلـم بـه، وأمـا الظـنُّ الـذي ليـس بإثـم فالـذي يظـنُّ ولا**

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٤٤/ ٣١٢.

يتكلـم بـه)[1]، وفي الحديـث روي أنـه ﷺ قـال: (**وينجيـك مـن سـوء الظـنّ ألا تتكلـم)**[2].

مـما سبق يتضح لنـا أنـه لا يجـوز أن توجـد إسـاءة الظـن عندمـا نتعامـل مـع أهـل الخير والصـلاح، ممـن أثبتـت التجـارب صدقهـم واسـتقامتهم، بـل ينبغـي مـع هـؤلاء أن لا نتعامـل إلا بحسـن الظـن.

ولنضرب مثالًا لتقريب الصورة:

لـو قـرأت في وسـائل الإعـلام تصريحًـا لــ (شـخص) يدعـو فيـه إلى (إطـلاق الحريـات في المجتمـع) فـإن تعاملـك مـع مثـل هـذا التصريـح يرتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بمـا (تظـن) أن صاحبـه أراد منـه، فـإن كان صاحـب هـذا التصريـح مـن الشـخصيات العلمانيـة المعروفـة بالدعـوة للانحـلال والانخـلاع مـن الديـن، فلـو فهمـت مـن تصريحـه أنـه يريـد إطـلاق حريـة ارتـكاب الفواحـش في مجـال الأخـلاق، وحريـة ممارسـة الربـا في مجـال المعامـلات الماليـة، فـلا لـوم ولا عتـب عليـك، ولا يعتـبر هـذا مـن إسـاءة الظـن المنهـي عنهـا؛ لأن (الخلفيـة الفكريـة) لصاحـب التصريـح تتسـق مـع مثـل هـذه الدعـوات.

ولكـن: لـو كان صاحـب هـذا التصريـح مـن الشـخصيات التـي مرجعيتهـا الإسـلام، وهـو مـن دعاتـه، والعاملـين لاسـتئناف الحيـاة الإسـلامية، والداعـين لتطبيـق أحكامـه في المجتمـع، وقـد سـبق لـه أن دفـع ثمـن ذلـك هـو وجماعتـه مـن دمائهـم وأعمارهـم فـإن حملـك كلامـه عـلى أنـه دعـوة للانحـلال الخلقـي أو للانخـلاع مـن الاحتـكام للإسـلام في المعامـلات الماليـة، ليـس غبـاءً فقـط، وإنمـا هـو جريمـة بحـق إخوانـك في الديـن.

---

(١) سـنن الترمـذي، ذكـر ذلـك تعقيبًـا عـلى حديـث (١٩٨٨) وفيـه أن رسـول اللـه ﷺ قـال: (إياكـم والظـن فـإن الظـن أكـذب الحديـث).

(٢) مصنـف عبـد الـرزاق، ح ٢٠٥٥٦، والبيهقـي في شـعب الإيمـان، ح ١١٧٢ وقـال: «وهـذا منقطـع».

هـذا السـلوك المميّـز بـين مـن يصـدر عنـه التصريـح، والمراعـي لمنطلقاتـه وخلفياتـه الفكريـة كان واضحًـا لـدى الصحابـة ﭬ، ولذلـك عندمـا قـال الرسـول ﷺ لأصحابـه (**انْـصُرْ أَخَـاكَ ظَالِـمًا أَوْ مَظْلُومًـا**) كان واضحًـا لديهـم أن هـذا القـول، وفـق الفهـم السـاذج البسـيط الأولي لـه، يتضمـن خـروج الرسـول ﷺ عـن المنهـج الـذي خطّـه لهـم، وهـو منهـج محاربـة الظلـم، ولكـن؛ لأنهـم (يثقـون) بــ (نبيّهـم) ﷺ ويدركـون أن المنهـج الـذي يسـتند إليـه وينطلـق منهـم، والـذي ربّاهـم عليـه لا يتوافـق مـع المفهـوم الظاهـر لهـذه العبـارة بـادروا لسـؤاله فقالـوا: (**يَـا رَسُـولَ اللَّـهِ، هَـذَا نَنْـصُرُهُ مَظْلُومًـا، فَكَيْـفَ نَنْـصُرُهُ ظَالِـمًا؟**)، نعـم، لقـد كانـوا يدركـون أن الـذي بعثـه اللـه برسـالة لمحاربـة الظلـم لا يمكـن أن يدعـو لمـؤازرة الظـالم، وجاءهـم الجـواب ردًّا عـلى تسـاؤلهم بقولـه عـن كيفيـة نـصرة الأخ الظـالم: (**تَأْخُـذُ فَـوْقَ يَدَيْـهِ**)، وفي روايـة (**تَحْجُـزُهُ، أَوْ تَمْنَعُـهُ، مِـنَ الظُّلْـمِ فَـإِنَّ ذَلِـكَ نَـصْرُهُ**)[1].

ولذلـك فـإن الـذي يبلغـه موقـفٌ لــ (جماعـة) أو (حركـة) مـا تعتمـد الإسـلام منهـج حيـاة، وتسـلك سُـبُل مقارعـة الظالمـين، وقدّمـت في ذلـك الغـالي والنفيس، ثـم يسـارع – وبـدون أن يكلـف نفسـه بقـراءة موقفهـا أو الاستفسـار منهـا عنـه – إلى نـشر الاتهامـات جزافًـا عندمـا يسـمع أو يقـرأ تصريحًـا ملتبسًـا يحتمـل عـدة احتـمالات، مـن يفعـل ذلـك لا يمكـن وصـف وقفـه هـذا إلا بأنـه نابـع مـن الجهـل أو الحقـد.

إن مـن المـؤلم أن تـرى أناسًـا يُفـترض بهـم أنهـم (يفهمـون)، وأنهـم (حملـة رسـالة)، ثـم تراهـم يصـدرون الأحـكام المسـتندة إلى سـوء الظـن، وسـوء الظـن فقـط، وبـدون أن يكلفـوا أنفسـهم بقـراءة أو فهـم مـا ينتقدونـه.

---

(١) الروايتان كلتاهما في صحيح البخاري، الأولى: ح ٢٤٤٤، والثانية: ح ٦٩٥٢.

إدارة معاركنا

مـما يؤسَـف لـه في سـاحتنا الإسـلامية أننـا لا نُحسـن إدارة معاركنـا، وفي كثـير مـن الأحيـان يكـون انشـغالنا ببعضنـا البعـض أكـبر مـن انشـغالنا بأعدائنـا الحقيقيـين.

الأصـل أن تكـون العلاقـة بـين العاملـين لاسـتئناف الحيـاة الإسـلامية علاقـة تكامـل وتعـاون، وأن تحكمهـا قاعـدة (**نتعـاون فيـما اتفقنـا عليـه، ويعـذر بعضنـا بعضًـا فيـما اختلفنـا فيـه**)، ذلـك أنـه يفـترض أن يكـون الهـدف الـذي نسـعى إليـه جميعًـا هـدف واحـد، وهـو عـودة مجتمعاتنـا للديـن، وأن تكـون كلمـة اللـه هـي العليـا في مجتمعاتنـا، بـل وفي العـالم أجمـع، ونقطـة انطلاقنـا لتحقيـق هـذا الهـدف واحـدة، ترتكـز إلى المرجعيـة الإسـلامية، وبـين نقطـة الانطـلاق والهـدف المنشـود، قـد تتبايـن الطـرق التـي نسـلكها للوصـول، وهـو تبايـن مفهـوم إذ ترجيـح طريـق عـلى أخـرى، يعتمـد عـلى الاجتهـاد في أنهـا أقـرب الطـرق للوصـول إلى الهـدف، مـع القناعـة بأنهـا طريـق أباحـت الشريعـة لنـا سـلوكها.

ولكـن هـذه الصـورة (المثاليـة) للتعـاون المفـترض ليسـت متحققـة عـلى أرض الواقـع، ولذلـك تجـد أننـا نصـادف في أثنـاء الطريـق بعـض مـن يفـترض بهـم أنهـم مـن حملـة دعـوة هـذا الديـن وفيهـم مـن هـم مـن أهـل العلـم الشرعـي يصطفـون إلى جانـب الأعـداء المحاربـين للديـن مـن الحـكام المتسـلطين عـلى شـعوبهم، المصادريـن لحرياتهـم، المتآمريـن مـع أعـداء أمتهـم، وهـؤلاء يزينـون للحـكام الظلمـة باطلهـم، ويدافعـون عـن الطواغيـت، بـل ويدعـون لطاعتهـم، ويحرمـون محاولـة الإنـكار عليهـم باعتبارهـم (أوليـاء أمـور) المسـلمين.

هـؤلاء المنتسـبون لأهـل العلـم الشرعـي باصطفافهـم إلى جانـب الطواغيـت أخرجـوا أنفسـهم مـن أن يكونـوا في صـف العاملـين لاسـتئناف الحيـاة الإسـلامية

بدعوتهـم لبقـاء أهـل الباطـل يحكموننـا والدعـوة للتسـليم والرضـوخ لهـم، وهـذا يوجـب أن يُـرَدَّ عليهـم، ويُكشـف زيغهـم وانحرافهـم.

ولكـن المشـكلة التـي نعانيهـا أن كثـيرًا مـن أبنـاء الحـركات الإسـلامية بـدل أن يحـددوا سـاحة معركتهـم، ويركـزوا جهدهـم فيـما يتطلبـه الوصـول إلى الهـدف السـامي الـذي يسـعون لـه يخوضـون معـارك ليـس لهـا داعٍ، ويسـتجلبون أعـداءً كان يمكـن أن يكونـوا في صفّهـم لـو أحسـنوا التعامـل معهـم.

وحتى نجعل الحديث في أمر محدّد فلنضرب مثالًا على ذلك:

هنـاك عـدد مـن (العلـماء) المحسـوبين عـلى (المدرسـة السـلفية) يحملـون لـواء الدفـاع عـن الطواغيـت، وتبريـر ظلمهـم، والدعـوة لطاعتهـم وللخضـوع والانقيـاد لهـم، وتحريـم الإنـكار عليهـم، ولكننـا بـدل أن نحـصر معركتنـا مـع (علـماء السـوء) هـؤلاء تـرى كثيريـن منـا يطلقـون ألسـنتهم بالسـب والشـتم عـلى (السـلفية) بسـبب مواقـف هـؤلاء (العلـماء) المحسـوبين عـلى هـذه المدرسـة الفكريـة، فيقـود ذلـك إلى اسـتعداء كل الذيـن ينتمـون إلى السـلفية، وإلى توسـيع سـاحة الخـلاف بـلا داعٍ لذلـك.

إن المدرسـة (السـلفية) مدرسـة فكريـة تعتمـد فهـمًا للإسـلام تعتـبره فهم سـلف الأمـة مـن القـرون الثالثـة الفاضلـة لـه، ورغـم أني أرى أن هنـاك خلـلًا كبـيرًا في منهـج هـذه المدرسـة، إلا أن مـن الظلـم أن نتعامـل معهـا كمدرسـة واحـدة، فهـي مدرسـة فضفاضـة، تضـم في جنباتهـا مناهـج متباينـة، ففيهـا السـلفية الجهاديـة التـي تضـم التكفيريـين الدواعـش، وينضـوي تحـت اسـمها حـركات ذات فكـر مقبـول نوعًـا مـا، وفيهـا السـلفية العلميـة التـي تنشـغل بقضايـا فرعيـة ولا تتدخـل في العمـل السـياسي، ومـن ضمنهـا مـا يطلـق عليـه التيـار المدخـلي أو الجامـي في السـلفية العلميـة، وهـو تيـار (يقـدّس) أوليـاء الأمـور من الحـكام، ويحـارب كل مخالفيـه، بـل قـد يصـل إلى تكفيرهـم، وهـؤلاء مـن أسـوأ المنتسـبين إلى (السـلفية).

وتحـت لـواء (السـلفية) هنـاك (السـلفية الحركيـة) أو الذيـن يوصفـون بالـ (سروريـين) نسـبة للعـالم السـوري الراحـل (محمـد سرور زيـن العابديـن) رحمـه اللـه، وهـؤلاء منخرطـون في قضايـا الأمـة، حاملـون لهمومهـا، وليسـوا ممـن يزينـون للطواغيـت باطلهـم.

العلـماء الضالـون المنحرفـون الذيـن يزينـون للطواغيـت مـن المنتسـبين لـ (السـلفية) لا يمثلـون كل التيـار السـلفي، ففـي هـذا التيـار علـماء قدمـوا أرواحهـم وأعمارهـم في سـبيل اللـه، ولـذا فليـس مـن المنطـق أن نحمـل (السـلفية) كمدرسـة ومنهـج وزر أخطـاء هـؤلاء الضالـين.

ويجـب أن لا ننـسى - هنـا - أن علـماء السـوء غـير مقتصريـن عـلى المنتمـين للسـلفية، فهنـاك علـماء سـوء وضـلال يزينـون للطواغيـت باطلهـم، ويصـدرون لهـم الفتـاوى التـي يريدونهـا ممـن ينتمـون إلى الأشـاعرة والمتصوفـة، فهـل نهاجـم الأشـاعرة والمتصوفـة كلهـم لأجـل هـؤلاء؟!

المنحـرف والضـالّ لا يمثـل إلا نفسـه، فكـما أن المسـلم المنحـرف لا يمثـل الإسـلام، فالسـلفي المنحـرف والأشـعري المنحـرف لا يمثلـون إلا أنفسـهم، ولذلـك لا يجـوز أن ننـسى ونحـن في طريـق العمـل لاسـتئناف الحيـاة الإسـلامية أن معركتنـا الأساسـية هـي مـع الطواغيـت، ومـن يقـف في صفّهـم، ولا يجـوز أن نخـوض معـارك مـع تيـارات كاملـة لأجـل أشـخاص منحرفـين ضمـن تلـك التيـارات، وبذلـك نخفـف كثـيراً مـن معاركنـا الجانبيـة التـي تسـتهلك جهدنـا ووقتنـا.

أعمال القلوب

(**عمل القلب أهم من عمل الجارحة**) هذه العبارة ذكرها الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى ضمن أصوله العشرين لفهم الإسلام، و(**عمل القلب**) هنا لا يقتصر على الطاعات، بل إنه يشمل الطاعات والمعاصي، ففي كل منهما عمل القلب أهم وأخطر من عمل الجارحة.

إحدى المزالق التي تكمن في طريق السالكين طريقَ الدعوة هي عدم انتباههم لهذا الأمر، فترى فريقًا منهم يهتمّون بأعمال الجوارح، كالصلاة والصيام والصدقة، ويهملون أعمال القلوب، كالإخلاص والحب والتواضع وترك الحسد، ذلك أن أمراض القلوب تتسلل بخفاء إلى النفوس، بل إن الشيطان وهوى النفس يزينونها حتى تظهر بمظهر الطاعة، وهي لذلك أخطر على المرء من معاصي الجوارح التي لا تكون إلا نتيجة أمراض القلوب تلك.

ولنقف عند أحد مراض القلوب الخطيرة التي تنتشر بين العاملين للإسلام، وهي (**الحسد**)، ذلك الداء الذي حذّرنا منه رسولنا الحبيب ﷺ، فقال: (**دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم**)[1]، ولاحظوا قوله في الحديث استخدام تعبير (**دَبَّ إليكم**)، والدبيب كما تشير كتب اللغة هو أن يمشي على هينته، أو هو السير الخفي اللَّين[2]، فكأنه يشير إلى أن هذا المرض يتسلل إلى القلوب

---

(١) سنن الترمذي، ح ٢٥١٠.

(٢) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ)، ٩/ ٢٧٩، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (ت ٦٥٦ هـ)، ٥/ ٣٧٨.

تسـلُّلًا خفيًّـا حتـى لا تـكاد تشـعر بـه إلى وهـو قـد خالطهـا واسـتوطن فيهـا. هـذا المـرض يـكاد لا ينجـو منـه أحـد، ولأن النبـي ﷺ كان طبيـب قلـوب المؤمنـين فإنـه أرشـدهم لطريقـة التعامـل معـه، ففـي الحديـث أنـه ﷺ قـال: **(ثـلاثٌ لا يعجزهـنَّ ابـن آدَمَ: الطِّـيَرَةُ، وَسُـوءُ الظَّـنِّ، وَالْحَسَـدُ، قَـالَ: فَيُنْجِيـكَ مِـنَ الطِّـيَرَةِ أَلَّا تَعْمَـلَ بِهَـا، ويُنْجِيـكَ مِـنْ سُـوءِ الظَّـنِّ أَلَّا تَتَكَلَّـمَ بِـهِ، ويُنْجِيـكَ مِـنَ الْحَسَـدِ أَلَّا تَبْغِـي أَخَـاكَ سُـوءًا)**[1] ، فهـو هنـا ﷺ يدلُّـك عـلى طريـق النجـاة مـن إثـم الحسـد، وذلـك بـأن تحـرص إذا شـعرت في قلبـك بتمنـي زوال نعمـة عـن أخيـك عـلى ألّا تنقـل هـذه الرغبـة إلى مربّـع (العمـل).

أمـا كيـف ينتقـل الحسـد مـن أن يكـون مـن حديـث النفـس المتجـاوز عنـه إلى (العمـل) الموقـع في الهـلاك فـإن أوضـح صـوره أن يعمـل الإنسـان الحاسـد عـلى (إزالـة النعمـة) عـن المحسـود عملًا ماديًّـا، ولكـن هـذه الطريقـة واضحـة مكشـوفة قـد لا تنطـلي عـلى مـن يسـير في طريـق الدعـوة، فيكتشـف أن الدافـع وراءهـا وسوسـة شـيطانية، ولعـل الأخطـر منهـا (الأعـمال) التـي تتسـلل بالخفـاء، فيبـدو الحاسـد فيهـا بمظهـر المصلـح.

ومـن صـور ذلـك أن الحسـد يظهـر أحيانًـا عـلى صـورة (نقـد) و(نصيحـة)، فـترى الحاسـد الـذي يسـوؤه نجـاح أخ لـه في اللـه في مجـال مـا، مثـل أن يكـون أقـرب لعامـة النـاس منـه، وأكـثر قبـولًا، أو أن يكـون ذا إبداعـات علميـة، تـرى الحاسـد يُركّـز عـلى مهاجمـة مـا يقـوم بـه المحسـود في صـورة أنـه يريـد النصيحـة والتوجيـه، بينـما يكـون في الحقيقـة مسـتاءً مـن نجـاح المحسـود، وتـراه إذا قـدم المحسـود خطـة عمـل، وقـدم هـو خطـة عمـل أخـرى، ولاحـظ بـوادر نجـاح تنفيـذ خطـة عمـل المحسـود وتقدمهـا نحـو تحقيـق الهـدف، تـراه يهاجـم هـذه

(١) مصنـف عبـد الـرزاق، ح ٢٠٥٥٦، والبيهقـي في شـعب الإيمـان، ح ١١٧٢ وقـال: «وهـذا منقطـع».، ورواه ابـن قتيبـة (ت ٢٧٦ هــ) في تأويـل مختلـف الحديـث (ص١٧١)، بلفـظ (ثلاثـةٌ لَا يَسـلمُ مِنْهُـنَّ أحـدٌ).

الخطـة؛ لأن نجاحهـا سـيكون دليـلًا عـلى فشـل برنامجـه هـو، وهـو لا يريـد انكشـاف فشـله وعقـم طروحاتـه.

هـذه إشـارات ولمحـات في موضـوع الحسـد كنمـوذج لأمـراض القلـوب، وكـما قيـل فاللبيـب تكفيـه الإشـارة.

الميزان

اختلال الموازين هو سببٌ لكثير من عثراتنا، لاحظوا معي قول الله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[الحديد: ٢٥] فالآية تتحدث عن أن الهدف من إرسال الرسل - صلوات ربي وسلامه عليهم - هو أن يقوم الناس بالقسط، والقسط هو العدل، أما كيف يفعلون ذلك، فالآية بيّنت أن الله تعالى أنزل مع الرسل الأدوات اللازمة لتحقيق القسط، وهي: الكتاب والميزان.

و(**الميزان**) هنا لا يقصد به - والله أعلم - الموازين التي يستخدمها الناس لاستيفاء ما يبيعون وما يشترون، وإن كانت داخلة في المعنى العام للآية، والراجح أن المقصود بـ (الميزان) هنا - كما ذكر عدد من المفسرين - هو العدل.

هذا الميزان يستند إلى الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسله، فبالتزام الأحكام الربانية ووزن الناس والأعمال والأحداث بمقتضى تلك الأعمال يتحقق العدل والقسط في المجتمعات.

لاحظوا قوله تعالى أيضًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ﴾ [الشورى: ١٧]، فهو هنا - أيضًا - يربط بين الكتاب والميزان، وكأنه يقول لك إن أردت أن تحقق العدل فهاك الكتاب اهتدِ به، ويقول لك: وأنت تتعامل مع الكتاب تعامل معه بالعدل، فلا تكونن ممن يأخذ بعضه ويترك بعضه.

أين الخلل الذي نعيشه؟

هناك قاعدة وضعها الله سبحانه وتعالى وأخبرنا بها، والأصل أن نتخذها منهجًا ونبراسًا، إذ عندما ذكر الله تعالى أقسام الناس يوم القيامة في أوائل سورة (الواقعة) ذكر السابقين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وذكر أن كلّا من (السابقين) و(أصحاب اليمين) من أهل الجنة، غير أن تقدُّم

السابقين على أصحاب اليمين كان بأنهم (أقرب) إلى الله بطاعته، أي أنهم في أدنى درجات الفساد، وهو المعصية التي لا يخلو منها غير معصوم، هذا هو ميزان الشرع.

وعندما حرم الله تعالى الخمر والميسر في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، نبّه إلى قاعدة عامة يراعيها الفقهاء في استنباطهم للأحكام، وهي ضرورة النظر إلى نسبة الإثم إلى النفع في المسألة، فما كان الغالب فيه الإثم (السلبية) على النفع (الإيجابية)، يحرّم.

وانظر رعاك الله في هذا الكلام للإمام العز بن عبد السلام في كتابه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ٨٥/١) إذ يقول: «وبين هاتين الرتبتين من قلة الحرام وكثرته مراتب محرمة، ومكروهة، ومباحة، وضابطها أن الكراهة تشتد بكثرة الحرام وتخف بكثرة الحلال». فهو هنا يشير إلى مراعاة الأقل فسادًا والأكثر فسادًا.

وللأسف فإن كثيرين من أبناء الحركات الإسلامية لا يُحسنون التعامل مع هذه القواعد في الحكم على الآخرين، فترى بعضهم إذا رأى خطأ أو خللًا أو تقصيرًا من أحد العاملين السالكين في طريق الله تعالى شنَّ عليه حربًا لا هوادة فيها، وكانت قسوته عليه أشدّ من قسوته على أعداء الدين، فإذا استفسرت منه عن سبب ذلك كانت حجته أن الخطر من خطأ العامل لله أشد من خطر الأعداء، ولذلك فهو أدعى لفضحه أمام الناس، ويضرب لك مثالًا يقول فيه: أليس الشيخ الذي يؤم في المسلمين ويسرق أيضًا، أخطر من شخص بلا أخلاق ودين ويسرق أيضًا، وأدعى لفضحه وكشف زيفه.

وهؤلاء غاب عنهم وجوب التفريق بين من يتخذ الدين ستارًا لقبيح عمله، وبين الصادق الذي يقع في الخطأ الذي لا يخلو منه إنسان، فالذي

يتخـذ الديـن سـتارًا ينبغـي فضحـه، أمـا أخـوك الـذي يقـع في الخطـأ فالواجـب السـتر عليـه مـا أمكـن، فـإن اسـتدعى الحـال التنبيـه للخطـأ الـذي وقـع فيـه فينبغـي الاقتصـار عـلى موضـع الخطـأ، وليـس هـدم أخيـك كلـه، وشـطب حسـناته وفضائلـه وإيجابياتـه، هـذه واحـدة مـن مزالقهـم.

أمـا مزلقهـم الثـاني فهـو أنهـم لا يميـزون بـين الخطـأ الـذي هـو معصيـة، والخطـأ في الاجتهـاد في المسـائل العامـة، وهـو خطـأ مـن وجهـة نظـرك، بينـما هـو صـواب مـن وجهـة نظـر الآخـر، فالتعامـل مـع المعصيـة لا يكـون بنفـس منهـج التعامـل مـع الاجتهـاد الـذي تظنـه خطـأً.

وللعلـماء قديمًـا في هـذا البـاب كلام جميـل، منـه ما قالـه ابن تيميـة في (مجموع الفتـاوى، ٢٨/ ٢٠٩) حـول اجتـماع الخـير والـشرّ في نفـس الشـخص، إذ قـال: «وإذا اجتمـع في الرجـل الواحـد خـير وشر، وفجـور وطاعـة، ومعصيـة وسـنة وبدعـة، اسـتحق مـن المـوالاة والثـواب بقـدر مـا فيـه مـن الخـير، واسـتحق مـن المعـاداة والعقـاب بحسـب مـا فيـه مـن الـشر، فيجتمـع في الشـخص الواحـد موجبـات الإكـرام والإهانـة، فيجتمـع لـه مـن هـذا وهـذا، كاللـص الفقـير؛ تقطـع يـده لسرقتـه، ويعطـى مـن بيـت المـال مـا يكفيـه لحاجتـه. هـذا هـو الأصـل الـذي اتفـق عليـه أهـل السـنة والجماعـة)، ومنـه مـا قالـه الذهبـي في (سـير أعـلام النبـلاء، ١٠/ ٢٠٢) في آخـر ترجمتـه للمبتـدع (بِـشْر المَرِيْـسِيّ) بعدمـا ذكـر أن بعـض العلـماء كفّـروه لبدعتـه، فعلـق الذهبـي قائـلًا: «ومـن كفـر ببدعـة - وإن جلّـت - ليـس هـو مثـل الكافـر الأصـلي، ولا اليهـودي، والمجـوسي، أبى اللـه أن يجعـل مـن آمـن باللـه ورسـوله، واليـوم الآخـر، وصـام، وصـلى، وحـج، وزكى - وإن ارتكـب العظائـم، وضـل، وابتـدع - كمـن عانـد الرسـول، وعبـد الوثـن، ونبـذ الشرائـع، وكفـر، ولكـن نـبرأ إلى اللـه مـن البـدع وأهلهـا».

نمـوذج آخـر مـن اختـلال الميـزان لـدى بعـض العاملـين للإسـلام يتمثـل في موقفهـم مـن الـدول والأنظمـة الحاكمـة، إذ يتعامـل بعضهـم معهـا بوضعهـا

كلها في كفة واحدة، وإصدار حكم واحد عليها، يتعاملون بمنطق الأبيض والأسود، ولا يؤمنون بوجود مساحة بين هذين اللونين توجب اختلاف النظر تجاه الموجودين فيها.

وقد كان يحاورني بعضهم وعندما طرحت عليه الأفكار السابقة حول وجوب النظر إلى قرب وبعد (النظام) أو (الدولة) عن شرع الله وتحقيق مقاصده، فلما لم يجد مناصًا من التسليم بأصل الموازنة اخترع القول بأن الأحكام المتعلقة بحاكم ودولة تخالف الأحكام المتعلقة بالأفراد، وقال: إننا عندما نريد الحكم على (دولة) يجب أن نسأل أنفسنا هل وضعها مُرضٍ لله أم يستوجب غضب الله؟ وهل وِفقَ هذا الميزان نستطيع أن نطلق عل حاكمها أنه حاكم صالح نال رضى الله بأفعاله، أم انه حاكم طالح نال غضب الله؟ وأين هو من الآيات المتعلق بالحكم بما أنزل الله، والتي ترتبت نتيجة منهجنا في الحكم على من لم يحكم بما أنزل الله بأنه إما منافق أو كافر أو فاسق؟

فقلت له يومها: إن القواعد التي ذكرتُها قواعد عامة تنطبق على الأفراد والكيانات (الدول والجماعات والأحزاب ... الخ)، وللتدليل على ذلك ذكرت له مثالين من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ممّا يتعلق بـ (الدول):

أولهما قصة سبب نزول بدايات سورة الروم، وفيها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾، وهي قصة معروفة مشهورة، وفيها أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (**كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ أَهْلُ فَارِسَ عَلَى الرُّومِ لأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ أَوْثَانٍ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرَ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ لأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ**)، وقلت له: لاحظ معي - أخي الكريم - أن الصحابة رضي الله عنهم عندما قارنوا بين (دولتين) من دول (الكفار) وجدوا أن

إحـدى الدولتـين أقـرب إليهـم، رغـم أنهـا كافـرة فمالـوا لهـا قلبيًّـا وتمنّـوا لـو أنهـا تغلـب، وحزنـوا لهزيمتهـا، ولم ينكـر عليهـم اللـه تعـالى ولا رسـوله ﷺ ذلـك، بـل بشّرهـم اللـه تعـالى بـأن الـروم سـينتصرون بعـد بضـع سـنين.

أمـا المثـال الثـاني فهـو قصـة سـبب اختيـار الحبشـة لهجـرة المسـلمين إليهـا، إذ عندمـا اشـتد الاضطهـاد عـلى المسـلمين في مكـة قبـل الهجـرة، وجههـم الرسـول ﷺ للهجـرة إلى الحبشـة، وقـال لهـم: (**لـو خرجتـم إلى أرض الحبشـة، فـإن بهـا ملـكًا لا يُظلـم عنـده أحـد**)، وكان النجـاشي حينهـا كافـرًا، وقـد أسـلم رضي الله عنه بعـد هجـرة المسـلمين إلى بـلاده، وقلـت لـه: لاحـظ معـي أن الرسـول ﷺ أثنـى عـلى النجـاشي بــ (العـدل) و(عـدم الظلـم)، مـع أنـه كان حينهـا عـلى مِلَّـةٍ غـير مِلَّـةِ الإسـلام، واختـار لصحابتـه بـلاد النجـاشي ليهاجـروا إليهـا، مـع أن فيـما حولـه دولًا أخـرى كان يمكـن لهـم الهجـرة إليهـا، ولكنـه أرشـدهم للدولـة الأكـثر (إيجابيـة) في التعامـل مـع اللاجئـين إليهـا.

هـذا المنهـج في التعامـل مـع النـاس والكيانـات والأحـزاب بـدون اسـتخدام ميـزان العـدل منهـج مدمّـر، إذ لـن يخلـو شـخص ولا كيـان مـن أخطـاء، فـإذا تعاملنـا مـع صاحـب الخطـأ الصغـير كتعاملنـا مـع صاحـب الخطيئـة الكبـيرة فلـن يبقـى أحـد يوثـق بـه.

أوقفوا الجدل

عندمـا يطـرح إنسـان فكـرة فإنهـا إمـا أن تكـون ضمـن المجـال الـذي يقبـل الاجتهـاد، أو ضمـن مجـال القطعيـات المعلومـة مـن الديـن بالـضرورة: فـإن كانـت مـن المسـائل القطعيـة التـي ليـس فيهـا إلا حـقٌّ وباطـل، فالأصـل عـدم السـكوت عنهـا، إمـا إن كانـت مـن المسـائل التـي تقبـل الاجتهـاد، فالأصـل نقـاش المخالـف فيهـا وفـق أصـول الحـوار العلمـي التـي وضعهـا علماؤنـا، حتـى لـو كنـت تظـن أن الأدلـة التـي اسـتند إليهـا مخالفـك ضعيفـة.

و(أغلـب) المسـائل السياسـية المتعلقـة بالعمـل الإسـلامي تدخـل تحـت إطـار (المسـائل الاجتهاديـة).

وفي المسـائل الاجتهاديـة فلـك أن تخالـف وتناقـش، ولكـن بعـد النقـاش وطـرح الأدلـة وسـماع الـردود، فـإن لم يتوصـل الطرفـان المختلفـان لاتفـاق، وأصرَّ كل منهـما عـلى صـواب اجتهـاده (وفـق رؤيتـه ومـن وجهـة نظـره) فالأصـل أن يتوقـف النقـاش، لأن الهـدف منـه عندهـا لا يكـون الوصـول للحـق، وإنمـا (التشـغيب) عـلى المخالـف.

ولنتصـور (عالمًـا) يلقـي درس فقـه، وقضايـا الفقـه فيهـا اختلافـات كثـيرة بـين العلـماء، وقـد تعمّـد بعـض مـن يخالفونـه في المذهـب حضـور درسـه، لا للاسـتفادة، بـل للتشـويش عليـه بطـرح الآراء المخالفـة لمذهبـه في كل قضيـة يعرضهـا، هـل يمكـن اعتبـار هـذا التـصرف تصرفًـا حضاريًّـا محترمًـا؟

مـن حـقّ المخالـف أن يطـرح وجهـة نظـره عـلى صفحتـه، أو في مسـجده، أو في منتدياتـه، ومـن حقـه أن يناقـش في الـدروس والمنشـورات الموضوعـة للنقـاش، وفي القضايـا التـي تطـرح لأول مـرة، بهـدف بيـان مـا يتبنـاه مـن رأي فيهـا، لا أحـد ينكـر عليـه ذلـك، لكـن المسـتهجن هـو تعمّـد البعـض الدخـول عـلى كل المنشـورات عـلى (الفيسـبوك) لحرفهـا عـن مسـارها وعـن الهـدف الـذي يريـده

منها صاحبها، وتوجيه النقاش إلى ميادين بعيدة عن الفكرة.

إن تعمد البعض الدخول على صفحات مخالفيهم في سائل التواصل الاجتماعي والدخول في (مناكفات) وجدالات عقيمة على ما يطرحونه من آراء وتكرار ذلك بحيث لا تكاد تجد لهم نشاطًا في وسائل التواصل إلا التشغيب على مخالفيهم، إما أن يكون بسوء قصد أو بسوء أدب، واستدامة النقاش في قضايا اجتهادية سبق ونوقشت، وعلم كل طرف دليل وحجة الطرف الآخر، وبقي كل طرف متمسكًا برأيه مقتنعًا به هي من باب الجدل المذموم، الذي يخشى على فاعله أن يكون جدله هذا من علامة الضلال لقول النبي ﷺ: (**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**)[1] .

(١) حديث حسن، رواه ابن ماجه (سنن ابن ماجه، ح ٤٨)، والترمذي (سنن الترمذي، ح ٣٢٥٣)، وغيرهما.

التعامل مع فقه المصلحة والواقع

طـرح أحـد الأصدقـاء تسـاؤلًا عـن مـا سـمّاه (السياسـات المبنيـة عـلى فقـه المصلحـة وفقـه الواقـع التـي أوغـل الإسـلاميون في اسـتخدامها) يفهـم فيـه غمـز لاسـتخدامهم ذلـك، وأنـا معـه في أن البعـض أسـاء اسـتخدام هذيـن الفقهـين (فقـه المصلحـة وفقـه الواقـع)، ولكنـي أرى أن النقـاش في مثـل هـذه القضايـا بطريقـة (النقـاش الفيسـبوكي) يـضر ولا ينفـع، فالمسـألة شـائكة، وتبنّـي رأي في مسـألة محـددة لهـا علاقـة بفقـه الواقـع يعتمـد عـلى عوامـل كثـيرة، وهـذه المسـألة مثلهـا مثـل تشـخيص حالـة مرضيـة، تحتـاج في كثـير مـن الأحيـان فحوصًـا مخبريـة موسـعة، وبنـاء عليهـا يختلـف التشـخيص مـن حالـة لأخـرى، ولا يـدرك ذلـك إلا طبيـب متمكـن، رغـم أن النظـر (السـطحي) المعتمـد عـلى الأعـراض الظاهـرة يـرى الحـالات المرضيـة متشـابهة.

والـذي أراه أن تأصيـل القواعـد والدعـوة لاعتـماد أسـس سـليمة لاسـتنباط الأحـكام هـو مـا يمكـن الإشـارة إليـه في وسـائل التواصـل الاجتماعـي المعتمـدة عـلى (المنشـورات) القصـيرة التـي لا تصلـح لمناقشـات علميـة رصينـة.

مشـكلة التعامـل مـع فقـه المصلحـة وفقـه الواقـع أنـه صـار يتحـدث فيـه مـن لا يُحسـن ذلـك، مـع أن ذلـك مـن أخطـر الأمـور، وفيـه مزالـق كثـيرة، ورحـم اللـه سـفيان الثـوري الـذي قـال (**إِنَّمَـا الْعِلْـمُ عِنْدَنَـا الرُّخْصَـةُ مِـنْ ثِقَـةٍ، فَأَمَّـا التَّشْـدِيدُ فَيُحْسِـنُهُ كُلُّ أَحَـدٍ**)، وهنـا أكـرر التنبيـه؛ قـال (الرخصـة مـن ثقـة)، والثقـة هنـا هـو الثقـة في دينـه وفي علمـه، فكـم مـن ثقـة في دينـه ضعيـفٍ في علمـه، فهـذا لا يجـوز الاعتـماد عليـه، والعكـس كذلـك، فالعـالم المتمكـن مـن العلـم ولكـن وازع التقـوى عنـده ضعيـف لا يعتمـد عليـه.

قـد يظـن البعـض أن هـذه دعـوة لحجـر النـاس عـن الحديـث في هـذه المواضيع، ويحتـجّ بـأن حجـر الحديـث فيهـا بسـبب خطـورة الأمـر وحديـث مـا لا يحسـن

الحديث به، قد لا يكون أمرًا صحيًّا، بل قد يسبب أمراضًا مستعصية أكثر من مرض السكوت والإسكات.

ولهؤلاء أقول:

المطلوب ليس الحجر عن الحديث في هذه المواضيع، وإنما أن يتم الحديث فيها وفق منهجية علمية سليمة، لا تؤدي لعكس المقصود، فالنقاش المختصر المجتزأ، وهو سمة (النقاش الفيسبوكي) عمومًا، لا يصلح لهذه المواضيع، لأن القضايا السياسية المستند القرار فيها إلى (فقه المصلحة) قد تحتاج إلى نقاش طويل لشرح المعطيات للسائل، وهو نقاش لو تمت كتابته لاستغرق أوراقًا كثيرة، وهذا لن يغني فيه منشور من عدة أسطر.

بين انتقاد الفكرة وانتقاد المنهج

من المزالق الخطيرة التي يقع فيها متابعو وسائل التواصل الاجتماعي أنهم يهاجمون كثيرًا من الأفكار والقرارات ويرفضونها لمجرد صدورها عن جهة معينة لا يحبّونها ولا يؤيدونها، مع أنه عند التدبر بها سنجد أنّ فيها كثيرًا من الأفكار التي كنا نتبناها وندعو إليها، أو على الأقل نتفهم رأي القائلين بها.

كون (الفكرة) صدرت من شخص سيّء، أو جهة مبغوضة، أو أصدرت بطريقة غير مقبولة، لا يعني أنها خاطئة، وذلك يوجب علينا عدم التسرع في التعليقات السلبية بدون تروٍّ، والحذر من أن تقودنا مناكفة الخصم لتبني فكرة خاطئة.

على سبيل المثال لتوضيح الفكرة فإن عددًا من المؤسسات في (السعودية)، وكذلك عددٌ من الشخصيات العلمية قاموا بتغيير مواقفهم وأفكارهم في الآونة الأخيرة، فيما يمكن أن نطلق عليه أنه (عملية مراجعات فكرية)، منها مثلًا موقفهم من التشدد في تحريم الموسيقى (المجردة)، وبعض الأحكام المتعلقة بالمرأة، كحكم قيادتها للسيارة، وكالسماح للمرأة بتأدية فريضة الحج دون وجود محرم مرافق لها.

المشكلة أن هذه المراجعات لم تأت نتيجة قناعات فكرية، وإنما نتيجة رغبة (ولي أمرهم) وميلًا لاتباع هواه.

وكعادة وسائل الإعلام في الترويج لمثل هذه الأخبار فإنها تركز على تداول الناشطين لفتاوى كبار علماء السعودية مثل (ابن باز)، و(ابن عثيمين)، و(الفوزان) وغيرهم ممن كانوا يفتون بعدم جواز هذه الأمور، ممل يركز على التناقض الذي وقعوا فيه.

وهنا تجد بعض (الفسابكة) المتسرعين، وكثير منهم من حملة دعوة

الله تعالى، تجدهم يدخلون على خطّ النقاش مهاجمين هذه القرارات معتبرينها مخالفةً لشرع الله تعالى، مع أن كثيرًا من هؤلاء لو قرأوا لعالم من العلماء الذين يحبونهم كلامًا عن هذه القضايا يحمل نفس الموقف الجديد لعلماء (السعودية) ومؤسساتها الرسمية، كجواز حج المرأة بلا محرم وعدم التشدد في مسألة الموسيقى، لالتمسوا لقوله المخارج.

إن حال كثيرين منا اليوم أنهم يتخذون مواقفهم كردود أفعال لمناكفة الخصم دون التفكير في مضامين ما قال الخصم وما يقولون هم.

عندما يمر بك - أخي الحبيب - موضوع كهذا، فبدل أن تهاجم القول الذي قد يكون له وجاهة، عليك أن تهاجم (المنهج) الذي يتبعه هؤلاء، وهو أنهم يغيرون آراءهم بناءً على طلب أسيادهم، وليس بناءً على قناعتهم، فيمكنك أن تعلق على هذه المسألة بالقول مثلًا: (عرفتم الآن فقط أن في المسألة الفلانية خلافًا، وقد كنتم تهاجمون العلماء القائلين بذلك، فما عدا مما بدا؟)[1] .

وهذا يذكرني بقصة سمعتها من الشيخ شكري أبو رجب[2] - رحمه الله تعالى - في ثمانينيات القرن الماضي حكى لنا فيها أن مبشّرًا نصرانيًّا نزل عند بعض البدو المسلمين الذين فشا فيهم الجهل لانعدام العلماء، فخطب فيهم ليقنعهم بدينه، وقال لهم أن عيسى ابن الله، تعالى الله عن ذلك، فما كان من السامعين الذين أخذتهم الحمية لدين الإسلام إلا أن صاحوا في

---

(١) عبارة (ما عدا مما بدا) منسوبة للإمام علّي رضي الله عنه في بعض خطبه، ووردت في الشعر، وهي من عنوان قصيدة للشاعر (ابن عنين) يقول فيها: (يا دهرُ ويحكَ ما عدا مـمَّا بدا/ أرسلتَ سهم الحادثاتِ فأقصدا). ومعناها باختصار: ما الذي غيّر رأيك؟

(٢) الشّيخ شكري عبد المطّلب أبو رجب التّميميّ، (١٨٩٧ - ١٩٨٦ م)، عالم أزهري من مدينة الخليل، كان من أوائل المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين فيها، وتولى رئاسة شعبة الجماعة في الخليل.

وجهـه: كذبـت، بـل محمـد هـو ابـن اللـه.

هـذا حـال كثـير منـا اليـوم، يتخـذون مواقفهـم كـردود أفعـال لمناكفـة الخصـم دون التفكـير في مضامـين مـا قـال الخصـم ومـا يقولـون هـم.

ولكـن تبقـى قضيـة مهمـة هنـا ينبغـي الإشـارة إليهـا، وهـي كيفيـة التعامـل مـع مثـل هـذه القـرارات.

فبعـد أن وضحنـا أنـه لا ينبغـي مهاجمتهـا لأن مضامينهـا ليسـت فيهـا مشـكلة، فهـل هـذا يعنـي أنـه ينبغـي لنـا الدفـاع عنهـا؟

في كل قضية من هذه القضايا يجب علينا أن نسأل أنفسنا السؤالين التاليين:

- هل كان القرار القديم صائبًا أم لا؟
- وهل دوافع القرار الجديد بريئة، ونيّة متَّخِذِه حسنة أم لا؟

إن الإجابـة عـلى السـؤالين السـابقين ضروريـة لتحديـد مسـار النقـاش في هـذه القضايـا.

عندمـا نجيـب السـؤال الأول سـيتضح لنـا موقفنـا مـن القـرار الجديـد، فـإن كان القـرار الجديـد خاطئًـا والقـرار القديـم هـو الصـواب (مثـل أن الحفـلات المختلطـة كانـت ممنوعـة في السـعودية ثـم سـمح بإقامتهـا) فعندهـا يجـب أن يعلـو صوتنـا إنـكارًا لـترك الحـق والأخـذ بالباطـل، ولكـن عندمـا يكـون القـرار القديـم (كمنـع المـرأة مـن قيـادة السـيارة) خاطئًـا والقـرار الجديـد صائبًـا، أو يكـون القـرار القديـم موافقًـا لـرأي فقهـي معتـبر، والقـرار الجديـد موافقًـا لـرأي فقهـي آر (كمسـألة منـع المـرأة مـن الحـج بـلا محـرم، ثـم السـماح لهـا بذلـك)، ففـي هاتـين الحالتـين لا يجـوز أن نهاجـم هـذه القـرارات.

ومـع ذلـك فإنـه لا يجـوز أن يغيـب عـن موقفنـا جـواب السـؤال الثـاني، سـؤال الدافـع وراء اتخـاذ القـرار، فقـد اتخـذت قـرارات عديـدة في النظـام السـعودي مؤخـرًا، كقـرار السـماح للمـرأة بقيـادة السـيارة، لا غبـار عليهـا في الأصـل،

ولكنهـا لم تـأت في سـياق تصويـب خطـأ سـابق والتراجـع عنـه، ولـو كانـت كذلـك لوجـب الدفـاع عنهـا، ولكنهـا قـرارات جـاءت تهـدف لسـلخ المجتمـع في الجزيـرة العربيـة عـن التزامـه الدينـي، فهـي تـأتي ضمـن منظومـة متكاملـة فيها بعـض الحـقّ كهـذا القـرار وقـرار السـماح للمـرأة بقيـادة السـيارة، وفيهـا الكثـير مـن الباطـل كالقـرارات المتعلقـة بالسـياحة والمهرجانـات الفنيـة ومـا شـابهها.

روي – ولا أدري مـدى صحـة ذلـك – عـن الإمـام عبـد الحميـد بـن باديـس رائـد النهضـة الإسـلامية في الجزائـر (المتـوفى سـنة ١٩٤٠ م) أنـه قـال (واللـه لـو طلبـت منـي فرنسـا أن أقـول لا إلـه إلا اللـه، مـا قلتهـا)، وهـو هنـا – إن صحـت الروايـة عنـه – نظـر إلى أنـه لا يمكـن لفرنسـا التـي كانـت تحتـل الجزائـر حينهـا أن يكـون طلبهـا هـذا بريئًـا، رغـم أنهـا تطلـب شـيئًا صحيحًـا، وهـذا درس يجـب أن نَعِيَـه:

في بعـض الأحيـان يكـون القـرار أو الموقـف – لـو نُظِـر إليـه بشـكل مجـرّد – صائبًـا، ولكـن يكـون مـن الغفلـة أن تؤيـده دون الانتبـاه لدوافـع صاحبـه، وفي نفـس الوقـت ليـس مـن الحكمـة أن تنتقـده لسـوء قصـد صاحبـه حتـى لا يلتبـس عـلى النـاس الحـق بالباطـل، ولـذا فالمطلـوب في مثـل هـذه الحـالات – ومـن أهـل الـرأي عـلى وجـه الخصـوص – أن يوضحـوا موقفهـم عـبر بيـان صـواب الموقـف والتحذيـر – في نفـس الوقـت – مـن دوافعـه وتوابعـه، وإلا سـنعرض أنفسـنا وأبنـاء مجتمعنـا لاختـلاط الحابـل بالنابـل، واشـتباه الحـق بالباطـل.

حول فرض التدين في المجتمع

تتسرب في الآونة الأخيرة أفكار خطيرة لأبناء الحركة الإسلامية، بعضها منشؤه الانهزام تحت الضغط النفسي الموجه لهم، وبعضها ناتج عن سوء فهمهم لأحكام دينهم والأفكار التي يجب أن يحملوها، ومن نماذج ذلك أن أحد الشباب الأفاضل، وهو ممن لا أشك في إخلاصه، كتب على حائط صفحته ما مضمونه أن على الإسلاميين قبل دخولهم في الحياة السياسية أن يكونوا مقتنعين أن التدين جزء من الحرية الشخصية التي لا يمكن فرضها على الآخرين، وأنهم يخطؤون عندما يحاولون نقل تدينهم الشخصي إلى الجماهير مستغلين وصولهم إلى مواقع هامة وامتلاكهم أدوات مؤثرة.

والموضوع بهذه الصياغة التي عرضها الأخ الفاضل ملتبس ويحتاج إلى مزيد من التوضيح.

إن (التدين) يعني الالتزام بأحكام الدين، وهذا الالتزام فيه قضايا تعتبر من القضايا الشخصية التي لا تؤثر في غير صاحبها، غير أن فيه قضايا كثيرة يمتدُّ تأثيرها ليشمل المجتمع كله أو بعضه.

وعليه فالقول بأن (التدين) جزء من الحرية الشخصية فيه جانب صحيح وهو ما يتعلق بما لا يؤثر على الآخرين، وفيه جانب خاطئ، إذ الحرية المطلقة ليست مقبولة في أي مجتمع بشري.

يعني: يمكننا اعتبار التدين كقيادة السيارة، إن قدتها في أرضك التي تملكها، ولم تلتزم بالسرعة وغيرها فأنت حرٌّ (إلى حدّ ما أيضًا؛ لأنه غير مسموح لك إيذاء نفسك)، ولكن إن نزلت بها إلى الشارع فيصبح لبقية الناس الذين لهم حق السير في الشارع حقوق لا يجوز أن تعتدي عليها، وهنا تتوقف حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين.

غير أن هناك قضية أخرى ينبغي الوقوف عندها والتنبيه لها، وهي أن

أمـور الديـن المطلـوب مـن المسـلم الالتـزام بهـا تتضمـن أحكامًـا تختلـف اجتهـادات العلـماء فيهـا، فبعـض الأمـور وصـل اجتهـاد العلـماء فيهـا للقـول بإباحتهـا، كالموسـيقى المجـردة، بينـما كانـت نتيجـة اجتهـاد علـماء آخريـن القـول بحرمتهـا، وهـذه القضايـا يعتـبر المتديـن ملتزمًـا بمـا أمـره اللـه فيهـا إن التـزم بمـا أدّاه إليـه اجتهـاده إن كان مـن أهـل العلـم، أو قلّـد مـن يثـق بعلمـه ودينـه مـن العلـماء، إن كان مـن غـير المتخصصـين بالعلـم، ومثـل هـذه القضايـا، وهـي كثـيرة، لا يجـوز لأحـد فـرض رأيـه واجتهـاده عـلى الآخريـن فيهـا، وإن كان يجـوز للدولـة أن تختـار أحـد الآراء وتسـنّه في قانـون يلتـزم بـه النـاس، مـع عـدم جـواز محاسـبتها لمـن لا يلتـزم بـه بينـه وبـين نفسـه، ويختـار رأيًـا آخـر، مـا لم يتـضرر المجتمـع مـن اختيـاره.

ومسـألة محاولـة الإسـلاميين نقـل تدينهـم الشـخصي إلى الجماهـير مسـتغلين وصولهـم إلى مواقـع هامـة وامتلاكهـم أدوات مؤثـرة، أو حتـى الترويـج لاختياراتهـم الفقهيـة في الأمـور المختلـف فيهـا، إذا كان ذلـك عـبر نـشر فكرهـم وإقنـاع النـاس بالالتـزام بأحـكام الديـن كـما هـم ملتزمـون بـه فليـس في ذلـك أي مشـكلة، بـل المشـكلة أن تتـم دعوتهـم إلى أن يتركـوا محاولتهـم نـشر فكرهم بالإقنـاع.

وأمـا فـرض الالتـزام بالقـوة والإكـراه عندمـا يكـون الموضـوع مـما لا يؤثـر عـلى المجتمـع، أو مـن الأمـور الخلافيـة فهـو أمـر أعتقـد أنـه غـير مقبـول.

وعندمـا يكـون في عـدم الالتـزام بمـا يأمـر بـه الديـن إضرار بالآخريـن ففرضـه عـبر قوانـين يتوافـق عليهـا ممثلـو المجتمـع أمـر لا تنكـره العقـول، ولا تذمّـه الشرائـع، وإلا صـارت المجتمعـات فـوضى بـلا نظـام.

نصيحة لفقهاء السياسة الشرعية

تـدور أغلـب الأحـكام في الفقـه السـياسي الإسـلامي عـلى قاعـدة تحقيـق المصالـح ودرء المفاسـد، والمقصـود بالمصالـح والمفاسـد هنـا مـا دلـت الشريعـة - بنصوصهـا أو قواعدهـا - عـلى أنـه مصلحـة أو مفسـدة، لا مـا يـراه النـاس كذلـك مـما يتعلـق بهـم.

ولمـا كانـت (المصالـح والمفاسـد) نسـبية، وتتأثـر بعوامـل عديـدة محيطـة بهـا، إذ يترجـح في (الفعـل) جانـب تحقيقـه المصلحـة ودرئـه المفسـدة في وقـت، بينـما يترجـح جانـب المفسـدة في الفعـل نفسـه في وقـت آخـر، لتغـير الظـروف المحيطـة بـه، فـإن حكـم القيـام بـه أو عـدم القيـام بـه يختلـف مـن وقـت لآخـر.

مثال ذلك:

(المشـاركة في انتخابـات سياسـية) في (دولـة مـا)، عنـد القائلـين بجـواز المشـاركة في مثـل هـذه الانتخابـات في ظـل أنظمـة لا تحكـم بالإسـلام، أمـرٌ تحكمـه قاعـدة الموازنـة بـين المصالـح المتحققـة منهـا والمفاسـد المترتبـة عليهـا، ولذلـك قـد تكـون المشـاركة مطلوبـة ومحبّـذة بـل وضروريـة في مرحلـة مـا، وبينـما تكـون عكـس ذلـك في مرحلـة أخـرى.

مـا سـبق يتطلـب مـن أهـل العلـم الشرعـي، وفقهـاء السياسـة الشرعيـة بالـذات الانتبـاه لأمـور منهـا:

- الابتعـاد عـن اسـتخدام ألفـاظ (الحِـلّ والحرمـة) عنـد الحديـث عـن مثـل هـذه الأمـور، لأن عامّـة النـاس قـد لا يسـتوعبون الصـورة كاملـة، فـإذا رأوا مـن يقـول عـن (فعـل مـا) أنـه حـلال أو واجـب، ثـم رأوه يحـرم فعـلًا شـبيهًا بـه في وقـت آخـر أو مـكان آخـر، فقـد يظنّـون أنـه يتلاعـب بأحـكام الديـن، ولا يدركـون أنـه هنـا كالطبيـب، ليـس بالـضرورة أن يعطـي مريضـين

نفس الدواء ولو تشابهت أعراض مرضهما، لأن ظروفهما الأخرى قد لا تتشابه.

- الابتعاد عن (الحِدّة) في طرح الرأي ونقد الرأي المخالف، إذ ما دامت الأمور تعتمد على تقدير تحقق المصالح ووجود المفاسد في الفعل، وهي أمور يختلف الناس في تقديرها، فليس في المسألة يقين لازم، وما كان كذلك فالأصل فيه استيعاب الرأي المخالف.
- الاعتماد على (الخبراء) و(أهل الاختصاص) في تحديد (المصالح والمفاسد) المترتبة على (الفعل)، فليس بالضرورة أن يكون الفقيه أو السياسي قادرًا على تحديد ذلك بنفسه، بل إني أجزم أنه لا يستطيع ذلك دون مشاورة أهل الخبرة بالموضوع المبحوث فيه، وهنا قد تجد الخبراء أنفسَهم مختلفين في تقدير المصالح والمفاسد، ولذا يجب الاتفاق على آلية للترجيح بين الآراء المتضاربة.

فقدان التوازن وغياب الضوابط الشرعية

أرعبتني عبارة قرأتها ضمن تعليق لأحد الشباب على منشور ينتقد بعض من ينتقدون المقاومة بسبب تصريحات أو تصرفات لبعض الناطقين باسمها، حيث بدأ الأخ كلامه بالقول (لا حدود في البراغماتية السياسية حتى من منظور إسلامي)، وهذا كلام خطير جدٌّ خطير، إذ في العالم كله ليس هناك شيء مطلق بلا حدود، وفي تصرفات المسلم هناك حدود وقيود لكل تصرف تضيق وتتسع وفق ما أباحه الله تعالى أو مَنَعه.

ما يسمونه (البراغماتية السياسية)، وهي عبارة تترجم بـ (الذرائعية) أو(العَمَلانِيَّة) أو (الواقعية) مسموح بشيء شبيه بها في السلوك الإسلامي، وهو الفقه القائم على الموازنات بين المفاسد والمصالح، وهو فقه يعتمد قواعد وقوانين مستندة إلى أصول الشريعة وضوابطها، ومن هذه القواعد:

- الضرر يزال
- الضرر لا يزال بالضرر
- يتحمل الضرر الخاص؛ لأجل دفع ضرر العام
- الضرر الأشد يزال بالأخف
- إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضررًا بارتكاب أخفهما
- درء المفاسد أولى من جلب المصالح

وهذه كلها حدود وقيود على ممارسة هذا الفقه.

مشكلتنا - في الساحة الإسلامية هذه الأيام - أن فكرة (لا حدود) تسربت إلى أوساطنا، فصرنا نشهد انفلاتًا وتسيُّبًا خطيرين حتى تكاد تشعر أن (البعض) قد تحلل من كل (المبادئ) التي يجب أن ينطلق منها.

والمشكلة الأعوص أن هذا التسرب طال أشخاصًا يشغلون مواقع متقدمة في

قيادة العمل الإسلامي، ويظنون أن وجودهم في تلك المواقع يعطيهم الحق في التصرف وفق قناعاتهم (السائبة) غير المنضبطة، وهم ليسوا مؤهلين تأهيلًا شرعيًّا تخصصيًّا يمكّنهم من معرفة موافقة أو مخالفة التصرف للأحكام الشرعية.

وكما قيل في الحكمة (أعط خبزك لخبّازه) و(أعطِ القوس باريها)، ولذا يجب أن يكون لكل من يتبوأ موقعًا قياديًّا في أي حركة إسلامية مرجعية شرعية من أهل العلم الموثوقين يرجع إليهم (في الأصل قبل القيام بالعمل)، وإن وجهوه (بعد القيام بالعمل) إلى وجود مخالفة شرعية فيه رجع إلى الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وبدون ذلك فإن منزلقات التفلت من حدود الشريعة تترصد للكثيرين.

أكلت يوم أكل الثور الأبيض

تعمـل الأنظمـة السياسـية الطاغوتيـة في بلادنـا عـلى الاسـتفراد بالتيـارات الإسلامية لتسـهيل القضـاء عليهـا أولًا، ثـم ليكـون ذلـك طريقًـا للقضـاء عـلى دعـوة الإسـلام والحـق بعـد ذلـك.

النظـام العسـكري الحاكـم في مـصر اسـتفرد بتيـار الإسـلام السـياسي منـذ انقـلاب السـيسي عـلى مـرسي - رحمـه اللـه تعـالى - وتـرك لـكل مـن التياريـن السـلفي والصـوفي هامشًـا مـن الحريـة، وخصوصًـا أنـه وجـد فيهـما مـن رموزهـما مـن وقـف مـع الانقـلاب، ونـسي في غمـرة عداوتـه للإخـوان المسـلمين الذيـن شـكلوا العصـب الرئيـس لتيـارات الإسـلام السـياسي أن عـداء أنظمـة الجـور والظلـم والضـلال هـي عـداءٌ للديـن نفسـه كمنهـج، وليـس لحملتـه كأشـخاص.

واليـوم بـدأ النظـام المـصري - وهـو نمـوذج لبقيـة الأنظمـة التـي تسـير عـلى نفـس الطريـق - بـدأ بشـحذ سـيوفه لقطـع دابـر التيـار السـلفي، بعـد أن كان قـد عمـل عـلى إضعافـه بعـد انتهـاء الـدور الـذي كان مرسـومًا لــ (حـزب النور) في انقـلاب السـيسي، وذلـك بإبعـاد كبـار علـماء السـلفية عـن الخطابـة ومنـع ظهورهـم في الإعـلام، ثـم بتقليـص دورهـم السـياسي.

يحـاول النظـام المـصري هـذه الأيـام عـبر مهاجمتـه للتيـار السـلفي ورمـوزه، ذلـك الأمـر الـذي ظهـر جليًّـا بعـد شـهادة الشـيخ محمـد حسـين يعقـوب في المحكمـة، وقيـام إعلاميـي النظـام بمهاجمتـه ومهاجمـة التيـار الـذي يمثلـه، يحـاول هـذا النظـام تقديـم التيـار الصـوفي ليوفـر الغطـاء الدينـي للنظـام، فأنظمـة الضـلال هـذه لا تـزال بحاجـة إلى مـن يقـدّم لهـا شرعيـة دينيـة لإقنـاع عامـة النـاس الذيـن لا تـزال عواطفهـم الدينيـة نابضـة.

ولا يقتـصر اسـتغلال (التيـار الصـوفي) عـلى نظـام السـيسي، بـل إن أكـثر مـن يدعـم هـذا التوجـه هـو نظـام الشـياطين في (الإمـارات العربيـة) الـذي عمـل

على تلميع رموز صوفية بارزة داعمة لأنظمة الطغيان، مثل (عبد الله بن بيه)، و(عليّ الجفري)، و(علي جمعة)، وهؤلاء وإن كان فيهم من لهم وزن لا ينكر في العلم الشرعي إلا أنهم لن يكونوا أعلم من (إبليس)، ولو كان للعلم دون التقى شرف لكان أشرف خلق الله إبليس.

وكأني بهذه الأنظمة تهتدي بتوجيهات مراكز الأبحاث الغربية، فقد أعدّ مركز (راند)، وهو مؤسسة بحثية أمريكية ترسم خططًا للسياسية الأمريكية في التعامل مع الأحداث في العالم أجمع، أعدَّ تقريرًا سنة ٢٠٠٧م، كان عنوانه (بناء شبكات من المسلمين المعتدلين في العالم الإسلامي) كانت خلاصته الدعوة لدعم الصوفية في العالم الإسلامي، بديلا للسلفية.

المشكلة التي نقع فيها كلما حدث أمر مثل هذا - أي محاولة الأنظمة استخدام تيار إسلامي للتغطية على جرائمها - أننا نتعامل مع المسألة وفق قاعدة (صديق عدوّي عدوٌّ لي)، وهذا يوقعنا في مصائب متتالية، ويوسع الشرخ بين العاملين لحمل دعوة الإسلام.

عندما يحاول الطواغيت استغلال تيار إسلامي فإنهم لا يبحثون عن المخلصين فيه، ولا عن الممثلين الفعليين لفكر ذلك التيار، بل يبحثون عمّن يتماهى معهم من المنحرفين وأصحاب المصالح من المنتسبين لذلك التيار، فالصوفية التي يحاول الطواغيت استغلالها هذه الأيام ليست شرًّا، بل إن فيها من الخير الكثير، يمثله علماء ربانيون متصوفون يسيرون في سلوكهم وفق الكتاب والسنة وتوجيهاتهما، ولكنها - كبقية تيارات الإسلام وحركاته - فيها دَخَن يمثله النموذج الصوفي المنشغل بالخزعبلات والخرافات، وكثير من الصوفيين الطُّرقيين، كما أن في التيار السلفي خيرًا كثيرًا، يمثله علماء صادحون بالحق، معتدلون في نظرتهم للآخر المسلم، ولكن الطواغيت يعملون على إبراز النماذج السلبية كتيار الجاميّة وما شابهه، وكذلك يوجد في تيارات الإسلام السياسي خير كثير، وفي المنتسبين إلى هذا التوجه

قلـة هـي إلى الـشرِّ أقـرب لابتعادهـا عـن طريـق الحـق والهـدى.

لا يجـوز أن تجعلنـا محاولـة الطواغيـت اسـتغلال بعـض المتصوفـة في المعركـة ضـد دعـوة اللـه وحملتهـا معاديـن للصوفيـة الحقّـة المنضبطـة بمنهـج اللـه، كـما لا يجـوز أن يجعلنـا سـقوط بعـض المنتسـبين للمدرسـة السـلفية في حمئـة تأييـد باطـل الأنظمـة مُعاديـن للخـير الكثـير في السـلفيين المخلصـين، كـما لا يجـوز أن تدفعنـا أخطـاء بعـض المنتسـبين لفكـر الإخـوان المسـلمين لأخـذ موقـف سـلبي مـن هـذا الفكـر الـذي يجمـع - عنـد مـن تبنـاه بحـق - بـين كل الخـير في كل تيـارات الإسـلام الفاعلـة.

إن هـذا العـداء هـو مـا يريـده منـا الأعـداء، فهـل لنـا أن نتسـلح بالوعـي فـلا نقـع في هـذه الفخـاخ؟

تصويب المسارات لا تسجيل المواقف

عندما يرى الداعية منكرًا في المجتمع فعليه قبل أن يعمد إلى التشهير بفاعلي هذا المنكر أن يحاول علاجه بالحسنى، ويتطلب ذلك منه أن يعرف من الذي قام بذلك الفعل المخالف لشريعة الله، فإن وجد أن الفاعل شخص أو جهة ليست سيئة النية، وإنما أُتيت من قبل الجهل بحكم الله تواصل معه وسمع منه وشرح له موضع المخالفة، وحبّذا لو حاول تقديم البديل الجائز شرعًا، ولم يكتفِ ببيان الفعل الحرام فقط، وأكاد أجزم أن غالبية من تتم نصيحتهم بهذه الطريقة من غير سيئي النية سيتجاوبون معها، أما إن كان فاعل المنكر معروفًا بالشرّ وبعدم الاستجابة للنصح فعندها لا حرج من الإنكار عليه علنًا لتحذير المجتمع من شروره.

في واقعنا - مع الأسف - فإن اللجوء إلى التشهير هو أول ما يبادر إليه (البعض) ممن يزعم قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو أدى ذلك إلى دفع فاعل المعصية للإصرار عليها مكابرة وعنادًا، حتى أنك تشعر أن هدفهم (تسجيل المواقف) وليس تصويب المسارات.

ولأضرب مثالًا لتوضيح مُرادي: شخص نشر صورة له مع ابنته ذات السنوات العشر والتي تبدو عليها ملامح النضج وهي (متزينة)، فهذا قد قام بفعل (منكر)، ولكنه قد يظن هذا جائزًا ما دامت بنته لم تصل لسنّ البلوغ، فنصح هذا الشخص وبيان الحكم الشرعي له أولى من الإنكار العلني عليه، إذ هذا الإنكار العلني يدخل في باب (التشهير به)، ولعله إن نُصح - بالحسنى - يحذف منشوره ويُدرك خطأه، وذلك أفضل من دفعه لمربع المكابرة عبر التشهير به فيلجأ للدفاع عن نفسه والبحث عن مبررات لما فعله.

سبب المنشور

قام أحد مراكز تدريب الرياضة للنساء في مدينة الخليل بعقد دورة لتأهيل المدربات، وأحضر لأجل ذلك خبيرًا رياضيًّا من عرب فلسطين الـ ٤٨ لتدريبهن، والمدربات اللواتي حضرن الدورة كنَّ يلبسن اللباس الشرعي، فانبرى عدد من حملة الدعوة لمهاجمة هذا المركز واتهامه بالعمل على نشر الفساد في المجتمع، فأصدروا البيانات وعقدوا الدروس في المساجد لأجل ذلك، يومها تواصل معي زوج المدربة المسؤولة عن المركز ليسألني هل في ما فعلته زوجته من إحضار رجل لتدريب المدربات وهنّ لابسات زيّهن الشرعي حرمة؟!

فقلت له: نعم، ذلك لا يجوز، حتى لو كنَّ يلبسن اللباس الشرعي، فأداؤهن الحركات الرياضية أمامه مما لا يجوز ولا يقبل، فسأل محاولًا التبرير قائلًا: إن وجود مدربات متدينات ضرورة ليقمن بتدريب النساء، وهنّ يحتجن لشهادات رسمية ليفتحن مراكز تدريب، ولا يوجد رجال مدربون مؤهلون لتخريج المدربات بشكل رسمي وقانوني.

يومها قدمت له مقترحًا يحقق لهم ما يريدون من عقد تلك الدورة، مع تجاوز المخالفة الشرعية، وكانت الفكرة أن يشرح المدرب للنساء الحاضرات الحركات الرياضية وأساليب التدريب كأيّ محاضر، وعندما يراد اختبارهنّ في الأداء فليحضر معه إحدى تلميذاته المدربات اللواتي يثق بتقييمهن لتختبر هي - لا هو - المتدربات، ومع أن ذلك كان يكلف المركز تكلفة إضافية إلا أنهم وافقوا على الفكرة، إذ أنهم - وأنا أعرفهم شخصيًّا - ليسوا ممن يتعمدون مخالفة شرع الله تعالى، وهكذا تم وقف المخالفة الشرعية بدون ضجة ولا إيغار للصدور، وهو ما أعنيه بـ (تصويب المسارات لا تسجيل المواقف)، إذ غايتنا العنب وليس مقاتلة الناطور.

فهرس المحتويات

(إصدارات المؤلف)

• سلسلة أبحاث فقهية

1. حقوق العمال ومسؤولياتهم
2. القراءات وأثرها في اختلاف الفقهاء
3. إلزامية الوعد وأثرها في بيع المرابحة
4. أستخدام التقنيات الحديثة في إثبات الحدود
5. الهدنة في الفقه الإسلامي؛ دراسة في تحديد المدة
6. قاعدة (الجواز الشرعي ينافي الضمان)
7. حكم الاستغفار لموتى الكفار والترحم عليهم والتعزية بهم

• كتب أخرى

8. اختيارات الإمام الطبري في مسائل الحدود (دراسة فقهية مقارنة) -
9. الإمام برهان الدين الجعبري شيخ القراء وشيخ حرم الخليل عليه السلام؛ حياته وآثاره
10. هكذا علمني أبي
11. لماذا أحبك؟
12. رسائل لسالكي طريق الدعوة



• المؤلف

عيسى خيري عيسى الجعبري

ولد سنة 1966 في مدينة الخليل في فلسطين، وتعلم في مدارسها حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيماوية من الجامعة الأردنية سنة 1990م، وشهادة البكالوريوس في التربية الإسلامية من جامعة القدس المفتوحة سنة 2001 م، وماجستير الفقه والتشريع وأصوله من جامعة القدس سنة 2017م.
تولى منصب وزير الحكم المحلي في الحكومة الفلسطينية العاشرة سنة 2006 – 2007م
سجن لدى سلطات الاحتلال الصهيوني (13) مرة، قضى خلالها عشر سنوات في السجن.
متزوج ولديه أربع بنات.

دار المستقبل للدراسات والنشر والإعلام
فلسطين - الضفة الغربية - الخليل
ص.ب.٥٥